فؤاد عجمي

# التمرّد السوري



نقله إلى العربية:
أحمد الشنبري

Jadawel جداول

Fouad Ajami

# The Syrian Rebellion

First Published:
by the Hoover Institution Press, Stanford
University, Stanford California, U.S.A.

فؤاد عجمي

# التمرّد السوري

نقله إلى العربية:
أحمد الشنبري

Jadawel جداول

الكتاب: **التمرّد السوري**
المؤلف: **فؤاد عجمي**
نقله إلى العربية: **أحمد الشنبري**

**جداول**
للنشر والترجمة والتوزيع
الحمرا - شارع الكويت - بناية البركة - الطابق الأول
هاتف: 00961 1 746638 - فاكس: 00961 1 746637
ص.ب: 5558 - 13 شوران - بيروت - لبنان
e-mail: d.jadawel@gmail.com
www.jadawel.net

**الطبعة الأولى**
حزيران/ يونيو 2013
ISBN 978-614-418-196-6



**طبع في لبنان**

**Copyright © Jadawel S.A.R.L.**
Hamra Str. - Al-Barakah Bldg.
P.O.Box: 5558-13 Shouran
Beirut - Lebanon
First Published 2013 Beirut

# المحتويات

# الإهداء

إلى ليلى، التي وصلت في الربيع

# مقدمة

لعقود، دارت مواضيع مؤسسة هوفر (معهد/ أكاديمية) حول الاهتمامات العريضة بالحريات السياسية والاقتصادية والفردية، إن الحرب الباردة، والتي حركت وتحدّت أمتنا أثناء القرن العشرين كانت هي التي ضاعفت كثيرًا من نشاط هوفر بما في ذلك جمعها للأرشيفات ودراسات الأبحاث. كان نتاجها المستمر عن العالم الشيوعي شاهدًا على ذلك الزمن والكفاح. ولكن لا راحة من ضغوط التاريخ، وما أن خرجت الشيوعية من مسرح التاريخ حتى ظهر تحد هائل في عامة بلدان العالم الإسلامي. استراحة قصيرة وطريق متعرج بدأ مع سقوط حائط برلين في 9 تشرين الثاني/نوفمبر1989 إلى الهجوم على الولايات المتحدة في 11 أيلول/سبتمبر2001. إن مشروع هوفر الذي بدأ حديثًا، «مجموعة هربرت وجين دوايت عن الإسلام والنظام الدولي» هي مشاركتنا الهادفة إلى فهم أعمق للصراع في العالم الإسلامي بين الاستقرار وأعدائه، بين المسلمين الحريصين على حماية حكم العقل ومكاسب الحداثة، وبين أولئك العازمين على حرمان العالم الإسلامي من مكانته في النظام العالمي الحديث للدول. الولايات المتحدة متفاعلة بعمق ومكشوفة بشكل خطير في العالم الإسلامي. ونعتبر مجموعة العمل هنا جزءًا لا يتجزأ من المواجهة المستمرة مع المتطرفين

الإسلاميين الذين أعلنوا الحرب على الدول التي هم بين مواطنيها وعلى القوى والمصالح الأميركية وعلى النظام العالمي نفسه. الإسلاميون بدون شك أقلية في عالم الإسلام ولكنهم فصيلة ذات عزم. عالمهم هي الإمارة الإسلامية يقودها «أمراء نصبوا أنفسهم مجاهدين في سبيل الله». ومُبرَّرة بالسعي وراء الخلافة التي انهارت مع نهاية الإمبراطورية العثمانية في 1924. سادة الإرهاب هؤلاء وجنودهم هم وراء الصعوبة المتزايدة التي تعيق اندماج عالم الإسلام في العالم الحديث. وفي أحسن الأحوال إن دخول المسلمين إلى الحضارة الحديثة والاقتصاد كان سيتسبب في صعوبات ليست بالهينة في عقابيلها: القيود على المرأة وإرث الإذلال والشفقة على النفس والأنظمة التعليمية التي عفى عليها الزمن والانفجار الديموغرافي الذي هو دائمًا في حالة حرب مع المكاسب الاجتماعية والاقتصادية. ولكن العوائق التي بناها جنود العقيدة هؤلاء بين الإسلام «والآخرين» مهددة على وجه الخصوص. كانت بلاد الإسلام معبر الحضارات وطرق التجارة والشعوب المختلطة. لقد شنّ الإسلاميون حربًا وحشية ومؤثرة ضد ذلك التراث الحضاري. إن الانتقال إلى عالم اقتصادي حديث كالذي استطاعت الصين والهند تحقيقه في السنوات القريبة سيكون من المستحيل في ثقافة تتغذى على العدوانية الناتجة عن رثاء النفس والدعوة المستمرة إلى حروب الأديان.

إن حرب الأفكار مع الإسلام المتطرف هو أمر أساسي لا مفرّ منه بالنسبة لجهود هوفر. إن المضمون الاستراتيجي لهذا الصراع هو منطقة الشرق الأوسط الكبرى والتي هي الركيزة الأخرى. أمامنا ثلاث حالات من الخطر في قلب العالم

الإسلامي: الدول التي استسلمت لتسلط الإرهاب والتي لا وجود فيها لسلطة الدولة (أفغانستان والصومال واليمن) والنظم الدكتاتورية التي تقمع شعوبها داخل البلاد وتسعى إلى الحصول على أسلحة الدمار الشامل والمغامرة من الخارج (العراق تحت صدام حسين والثيوقراطية الإيرانية) والأنظمة «التمكينية» كتلك التي في مصر والسعودية والتي تصدّر مشاكلها مع الإسلاميين المتطرفين إلى المناطق الأخرى في العالم الإسلامي وما ورائه. ومن هذا المنطلق، فإن مهمة دفع التطرف الإسلامي إلى الوراء وإصلاح وتقوية الدولة في كافة أنحاء العالم الإسلامي في الشرق الأوسط وأفريقيا وكذلك جنوب وجنوب شرق آسيا ووسط آسيا ـ هو أكبر تحدٍّ في القرن الحادي والعشرين. إن نقطة البداية الأولى هي المعرفة المفصّلة لعدونا.

ومن ثم، فإن مجموعة العمل ستعتمد على المصادر الفكرية لدى هوفر وستانفورد والعديد من الباحثين وذوي الخبرة في الولايات المتحدة والشرق الأوسط وعالم الإسلام العريض. إن الأبحاث عن الإسلام المعاصر يمكن الاطلاع عليها بنظر ثاقب، والكثير منها الذي ظهر بعد 11 أيلول/سبتمبر مباشرة لم يكن عميقًا بشكل مميز ولم يثبت أمام امتحان الزمن والأحداث. وكلنا على أي حال لدينا القدرة على إجراء تقييم جديد للمواد المتعلقة بالإسلام. باستطاعة باحثونا وخبراؤنا الحديث بالتفصيل الموثوق عن الإسلام داخل الجزيرة العربية وعن اتجاهات داخل الإسلام في مصر، وصراع التراث الكمالي العلماني في تركيا والإسلاميون الجدد وخصوصًا الصراع من أجل ضمان ولاء الإسلام الأوروبي بين أولئك الذين يقبلون التراث الديني ومبادئه، وبين التحديث والذين لا يتقبلونه.

لا داعي أن يعتقد العرب والمسلمون بالاستثنائية الأميركية ولكن أملنا هو أن نثير اهتمامهم في التنافس الفكري. لن نهدف بالضرورة إلى إنتاج دراسات أساسية، بل أن تُنتج هذه الدراسات وأن يصبح المشاركون والباحثون على علم راسخ بمواضيعهم. نريد أن يكون إنتاجنا النقدي متاحًا للجمهور على نطاق واسع كتابات تمهيدية حول أمور تتطلب الشرح، كالتعليقات على الآراء الواردة من الصحف، تلك الكتابات التي ستصبح جزءًا من الحوار العام، إضافة إلى كتب قصيرة مثيرة للاهتمام التي قد تنير الطريق أمام الاختيارات والجهود في الإسلام الحديث.

نعتقد بأن هذا الجهد يعكس بأمانة القيم التي تؤدي إلى وجود مجتمع مهذب ومعتدل. نحن على علم بمعاناة الإسلام الحديث، ولن تألو هذه المجموعة جهدًا في توضيحها. ولكننا أيضًا نعرف أن المعركة لكسب الإسلام الحديث لم تذهب هباءً، وأن هناك رجالًا ونساءً شجعان يكافحون لاستعادة عقيدتهم من المتطرفين. سيكون بعض المشاركين معنا أنفسهم مثقفين وشخصيات عامة مرموقة ثبتوا تحت الضغوط. لن تكون مجموعة العمل تبريرية لدور أميركا في العالم الإسلامي. إن الدولة التي محت الطغيان الديني في أفغانستان والاستبداد في العراق والتي هبّت لإنقاذ مسلمي البلقان عندما كانوا على وشك الفناء، منحت الكثير لهذه الشعوب المثقلة. لم نكن دائمًا نفهم الإسلام والمسلمين ـ وهذا هو هدف البحث. ومن المتفق عليه في هذه المجموعة أن السعي وراء الحداثة وخير البشر وسيادة القانون والعقل في البلدان الإسلامية هو القاسم المشترك بين أميركا والإسلام المعاصر.

ذكر آرنولد توينبي، الذي كان مشهورًا بكتابه الاثني عشر مجلدًا «دراسة في التاريخ»، أن العالم به منطقتان استراتيجيتان، أماكن حيث تلاقت بها أفكار شتى لانهائية وتحركات بشرية تقابلت وتصادمت واعتصفت واستدارت لتؤثر في العلاقات الدولية على كل الاتجاهات. أحدها كان حوض سيحون وجيحون/ الأوكسوس والجاكرتس (البنتاغون يسميها اليوم آف ـ باك). المنطقة الأخرى والأكثر أهمية هي سوريا حيث تصارعت الحضارات والأديان لآلاف السنين الأمر الذي ترك آثارًا عميقة على تاريخ البشرية فيما بعد.

من يستطيع سوى فؤاد عجمي أن يصوّر هذه الحالة السورية الفريدة عبر العصور والطبقات ذات التعقيد السياسي ـ الثقافي؟ والآن نستطيع أن نرى أن هذا العمل الفكري قد تشكَّل ليشرح بعمق المأزق العربي ـ الإسلامي المعاصر. يتتبع كتاب «التمرد السوري» الخيوط المتداخلة للدين والسياسة والشخصيات والسلام والحرب والانتقام والآمال التي تحرّك قلوب شعب جائع ولكن شجاع ـ كل ذلك معروض في نثر بديع.

«العصر الحديث» تزوَّد بهذه القدرة غير المسبوقة لرؤية التاريخ البشري بكامله، بنظرة واحدة. نحن نعيش في «متحف بلا جدران» يمكّننا من التعرف على علامات اللحظة التاريخية والتي نشعر بها اليوم في سوريا. منذ أن انهارت مسيرة الخلافة الإسلامية في عام 1924 بنهاية الإمبراطورية العثمانية، بحثت شعوب الشرق الأوسط بدون استقرار أو نجاح عن هوية إسلامية لتجد نفسها محكومة بطريقة متخلفة وملكيات مستبدة.

ظل الإصلاح حلمًا خياليًّا وأصبحت الدعائية الكلامية والتهديد المبطن من الأفعال المتداولة في الحياة. وعلى مرّ العقود لا يتذكر الناس من خارج المنطقة وقتًا لم يكن فيه الشرق الأوسط إما مشكلة أو تهديدًا لبقية البشرية. ولذا، فعندما بدأ القرن الحادي والعشرين في 11 أيلول/سبتمبر2001، جاءت صدمة الصحوة ضرورة «إعادة صياغة الشرق الأوسط الكبير» كحلٍّ وحيد للحيلولة دون تهالكه خارج النظام العالمي، وانتشاله من مستنقعه وإعطائه دورًا إيجابيًّا في نظام العالم وتقدمه. إن الربيع العربي هو صحوة على الواقع من قبل سكان شباب جدد يصفون أنفسهم بأنهم لا علاقة لهم بالحركات والأنظمة القمعية السابقة.

سوريا هي موقع القيادة، أو كما وصفها توينبي الحلبة التي تواجه فيها كل القوى بعضها مع البعض الآخر ويكون لذلك عقابيل ـ جيدة أو سيئة ـ في كل أنحاء العالم.

ستُدمّر الثورة السورية أو أنها ستغرس لها موطئ قدم؛ وهذا لا يمكن حدوثه بدون مساعدة خارجية. ينبغي على العالم بأسره أن يرى أنه يواجه خيارًا خطيرًا. إذا استطاع الثوار الاستمرار بدون أن يقعوا ضحية لبعضهم البعض أو لأعداء الحرية المتمكنين، فإن تغيير الشرق الأوسط الكبير سيكون فعلًا في طريق التكوين.

مرة أخرى، يسدي إلينا فؤاد عجمي جميعًا إشارة منقذة. نجد هنا كل التيارات المتلاقية، وكل الجرائم والمؤامرات، والحماقات والاستراتيجيات ـ وكل البسالة التي تيقظت لدى الشعب السوري. إنهم ونحن محظوظون في أن

يرشدنا مؤلف هذا الكتاب الرائع والمهم والذي جاء في وقت الحاجة إليه.

شارلز هِلْ
العضو البارز من برنامج
بريدي جونسون للاستراتيجية الكبرى في جامعة ييل
العضو الرفيع، معهد هوفر
الرئيس المشارك ـ مجموعة عمل هوبرت وجين دوايت
عن الإسلام والنظام الدولي.
آذار/ مارس 2012

# مقدمة وعرفان

لم أعتقد بأنني سأكتب سطرًا. ولكن بعد عام من معاناة سوريا، ظهر الكتاب. لأربعة عقود تقريبًا لم تتح لي فرصة النفاذ المباشر إلى سوريا.

لديّ ذكريات قديمة عنها. نشأت بجوارها في لبنان. كانت والدتي، على طريقتها، مؤمنة، وكان مزار الست زينب الشيعي في أطراف دمشق مكانًا تجد فيه راحة النفس. كانت تجد في السيدة زينب ـ أخت الإمام الحسين، التي شهدت ونجت من معركة كربلاء في عام 680 ـ رفيقة معاناة.

كان المزار مكان حج دائم لوالدتي، وكانت أختها الكبرى قد استقرت منذ زمن في دمشق في منزل جميل به فناء ونافورة. كنا في ذهاب وإياب من دمشق أثناء طفولتي في نهاية الخمسينيات وكنت في غاية الحبور لرؤية الحدائق والبساتين المحيطة بدمشق آنذاك. كانت حماة بالنسبة لصبي من بيروت، قديمة وجذابة على نهر العاصي وخصوصًا عند رؤية القافزين بخطورة إلى النهر من فوق دواليب الماء المشهورة.

كان الرئيس جمال عبد الناصر قد أتى إلى دمشق أثناء الاتحاد الفاشل بين مصر وسوريا (1958 - 1961). متحديًا

رغبات الأهل قمت بحجّي (العلماني) لرؤية الرجل العظيم واقفًا على شرفة بعيدة مستمتعًا بإعجاب الجماهير السورية المغرمة به.

وحتى آنذاك ومن خلال ضباب الصبا، كانت هناك أشياء عن سوريا لا يمكن نسيانها. كان هناك سجن المزّة المشهور منتصبًا هناك كمُذكرٍ بأن هذا مكان يختلف عن وطننا العتيق لبنان. وبدون أي ثقافة سياسية كان بالإمكان معرفة أن هذه بلاد معرضة للاستيلاءات على السلطة. بيروت مطلة على المتوسط؛ ودمشق منغلقة ووجهتها الصحراء. كان في لبنان سوريون، مسؤولون سابقون، منفي سابق أو اثنان متزوجان من بنات عائلتنا الكبيرة، عبروا الحدود إلى لبنان ولكن أتوا معهم بقصص الاضطهاد والعنجهية السياسية. كان هناك أبو عبده الجندي العجوز المتقاعد. لم أعرف أبدًا اسمه بالكامل. كان متزوجًا من قريبة لوالدتي. كان يُعدّ أحسن شاي في الحي. كان لديه معطف جيش سوري قديم وفّر له الدفء والمظهر الشخصي المميَّز. يقول أبو عبده: سوريا لم تعطني الكثير، فقط هذا المعطف. وفي بيروت لم يفكر بسوريا، وعبّر عن رأيه بها برفضه أن يسمح لأولاده أن يذهبوا إلى مدينة حمص.

هذا الكتاب هو إكمال الدائرة. فهو محاولة لاسترجاع تلك البلاد القريبة جدًّا وفي الوقت نفسه البعيدة جدًّا، من كتب الرحلات والمذكرات، ومن رسائل أولئك الناس الذين هزموا الخوف ليتحدوا طغيانًا لا يمكن التعبير عن وحشيته. وجدت ثراءً اعتمدت عليه في هذا الكتاب. كما أن ملاحظاتي عن المصادر ترشد إلى بحثي.

كنت محظوظًا لاطلاعي على أعمال باتريك سيل، وألبرت

حوارني، وحنا بطاطو، وايتمار رابينوفيتش، وفيليب خوري، وماريوس ديب، ومارتن كريكر، ودانيال بايبس، وتوماس بيريت وفابريس بالانش، وإيال سيزر. إيتمار رابينوفيتش الصديق العزيز لسنين طويلة، لا يُضاهى بين دارسي تاريخ سوريا السياسي. أنا مدين له لكرمه وحكمته في الأمور التي تمّ بحثها في هذا الكتاب. وكأي إنسان يبحث حول سوريا اليوم فقد اعتمدت على الوثائق الغنية على الموقع الإلكتروني والمجلة الإلكترونية «تعليقات سوريا» الذي يقوم به الباحث جوشوا لاندس. أنا محظوظ لدعم وصداقة البرفسور هنري بينن والدكتور مارك فنغ، وليون فاسيلتيير.

هذا الكتاب من هوفر، وأنا مدين بالكثير للعديد من الزملاء في مؤسسة هوفر. مدير هوفر جون ريزيان هو المدير العام الذي لم يضاهِه أحد طيلة سنواتي في الأكاديمية. كان جون ريزيان هو الذي أقنعني بأن أنهي عملي في التدريس وأنضم إليه من هوفر لأقرأ وأكتب، وأرجو أن يكون هذا العمل عند حسن ظنه بي. لدى الشيعة تقليد فريد هو مرجع التقليد، حيث يستشيرون ويقلِّدون الفقيه الخبير آية الله الذي يوقرونه ويطلبون فتاويه عندما يريدون قواعد ملزمة. إن لدي مصدرًا شخصيًا للتقليد زميلي في هوفر والمعلم العقيد في ييل. شارلز هِيل. ديني لشارلي لا حدود له. وأفتخر كثيرًا في هوفر بزمالة وزير الخارجية السابق جورج شُولتز. جميعنا من هوفر في مدار رجل الدولة وسيد الدبلوماسية، الوزير شولتز خلال عمله المهني تطرق إلى سوريا ولبنان، وآمل أن تلقى هذه الصفحات قبولًا لديه.

أنا مدين لزملائي مطبعة هوفر ـ مارشال بلانشارد، وجينيفر

برسلي، وجينيفر تافاريت وزملاؤهم ـ لجهودهم المكرسة في إنتاج أحسن الكتب. صبرهم ومهارتهم وتعلمهم الفطري لكيفية تحويل المخطوطة إلى منتج نهائي يجعل الكاتب سعيدًا بالتعامل معهم. كانت دينيس إلسون منذ البداية تغمرنا بالتشجيع، تتبعت روحها العظيمة وكلماتها الحكيمة وتشجيعها في كل خطوة من هذا الكتاب كما حدث من قبل حيال العديد من كتب ودراسات هوفر التي كانت لي بها علاقة مشاركة:

جِف جونز كان معنا منذ بداية مجموعة العمل، ونقدر إخلاصه والتزامه بالمشروع. لم أكن لآمل أن أجد من هو أكثر اهتمامًا وأكثر دقّة في المراجعة من مِسزّ أوى ليان يِه. فهذا الكتاب أفضل بسبب تعاونها.

يأتي هذا الكتاب بعد مجموعة من كتب هوفر والدراسات المستفيضة التي تمت تحت رعاية هوبرت وجين دوايت عن الإسلام والنظام الدولي، وخلف هذين الاسمين أحسن الرعاة والحلفاء الذين يؤمنون بالحاجة إلى فهم الشرق الأوسط الأكبر ومشاكله الصعبة.

لقد أبقيت للأخير زميلتي الوفية ميجان رنج. ميجان هي الأساس. ليس هناك مصدر يتعذر عليها الحصول عليه أو طلب لا تستطيع تلبيته. لقد عملنا سوية على كتب سابقة والعديد من المقالات الطويلة. وهي الآن المنسّقة لمجموعة هوبرت وجين دوايت عن الإسلام والنظام الدولي. لأول وهلة لا تناسب كلمة «منسق» هذه المرأة ذات الروح الحرة ولكن كل الذين عملوا معها يعرفون أنها تؤدي عملها على أحسن وجه.

الإهداء إلى ليلى ديلوكا عجمي، حفيدتي الحبيبة عند

تأملي في آلام سوريا، رأيت أطفالًا من عمرها، أولادًا وبنات عمرهم ست أو سبع سنوات يحملون لافتات ويلوحون بأعلام سوريا وهم محمولون على أكتاف والديهم. أعلم أن ليلى آمنة، في بروكلين مع والديها. ليسوا في حمص أو درعا. ولكن بالنسبة للأطفال هناك وجدت أنني مدين لهم بسجل متواضع لفجيعتهم وآمالهم.

فؤاد عجمي

2012

أيها الناس[*]:
لقد أصبحت سلطانًا عليكم
فاكسروا أصنامكم بعد ضلال، واعبدوني...
كلما فكرت أن أعتزل السلطة، ينهاني ضميري
من ترى يحكم بعدي هؤلاء الطيبين؟
من سيشفي بعدي الأعرج، والأبرص، والأعمى..
من يحيي بعدي عظام الميتين؟
من ترى يرسل المطر؟
من ترى يجلدهم تسعين جلدة؟
من ترى يصلبهم فوق الشجر؟
من ترى يرغمهم أن يعيشوا كالبقر؟
ويموتوا كالبقر؟
كلما فكرت أن أتركهم
فاضت دموعي كغمامة..
وتوكلت على الله
وقررت أن أركب الشعب
من الآن إلى يوم القيامة

(*) نزار قباني، شاعر سوري. من قصيدة «السيرة الذاتية لسياف عربي».

## الفصل الأول

# الوارث

اعلم أن العالم العنصري بما فيه كائن فاسد لا من ذواته ولا من أحواله، فالمكونات من المعدن والنبات وجميع الحيوانات الإنسان وغيره كائنة فاسدة بالمعاينة وكذلك ما يعرض لها من الأحوال وخصوصًا الإنسانية، فالعلوم تنشأ ثم تدرس وكذا الصنائع وأمثالها، والحسب من العوارض التي تعرض للآدميين فهو كائن فاسد لا محالة وليس يوجد لأحد من أهل الخليقة شرف متصل في آبائه من لدن آدم إليه إلا ما كان من ذلك للنبي كرامة به وحياطة على السرّ فيه.

وأول كل شرف خارجية كما قيل وهي الخروج عن الرئاسة والشرف إلى الضعة والابتذال وعدم الحسب ومعناه أن كل شرف وحسب فعدمه سابق عليه شأن كل محدث ثم إن في أربعة آباء، وذلك أن باني المجد عالم بما عاناه في بنائه ومحافظ على الخلال التي هي أسباب كونه وبقائه وابنه من بعده مباشر لأبيه فقد سمع منه ذلك وأخذه عنه إلا أنه مقصر في ذلك تقصير السامع بالشيء عن المعاني له. ثم إذا جاء الثالث كان حظه الاقتفاء

والتقليد خاصة، فقصر عن الثاني تقصير المقلد عن المجتهد، ثم إذا جاء الرابع قصر عن طريقتهم جملة وأضاع الخلال الحافظة لبناء مجدهم واحتقرها وتوهم أن ذلك البنيان لم يكن بمعاناة ولا تكلف وإنما هو أمر وجب لهم منذ أول النشأة بمجرد انتسابهم وليس بعصابة ولا بخلال لما يرى من التجلّة بين الناس ولا يعلم كيف كان حدوثها ولا سببها ويتوهم أنه النسب فقط فيربأ بنفسه عن أهل عصبيته ويرى الفضل له عليهم، وثوقًا بما رُبِّي فيه من استتباعهم وجهلًا بما أوجب ذلك الاستتباع من الخلال التي منها التواضع لهم والأخذ بمجامع قلوبهم فيحتقرهم بذلك فينغصون عليه ويحتقرونه ويديلون منه سواه من أهل ذلك المنبت ومن فروعه في غير ذلك العقب للإذعان لعصبيتهم كما قلناه بعد الوثوق بما يرضونه من خلاله فتنمو فروع هذا وتذوي فروع الأول وينهدم بناء بيته هذا في الملوك وهكذا في بيوت القبائل والأمراء وأهل العصبية أجمع ثم في بيوت أهل الأمصار إذا انخفضت بيوت نشأت بيوت أخرى من ذلك النسب ﴿إِن يَشَأۡ يُذۡهِبۡكُمۡ وَيَأۡتِ بِخَلۡقٖ جَدِيدٖ ۞ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٖ﴾.

كتب المؤرخ العظيم من شمال إفريقيا، ابن خلدون (1406 - 1332) التقديم المذكور عن السلالات الحاكمة من كتابه: مقدمة في التاريخ. كتب ابن خلدون أن النفوذ من سلالة واحدة يدوم لأربعة أجيال قبل أن يتلاشى. من المشكوك فيه ما إذا كانت سلالة الأسد مقدرًا لها أن تستمر لأربعة أجيال، المهم أنه عندما اندلعت الثورة في سوريا عام 2011، ظهر التبصُّر في العلاقة - التشابه والاختلاف في المهارات - بين حافظ الأسد وابنه بشار.

لقد تلاعب الأب في الخلافة؛ كان الخوف فعالًا. النواب والمساعدون والتابعون القدماء، والزملاء الذين عرفوا الأب والذين كانت لديهم أفكار بأن موته سوف يتيح لهم فرصة في الخلافة، تعرضوا للضغط والتهديد وتمّ تهميشهم.

كان هناك نائب الرئيس عبد الحليم خدام، المحامي من بانياس والسُّني الذي كان أصغر بعامين من حافظ الأسد والحليف منذ البداية الأولى لحكمه. كان هناك وزير الدفاع مصطفى طلاس، أيضًا سني من الرستن قرب حمص. لقد خدم في ذلك المنصب منذ عام 1972، من طبقة الضباط الموالين تمامًا وبإخلاص لقائدهم. هذان وآخرون تمّ دفعهم جانبًا لمصلحة «الجنرال» الذي تمّ اختراعه حديثًا بشار الأسد ذي الأربع وثلاثين عامًا عندما ورث البلاد. لم تكن هذه الخطة التي فكر فيها الحاكم. كان قد هيّأ ابنه الأكبر باسل. ولكن ذلك الابن مات في حادث سَيْر عام 1994. اضطر الحرس القديم إلى الإذعان وقبول هذه الخلافة الأسرية. لم يقبل خدام بذلك وانتهى به الأمر إلى المنفى والمعارضة من باريس؛ لم يكن لدى حافظ الأسد الوقت الكافي لتدريب بشار وكما أخبرنا ابن خلدون وآخرون غيره لا يحصون أن مهارات كتلك ليس من السهل تلقينها.

بدأت الجموع تهتف «يللا ارحل يا بشار». وبصورة أبلغ، في حماة، حمل الشباب لافتات تقول «مثل الأب، ومثل الابن» عندما جاء بشار إلى السلطة، أعطى انطباعًا أوليًا جيدًا حتى لو بسبب أنه كان مختلفًا عن والده الصارم. كان أبوه ابن فلاح ولد في جبال العلويين وتزوج في جماعته؛ أتى إلى مدينة

اللاذقية الساحلية وتآمر وخطط طوال الطريق للوصول إلى القمة، الكثير من قرناء الأسد وخصومه سقطوا برصاص الاغتيال أو هلكوا في سجون سوريا المرعبة التي أرسلهم الأسد نفسه إليها. وبالمقارنة كان بشار الأمير المدلل، تعلم في أحسن الأكاديميات في دمشق مع وقت قصير قضاه في لندن. لم يتعرض إلى مصاعب. ولأن المجتمع كان متلهفًا على الخلاص، كان من المأمول أنه سيفتح السجن الكبير الذي تحوّلت إليه سوريا تحت حكم أبيه.

تنبأ الأجانب له بحسن الحظ. عادت وزيرة الخارجية مادلين أولبرايت، والتي ذهبت لحضور جنازة الرجل العجوز في عام 2000 وقابلت الابن، بتقرير إيجابي: قالت إنه «مصلح» وعازم على تحديث بلاده، وأخذ الرئيس الفرنسي جاك شيراك على نفسه مهمة إدخال الحاكم الشاب إلى زمرة الأمم المحترمة. تزوج بشار من عائلة كريمة المحتد. كانت زوجته سنيّة وهي المولودة في لندن ابنة طبيب قلب يدعى فواز الأخرس، والذي عاش في منفاه الاختياري بلندن وتحدث في شبه صمت عن خطايا النظام القديم. عملت العروس في جي بي مورجان في لندن وكانت في طريقها إلى إكمال درجة ماجستير الأعمال في هارفارد عندما قابلت ثم تزوجت بشار. كانت هناك أحاديث عن «ربيع دمشق» في بداية حكمه.

الإيماءات البسيطة ذات أهمية، كان بشار يرتاد المطاعم بين آونة وأخرى بدون حماية مكثفة. كان رئيسًا لجمعية سوريا للكمبيوتر ووعد بالانفتاح في بلد كان فيه امتلاك آلة فاكس ممنوعًا. والسجائر الغربية التي منعها والده أصبحت الآن موجودة. ازدهرت

السياحة وتدفقت الاستثمارات المحترمة من دول الخليج ما ساهم في ازدهار متاجر الفنون وفنادق الخمس نجوم.

أطلق مئات من السجناء السياسيين، وكان بالإمكان أن يُعذر شعبه على الأمل بأن لو يعرف «القيصر الطيب»، ولو أن يدعه حراس قصره يحكم حسب رغبته، فسوف يتمّ إصلاح البلاد ويرفع الظلم. ولكن كانت الممكنة هي المملكة، وكان الحاكم السياسي مغفلًا. انتقلت السلطة بسهولة من حزب البعث إلى العلويين ثم إلى آل الأسد من طائفة العائلة. كان الشاب الذي يقال إنه يبتهج لموسيقى فِلّ كولينز من الخامة القديمة نفسها. كان مثل أبيه لا يطيق معارضة.

احتار السوريون حول مكانة حاكمهم في السلطة: هل هو مثل أبيه من قبله سيد المملكة أو دمية تحركها قوى أعظم وتحكم سوريا بنجاح؟ كان على الرجل الممسك بالرسن أن يتحكم بأعمدة السلطة الأربعة ـ الجماعة العلوية، والجيش، وقوات الأمن، وحزب البعث. أكّد الكاتب المشهور ميشيل كيلو منذ 2009 أن بشارًا سيطر على السياسة الخارجية بينما تحكمت قوات الأمن في الأمور الداخلية. كان الجواب حول ميول الحاكم الشاب سيأتي بعد وقت وجيز. لقد خنق النظام ربيع دمشق بسرعة. كان هناك تعطُّش للحرية، كان السوريون الذين طال صمتهم في حنين إلى النقاش والحوار السياسي والذي كان مظهرًا بارزًا في حياتهم السياسية قبل سنوات الأسد. يتذكر برهان غليون المثقف والأكاديمي الذي يسكن ويدرِّس في باريس حماسة تلك اللحظة: النوادي المخصصة للمثقفين انتشرت في كل مكان، وكان هناك أكثر من خمسين «ناديًا»

خلال بضعة أشهر، وحتى القرى رغبت في نوادٍ خاصة بها حتى لو أدى ذلك إلى صدام مع قوات الأمن. يعزو غليون هذا الحماس إلى «التعطش النادر لدى الطبقة الوسطى إلى الحرية» إحدى هذه المجموعات المدنية «نادي الحوار الوطني» برئاسة رياض سيف، المعارض ذي المقام المرموق والشجاعة الصادقة، دعت غليون لإلقاء محاضرة عامة. حضر 700 شخص، فشعر مسؤولو حزب البعث بالقلق من الهياج العام، لقد أخذ الناس ادعاءات الرئيس الجديد بالانفتاح على محمل الجد وبدأوا في اختبارها، لا يهم حقًّا ما إذا كان الحاكم نفسه قد اتضح له الخطر أم أن الحرس القديم قد رسم خطًّا أحمر ضد تلك الإغراءات الجديدة. أُقفلت النوادي وحُكم على المعارضين الذين سيقوا إلى السجون بسنتين إلى عشر سنوات. وأطلق ناشط الحريات المدنية والمحامي هيثم المالح على هذا الربيع الزائف بأنه «يوم دافىء من الشتاء» لم أكن متفاجئًا، بشار هو «ابن أبيه» كانت الآمال المعلّقة على الحاكم الشاب خائبة. وإذا برهن ذلك على شيء، فإنما هو أن تنشئته خلقت متسلطًا لا يعرف المرونة وقد يكون أكثر تصلبًا من أبيه. وقد صوّر غليون ذلك ببراعة: «عندما مات الأسد الكبير عرفت أن ابنه سيصبح أكثر خطورة من أبيه. كان أبوه شخصًا سياسيًّا ذا علاقات سياسية. لقد تعب ليصل إلى موقعه بصرف النظر عن أساليبه. ولكن بشار ولد في قوقعة بدون خبرة سياسية. لقد عرفت أنه لن يستطيع أن يتفاعل مع مجتمع معقد وأنه سيستخدم العنف أكثر من أبيه. يقول الناس إنه أكثر انفتاحًا فهو ذو تعليم أوروبي، ولكني نظرت إليه على أنه صغير، وعديم الخبرة وولي عهد لا صلة له بالواقع مُحاط بحرّاس وحاشية».

جاء وقت عندما كان التخمين حول الحاكم قد تراجع. «ولي العهد» هذا قد ورث مملكته بالاستبداد - إرادة أبيه والموت غير المتوقع لأخيه الأكبر باسل الذي كان قد أُعدَّ للحكم - وكان من المعقول أنه سيدافع عمّا آل إليه.

هناك قوة لا تقاوم اصطدمت بشيء لا يمكن تحريكه. لم يستطع النظام أن يخيف السكان والناس لم يستطيعوا التخلص من هذا النظام المتغلغل الذي بناه الأسد الأب كأكثر دولة أمنية مخيفة في الشرق العربي. وبمعنى آخر بلاد تواجه المكونات الكلاسيكية لحرب أهلية وحرب طائفية في داخله. إن السوريين الذين عانوا كل بلاء لم يريدوا أن يُحكموا بأطفال بشار بالطريقة نفسها التي حكموا بها من قبل بشار أو كما حُكِم آباؤهم من قِبَل والد بشار. وكما لو كان سيرهن الكون وُلد لبشار ابن سماه حافظًا. إن المقايضة التقليدية في بلدان العرب، الخبز مقابل الحرية قد انهارت في سوريا حيث 30% من سكانها يعيشون تحت خط الفقر والقطاعات الرئيسية من الاقتصاد في يد آل الأسد وأنسبائهم.

أراد شعب ذو كرامة شيئًا أكثر من هذا النظام الكئيب القائم على الدكتاتورية والنهب.

لقد نفد صبر الخائفين من طغيان الأسد، وكانوا على استعداد لدفع الثمن النهائي. لقد استبدلت الدكتاتورية العنف الوحشي بوعود الإصلاح. بدأت الاحتجاجات في منتصف آذار/ مارس وكان النظام على وشك أن يقوم بما اعتبره تنازلًا كبيرًا - رفع قانون الطوارىء الذي حكم البلاد منذ عام 1963. ولكن الدبابات الآن وطائرات الهليكوبتر الحربية أطلقت ضد

الناس. بدأ السوريون يهربون عبر الحدود إلى تركيا والأردن ولبنان. وفي وسط هذا العنف بدا الحاكم مهزوزًا وغير واثق. لم يفهم أن الناس الثائرين يطالبون بإنهاء طغيانه. فلأربعة عقود طويلة تعوّدت أسرة الأسد الحاكمة وبارونات الاستخبارات وقوّاد الفيالق على ثقافة الخنوع والصمت. فالحاكم والمحكوم الآن في مجال لا يعرفونه. الصبي ذو الثلاثة عشر عامًا من مدينة درعا الجنوبية على الحدود الأردنية واسمه حمزة الخطيب أصبح رمزًا لهذه الحرب بين النظام وشعبه. قبض على الصبي مع عدد من أقرانه. كانوا قد اقترفوا الذنب الذي لا يُغتفر وهو كتابة خربشات ضد النظام على جدران مدينتهم. أُعيد جثمانه إلى أهله بعد شهر. كان قد تعرض للتعذيب وكانت ركبتاه وعنقه مكسورتين وحتى أعضاؤه التناسلية كانت مقطوعة. في أذهان الدكتاتورية وزبانيتها أن ما فعلوه سيكون رادعًا ويخيف الناس ليعودوا إلى منازلهم. لقد نفع ذلك من قبل ولكن حاجز الخوف قد كُسر. ذلك الفعل المريع قوّى عزيمة أولئك الذين أرادوا التخلص من النظام الوحشي. وكانت هناك جريمة مشهورة حدثت في حماة وكان لها صدى في أنحاء البلاد: أُخرج جسد عامل إسمنت شاب يدعى إبراهيم قاشوش من نهر العاصي في تموز/يوليو. كانت حنجرته مقطوعة وحباله الصوتية منزوعة. المعتدون وزبانية النظام دائمًا وحشيون. لقد أوذي الرجل بشكل غير مألوف لأنه غنّى أبيات احتجاج مشهورة، «يللا ارحل يا بشار» لقد انتهك الصمت وكلفت تلك الأغنية الرجل حياته. الوضوح جاء مع القمع. أصبح المتظاهرون الآن يقولون إنهم يكرهون النظام والعاملين به أكثر مما يكرهون الإسرائيليين الذين طالما كرهوهم واتهموهم. أولئك الذين يتذكرون بلادهم تحت الحكم الفرنسي ـ والمتظاهرون

الشباب الذين أُخبروا بهذا التاريخ ـ تكلموا الآن عن الاحترام الذي أبدته القوات الفرنسية تجاه حرمة المساجد. لم تُنتهك المساجد التي كانت ملاذًا للمتظاهرين الهاربين. والآن نجد المساجد وأئمة الصلاة هدفًا لقوات النظام.

لا عجب أن هذا الانفجار حدث في سوريا بالترتيب بعد تونس ومصر واليمن وليبيا والبحرين. لقد تمهل السوريون كما لو كانوا يعرفون أنهم مقبلون على أزمنة مظلمة حالكة وصراع دام. قادت تونس القافلة ثم خرجت من الطريق حيث تضاءلت المظاهرات مقارنة بمظاهرات القاهرة. كان المتسلط التونسي أول من هرب في 14 كانون الثاني/يناير 2011. ثم تلاه الحاكم المصري حيث انتهى حكمه الذي استمر ثلاثة عقود في شباط/ فبراير 2011. ليبيا التي تحدّها تونس من الغرب وصحراء مصر إلى الشرق، انتفضت ثائرة في 17 شباط/فبراير. كان ذلك التاريخ ليبقى في اعتبار الثوار الليبيين يوم مولد نظامهم الجديد.

من الملائم أن يكون يوم الجمعة يومًا كبيرًا للمظاهرات. يعطي المتظاهرون اسمًا لكل يوم جمعة وموضوع ـ «صمتكم يقتلنا» «جمعة الحماية الدولية» «جمعة الجيش السوري الحر» «معنا الله» وهكذا. اثنان وأربعون جمعة من عام 2011 وكلاهما النظام والمتظاهرون في ثبات.

بشار، الوارث صدفة لنظام سياسي، وجد حربه الشخصية. لقد خرج من ظل أبيه ليعود إليه. إذ كان المتظاهرون يائسين، فإنهم لم يُبْدوا ذلك. لقد نذروا أن عام 2012 سيرى نهاية الدكتاتورية.

* * *

**إن باني المجد عالم بما عاناه في بنائه ومحافظ على الخلال التي هي أسباب كونه وبقائه وابنه من بعده مباشر لأبيه فقد سمع منه ذلك وأخذه عنه إلّا أنه مقصر في ذلك تقصير السامع بالشيء عن المعاني له ثم إذا جاء الثالث كان حظه الاقتفاء والتقليد خاصة فقصر عن الثاني المقلد عن المجتهد ثم إذا جاء الرابع قصر عن طريقتهم جملة.**

لم يكن على بشار الأسد أن يقلق على الجيلين القادمين بعده لإضاعة مجد أسلافه، كان ابن خلدون عبقريًا ولكن التاريخ يتحرك بسرعة هذه الأيام فهذا الإرث الأُسري الحاكم لم يكن مقدرًا له أن يتعدى الجيل الثاني.

قد يكون ابن خلدون كريمًا بإسراف حول المدة الزمنية لحياة الناس الحاكمة منذ بداية ظهورها البدائي الصارم إلى وقوعها في الراحة والبذخ ثم الانحلال. ولكن مجال تحليله والذي يفسر وضع سوريا الحاضر والكثير من الحياة السياسية في المنطقة العربية الإسلامية ـ هو المفهوم الأساسي «للعصبية» كان المراقب العظيم الشمال إفريقي للتاريخ، قد رأى:

**أن كل حي أو بطن من القبائل وإن كانوا عصابة واحدة لنسبهم العام ففيهم أيضًا عصبيات أخرى لأسباب خاصة هي أشد التحامًا من النسب العام لهم مثل عشير واحد أو أهل بيت واحد أو إخوة بني أب واحد لا مثل بني العم الأقربين أو الأبعدين فهؤلاء أقعد بنسبهم المخصوص ويشاركون من سواهم من العصائب في النسب العام والنعرة تقع من أهل نسبهم المخصوص**

**ومن أهل النسب العام إلا أنها في النسب الخاص أشد لقرب اللحمة والرئاسة فيهم إنما تكون في نصاب واحد منهم ولا تكون في الكل ولما كانت الرئاسة إنما تكون بالغلب وجب أن تكون عصبية ذلك النصاب أقوى من سائر العصائب ليقع الغلب بها وتتم الرئاسة لأهلها فإذا وجب ذلك تعين أن الرئاسة عليهم لا تزال في ذلك النصاب المخصوص بأهل الغلب عليهم إذ لو خرجت عنهم وصارت في العصائب الأخرى النازلة عن عصابتهم في الغلب لما تمّت لهم الرئاسة فلا تزال في ذلك النصاب متناقلة من فرع منهم إلى فرع ولا تنتقل إلا إلى الأقوى من فروعه لما قلناه من سر الغلب لأن الاجتماع والعصبية بمثابة المزاج للمتكون والمزاج في المتكون لا يصلح إذا تكافأت العناصر فلا بدّ من غلبة أحدها وإلا لم يتمّ التكوين فهذا هو سرّ اشتراط الغلب في العصبية ومنه تعين استمرار الرئاسة في النصاب المخصوص بها**

هنا نجد فرضيته الأساسية: «الدعاية الدينية (الدعوة) تعطي السلالة في بدايتها قوة إضافية إلى قوة روح الجماعة التي لديها كنتيجة لعدد الداعمين لها؟ العصبية العلوية صنعت نظام الأسد ـ شعور الجماعة الذي غرسه فيهم التاريخ.

من المعقول والمنطق الخالص أن يعاني أناس من الفقر المادي المدقع ويشعرون في الوقت نفسه بالتفوق على آخرين يرفلون في الغنى والرخاء، وكان هذا من صميم العداوة بين علويي الجبال والمدن السنية. ولكن هناك مثل يحبه ويكرره ابن خلدون: «الناس على دين ملوكهم». المغلوب مولعٌ دائمًا بتقليد الغالب في مناقبه وملبسه ومهنته وكل أحواله وعاداته وتقاليده.

هنا يكمن ما قد يؤدي إلى انهيار الصراع السوري، ليس هناك أي إمكانية أن الناس في سوريا ـ مسلمون ملتزمون وسط بيئة عربية إسلامية بدأت تصحو على قوة الإسلام ـ سيتبعون جماعة منشقة. كانت هناك حالات بين الطلبة الشباب السنية في الجامعات يقلدون فيها الأسلوب المتميز لكلام العلويين الجبليين والساحليين. ولكنهم كانوا الاستثناء. إن حكم العلويين غير مقدر له أن يدوم فبالتأكيد ينقص بشار مكر أبيه ولكن المغامرة العلوية حملت في طياتها بذور دمارها.

في الجوار بلبنان، نجد أن الموارنة، أهل جبال كذلك ولهم عصبيتهم، ولهم تفوقهم. ولكن وضعهم وعلاقتهم بالجماعات التي يشتركون معها في هذه البلاد الصغيرة مختلفة تمامًا. لم يكن جبل الموارنة منعزلًا أبدًا. إن البحر المتوسط والكنيسة المارونية، منحت المارونية أُفقًا ثقافيًا وسياسيًا واسعًا. البطاركة الموارنة اعترفوا بسلطة روما في السنوات الأخيرة من القرن العشرين وبالرغم من أن البابا لم يكن دائمًا يهتم بهؤلاء الناس البعيدين، إلا أن التواصل الديني أغنى حياة الموارنة.

هناك كليّة مارونية في روما، تأسست في القرن السادس عشر، تدرس القساوسة الشباب على المبادىء الدينية الرومانية، وقد أثبت الموارنة أن الناس موهوبون. إن النهضة الأدبية في الكتابات العربيّة أو ما يُسمّى «بعصر النهضة» في أواخر 1800 اعتمدت إلى حدّ كبير على المقدرات الثقافية لدى الكتّاب الموارنة. حقًا إن فرنسا عاملت الموارنة معاملة تفضيلية خلال سنوات الانتداب، ولكنهم صنعوا حظّهم بأنفسهم عندما غادر الفرنسيون لبنان.

أُسست الجمهورية اللبنانية الأولى (1943-1975) على التعايش السُّني - الماروني. لم يحكم الموارنة بمفردهم ولم يحكموا بقوة السلاح، كانت مداراتهم، إذا كانت هناك أي مداراة، ناجمة عن إنجازاتهم العلنية المتفوقة. كانت مدارسهم فخر البلاد والوجهة المفضلة للموهوبين والطموحين من بين المسلمين. كان هناك رواد المهجر في أميركا الشمالية والجنوبية وكان الموارنة الأكثرية هناك. فمن المهجر جاءت الأفكار ورأس المال الاجتماعي والثروة المرسلة إلى الوطن الأم. وفي لبنان السنوات 1950-1960 (إذا كان لي أن أقدم ملاحظة من قصة حياتي من طفولتي) كان الموارنة محسودون ومحط إعجاب في الوقت نفسه ويُقلِّدُون سرًّا من قبل الجماعات الأخرى. كانت مدارسهم وأديرتهم مؤسسات أناس فخورين بإنجازاتهم. لا شيء من هذا ينطبق على العلويين. كان الجيش، وبمرور الزمن، حزب البعث هو الذي أخرجهم من عزلتهم.

## الفصل الثاني

# وقدم أهل الجبل

لم يكن التاريخ رفيقًا بالعلويين - عقيدتهم قد لا تكون ذات أهمية كخلفيتهم الاجتماعية. كانوا جماعة جبلية انعزالية وفقراء. ظهروا كفرقة منشقّة عن المذهب الشيعي منذ أكثر من ألف عام. كان ظهورهم خلال قرن مليئًا بالاضطرابات في نهاية القرن التاسع إلى منتصف القرن العاشر، كان المذهب الشيعي الرئيس (الاثنا عشري) في أزمة: فقد توفي الإمام الحادي عشر وكان ابنه الصغير، الذي تمّ اعتباره المهدي قد اختفى من أمام أنظار الناس العاديين ليعود في آخر الزمان ويملأ الأرض قسطًا عدلًا. وقد ظهر الأدعياء خلال الفترات اليائسة وملأ الفقهاء ذلك الفراغ يفرضون إرادتهم ومفاهيمهم في المسائل الدينية. تنقَّل أتباع هذه الطائفة بين العراق وسوريا ثم استوطنوا في المنطقة الجبلية الهائلة في شمال سوريا. ولعدة قرون عُرفوا باسم «النصيرية» وعُرفت الجبال التي سكنوها باسمهم.

أعلن فقيههم الأكبر، الواعظ المدعو عبد الله الخصيبي، عن ألوهية الإمام علي، ابن عمّ النبي وزوج ابنته. كان فقههم خليطًا من العناصر الأفلاطونية الجديدة واللاأدرية (الغنوصية) والمسيحية والإسلام والزردشتية. وفي نظر المسلمين

السُّنة والشيعة كان النصيرية غلاة تعدَّى تقديسهم لعلي حدود الإسلام.

في دراسته المستقصية للعقائد لدى بعض الشيعة: «الشيعة المتطرفون: طوائف الغلاة» يبين متي موسى (Matti Moosa) مكان الإمام علي في المنظور الكوني النصيري: «في نظر النصيريين كان علي بن أبي طالب، ابن عم النبي محمد وزوج ابنته هو الأخير والكامل من بين الحلولات, السبع لله والتي من خلالها أوحى الدين الإسلامي وشريعته. فهو الذي صنع محمدًا وعلّمه القرآن. وهو ينبوع الإسلام. وهو الله، إله القرآن نفسه». كان الانفصال عن الإسلام كاملًا، إن عليًّا في نظر السُّنة هو أحد الخلفاء الراشدين الأربع وزوج ابنة محمد فاطمة ووالد أحفاد النبي، ومكانته في التاريخ الإسلامي مضمونة ولا غبار عليها. أما في نظر الشيعة فهو الحبيب الذي تمحورت حوله القصيدة الشيعية. لقد حرم من حقّه من خلافة الرسول وأُجبر على الانتظار لدوره في القيادة حيث كان قبله ثلاث خلفاء. جاء إلى الخلافة في فترة انشقاقات وحرب أهلية في داخل المجتمع الإسلامي الجديد، وتمّ اغتياله عام 661 وهو العام الخامس فقط من فترة حكمه. ثم كان المصير الغادر وحرمان ذريته بالاستشهاد المقدس لابنه الحسين في كربلاء، بجنوب العراق بعد عقدين من الزمان. عليٌّ محبوب لدى الشيعة ولكنه يحتل مكانه بجانب النبي وهو تابع له دائمًا.

صنّف ابن تيمية (1263ـ1328) والذي هو أحد أهم أعلام فقهاء السُّنة في التاريخ الإسلامي، النصيرية باعتبارها طائفة خارج الملة. اشتهر ابن تيمية بعد تدمير المغول لبغداد في عام

1258. كان الوضع العالمي السُّني في يأس ـ وكما يذكر الصحفي السياسي نبراس كاظمي في دراسته عام 2010 «سوريا بعيون جهادية: العدو الخالص» ـ أن الجهاديين لجأوا إلى ابن تيمية «للعون والإرشاد» لأنهم رأوا في هذه الأزمة الحالية للإسلام إعادة لمشاكل ذلك الوقت. لا عزاء للعلويين آنذاك أو الآن، فقد رأى ابن تيمية في هذه الطوائف أعداء الإسلام، فقد أشار هذا الفقيه إلى أن «دينهم في الظاهر هو التشيع ولكن في الباطن هو كفرٌ محض» وكمتعصب وجدلي، أصدر ابن تيمية فتاوى قاسية ضد النصيرية لم تترك مجالًا للتسامح. دماؤهم وأموالهم حلال: فهم مرتدون ويجب أن يعاقبوا أو حتى يُستأصلوا أينما وُجدوا.

كانت التقية ضرورة أساسية لعقيدة ليست على وفاق مع الإسلام التقليدي. كان الموطن الجبلي المكان الآمن لكي يعيشوا ويمارسوا عقيدتهم. كان للنصيرية موطىء قدم في بغداد وحلب ولكن هؤلاء اختفوا بسرعة. عندما وجد العثمانيون النصيرية في عزلتهم حين احتلوا سوريا في القرن السادس عشر نعتوهم بـ«الملة الضالة». كان من العبث أن يحاول العثمانيون إدخالهم في مجتمعهم، فبعد حملة أو حملتين، تركوهم في سلام. يذكر المؤرخون الذين عرفوا النصيرية بأنهم أناس ممزقون بسبب الخلافات وأرضهم قاحلة بائسة.

هناك صورة لا تُمحى لهذه الجماعة في منتصف القرن التاسع عشر في واحد من الكتب المرقومة للرحلات وكتابات المبشرين الغربيين، «البلاد والكتاب» للمؤلف و. دبليو إم. تومسون (W. M Thomson). كان تومسون كما قال عن نفسه

«مبشرًا لثلاثين عامًا في سوريا وفلسطين». كان أميركيًّا وحرّر هذا الكتاب عام 1857. كان رجلًا لا يتحلى بالصبر. لقد أحبّ بلاد سوريا وفلسطين، وعشق نباتاتها وحيواناتها ورسمها بدقة مذهلة، ولكن لم يكن لديه صبر على الناس. كانوا أناسًا لا يُطاقون ويعيشون لامبالين في أرض الوحي. وفي إحدى رحلاته في البلاد، وصل إلى بلاد النصيرية. كانوا لغزًا بالنسبة إليه، و«مميزي الخلقة» ويختلفون بشكل جذري عن الغرب كأنهم ينتمون إلى جذور مختلفة. كان من المستحيل التأكد من عددهم ولكن لهم أكثر من ألف قرية وقدر عددهم بـ «أكثر من مئتي ألف». لم يكن مغرمًا بهم حيث إنه عرفهم في أسفار سابقة. «ديانتهم سرّ عميق. إن المهارة التي يستخدمونها لتجنب أي تخمين عن أسرار ديانتهم هو أمر أثار دهشته دائمًا». استفسر تومسون من رجل عجوز من هذه الجماعة عن نوع الناس الذين يسكنون هذه الجبال، فأجاب: «آه، فلاحين». كان تومسون يعرف أنهم فلاحون، ولكن كان يسأل عن عقيدتهم. أجابه العجوز: «دين! ما حاجة الفلاحين للدين؟».

كان تومسون أكثر إصرارًا. وسأله: من هو النبي الذي تتبعونه؟ «إلى حدٍّ ما نحب عليًّا... وكذلك نحب عيسى المسيح . نحن وأنتم سواء». هذه الملاحظة حول عيسى المسيح ومحمد قالها بعد أن ذكر له تومسون أنه مسيحي، وقال إنهم يحبّون عيسى المسيح وأن «ديننا مذكور في العهد الجديد». وكتب تومسون: «كفاية عن النصيرية الآن» لم يُفصح له عن أي أسرار، وأبقاه أهل الجبال بعيدًا عنهم.

إن قسوة تاريخهم والفقر المدقع أجبر الكثير من النصيرية

خلال القرن التاسع عشر على النزول إلى السهول ليزرعوا الأرض للمُلّاك الغائبين في اللاذقية ومقاطعة حماة. كانوا دائمًا ينزلون ولا يصعدون أبدًا، كان ذلك تعبيرًا عن بؤس حياة الجبال والنصيريون فعلوا ذلك. لقد تجمدت النصيرية دائمًا تحت الاسم الذي أعطاهم إياه الغرباء. لكن في بداية السنوات الأولى من القرن العشرين عُرفوا بالاسم المفضل لديهم، العلويين.

لم يحظَ العلويون بأكثر من تغيير اسمهم إلى اسم أفضل عند انهيار الأمبراطورية العثمانية.

وصل الانتداب الفرنسي الذي اختص سوريا ولبنان بسياسة واضحة تجاه الأقليات. فقد المسلمون السُّنة الكثير، فقد كانت الأمبراطورية العثمانية موطن الإسلام التقليدي وكان أكثر الناس بساطة من أهل المدن في حماة أو حلب يرى ديانته في ممارسة وعقيدة الدولة. لم يرد غالبية السُّنة أي صلة بالسادة الفرنسيين الجدد. ظلت فرنسا تدخل وتخرج من عالمهم كحامية لكاثوليكيي الأمبراطورية العثمانية. كانت إرسالياتها وجمعياتها الخيرية وحمايتها القنصلية هدايا إلى محمييها الكاثوليك. وفي الحقيقة كان الفرنسيون حلفاء للسلطنة العثمانية ولكن ذلك صار أمرًا منسيًّا. وعلى أي حال، فإن تلك الحميمية مع الحكام العثمانيين أثارت غيرة الأعيان والتجار المسلمين. لم تكن فرنسا في عنفوان قوتها وكانت سياسة الأقليات التي استخدمتها اعترافًا بضعفها. كانت سياسة فرِّق تسُد. كانت سوريا مقسمة إلى أربع وحدات سياسية: الجمهورية اللبنانية، وجمهورية سورية، ودولة العلويين (سُمِّيت فيما بعد حكومة اللاذقية)، وحكومة جبل الدروز. كانت دولة العلويين وحدة طبيعية، جبل انصارية، المنطقة الجبلية

وموطن العلويين والسهول الساحلية مع مدينة اللاذقية كمركزها الحضري الرئيس. ذكر المؤرخ ألبرت حوراني في كتابه «سوريا ولبنان: مقالة سياسية» أن هذه الدولة بلغ عدد سكانها 370,000. وكان 60% منهم علويين و20% سُنة والباقي مقسَّم بين الإسماعيليين والطوائف المسيحية المتعددة. استمتعت المشاعر العلوية بهذا الاستقلال الذاتي وأرادت أن تبقى بعيدة عن القوميين السوريين في دمشق. ذكر حوراني ببراعة: طوّرت فرنسا بوضوح الوعي الجماعي بين الأقليات، لم تكن قد خلقته، فهي ببساطة أعطته مجالًا للتعبير في تنظيمها الإداري.

إن هدية الاستقلال الذاتي الذي منحته فرنسا للعلويين ـ والدروز ـ لم يكن ليستمر. في عام 1936 وضعت الاتفاقية الفرنسية ـ السورية حدًّا لاستقلال هاتين الجماعتين، لقد حصلت الصفوة الحضرية في دمشق على مبتغاها. ولم يستطع الفرنسيون الحفاظ على وعودهم التي أعطوها للأقليات. ولا زال هذا التاريخ موضع جدال. فالنخبة القومية في دمشق تكتبه بالمعيار المألوف المتوقع: إن الإرادة الوطنية قد تغلبت، ومخططات القوة الخارجية أُحبطت. ولكنه كان تاريخًا أكثر تشويشًا: ليس هناك رأي موحد في الجبل العلوي أو جبل الدروز ـ كان هناك اتحاديون ـ رحبوا بالنظام الجديد وكانوا منجذبين للقومية السورية وقد توصلوا إلى هذه المشاعر من خلال قراءة واقعية لتردد فرنسا وتذبذبها. ولكن ثقل التفضيل كان مع الاستقلال الذاتي تحت الحماية الفرنسية. كانت الاضطرابات المتقطعة بين العلويين والدروز والأكراد تثير التأزُّم بين هذه الجماعات وبين القوميين في المدن. نظرت الأقليات إلى هذا

المبدأ الجديد بعين الكراهية. لم يكن لديهم ثقة بأن النخبة الحضرية ستمنحهم العدالة والاهتمام. فبالنسبة إلى الأغلبية بين الجماعات الصغيرة كانت هذه القومية غطاء لسيادة السُّنة.

يتميز العمل الشامل الذي قام إيتامار رابينوفيتش بكتابته في هذا التاريخ المتشابك بدلائل مفصلة ودقيقة. كان الحكم الفرنسي المباشر في المناطق العلوية، والذي تأسّس في عام 1921، «منظمًا وفعالًا ولقي تعاونًا بين السكان المحليين، كما أن الاصلاحات التي قام بها نتجت عنها تحسينات ملحوظة في مستوى المعيشة». كان الاتجاه في مشاعر العلويين يميل نحو الانفصال. لقد استمتع العلويين «بانعزالهم عن دمشق وحماة، وكذلك بنصيبهم من المناصب الحكومية داخل منطقتهم». كان جبل الدروز كله تقريبًا من الدروز في تكوينه الديموغرافي، والمنطقة العلوية كان بها وجود سني كبير له شأن. كانت مدينة اللاذقية عاصمة العلويين السياسية، ولكنها كانت من قبل كما يذكر رابينوفيتش مقرّ الحاكم العثماني المحلي، وكان كثير من العلويين قد عملوا بالمساقاة الزراعية في أراضي الملاك السنيين. كان خضوع العلويين أكثر شدة في حماة ومناطقها الزراعية الداخلية «ولذا فإن المشاعر العلوية المعادية للسُّنة لم تكن مجرد امتعاض فكري تجاه مركز سياسي بعيد وإنما ضغينة حقيقية جدًّا». ولّدت العزلة والفقر شعورًا تضامنيًّا قويًّا بين العلويين والتصاقًا بالجماعة وإحساسًا بالترفُّع والسعي وراء الهدف.

أُرسلت عريضة إلى ليون بلوم رئيس حكومة الجبهة الشعبية موقّعة من ستة أعيان علويين وضّحت فيها مبررات طلب العلويين للاستقلال تحت إشراف الحكم الفرنسي. جاء في العريضة أن

العلويين أناس مستقلون، لم يسبق لهم الخضوع للمدن الداخلية. إن الحكم البرلماني الذي وعد به القوميون ليس أكثر من «مظاهر كاذبة لا قيمة لها». إن «روح العداء المغروسة في قلوب العرب المسلمين عن كل شيء ليس مسلمًا» لا تقدم للعلويين سوى التهديد والتسلط و«الإبادة».

ممّا يستدعي الالتفات في ظلّ ما سيجلب المستقبل من الصراع على فلسطين، أشار الموقعون على العريضة إلى دليل على عدائية الإسلام ضدّ كل من لا ينتمون إليه. هؤلاء «اليهود الطِيبون في فلسطين قدَّموا للعرب التحضُّر والسلام ونشروا الذهب وأسسوا الرخاء في فلسطين بدون أن يضروا أحدًا أو يأخذوا أي شيء بالقوة ومع هذا فقد أعلن المسلمون الحرب المقدسة ضدهم ولم يترددوا في قتل نسائهم وأطفالهم برغم وجود إنكلترا في فلسطين وفرنسا في سوريا. ولذا فإن قدرًا مُظلمًا ينتظر اليهود والأقليات الأخرى فيما إذا أُلغي الانتداب وتوحدت سوريا المسلمة مع فلسطين. إنّ اتحاد هذين البلدين هو الهدف الأسمى للعرب المسلمين». حذر الموقعون على العريضة بأن المعاهدات لن تحمي الأقليات، «نؤكد لكم أن المعاهدات لا قيمة لها فيما يتعلق بالعقلية الإسلامية في سوريا. لقد رأينا من قبل هذا الوضع من المعاهدة الإنكليزية ـ العراقية، والتي لم تمنع العراقيين من ذبح الآشوريين واليزيديين».

اثنان من الموقعين يلفتون النظر بشكل خاص. الأول كان سليمان المُرشد، راعي أغنام مصاب بالصرع ظهر في قرية جبلية نائية ينذر بـ «نهاية العالم» وادعى بأنه تلقّى رسائل سماوية. وبعد وقت قصير ادعى الألوهية لنفسه، إله يعِدُ

بالخلاص للمعوزين والبؤساء. وقد كسب أتباعًا كثيرين جدًّا من جماعته العلويين، مما أقلق الطبقة الدينية. وكقاطع طريق شره فقد استولى على أراضٍ شاسعة وعدد لا يُحصى من المحظيّات. ومن آنٍ لآخر صادق الفرنسيين وحاربهم. وفي مناطق سوريا الحضرية، اعتُبر أنه مزوِّر وخائن. وهيّأ نفسه كي ينتخب في البرلمان. وبعد عشر سنوات من صدور هذه العريضة أرسلته السلطات في دمشق إلى المشنقة.

كان الموقع الثاني، بالمقارنة، شخصية صامتة، فلاح اسمه سليمان الأسد. كان له بعض المقام في قريته القرداحة وكان مؤدِّبًا شديدًا لأولاده. كان له ابن، حافظ، الذي سلك طريقه إلى مدينة اللاذقية، والنشاط الطلابي، والأكاديمية العسكرية، وقمة السلطة السياسية. لم يكن سليمان الأسد، وهو يناشد قوات الانتداب ضد اتحاد سوريا، أن يتخيل الانتصار الذي ينتظر ذريّته.

كانت هذه العريضة والتوسلات العلوية للسلطة الفرنسية بلا جدوى. كان الكيان السوري الذي انبثق من الانتداب الفرنسي يحتوي على منطقة العلويين والدروز والأكراد. وبالنظر إلى الوراء، فإن القوميين السوريين في المدن الرئيسة أُعطوا أكثر ممّا يستطيعون الحفاظ عليه. فمن تأريخهم نجد أسًى على ما فُقد بعد تأسيس لبنان الكبير، فالكيان الجديد اللبناني شمل وادي البقاع ومعقل الشيعة في الجنوب والمدن الساحلية طرابلس وبيروت وصيدا، وكانت كذلك الصدمة بسبب فقدان إقليم الإسكندرون ومدينة إنطاكية لصالح تركيا عام 1939. كان سكان هذا الإقليم خليطًا من العلويين والمسيحيين والأرمن

والأتراك. كان الكماليون من أنقرة عازمين على ضمّه ورضخ الفرنسيون لهم.

لم تكن النخبة الحضرية التي سيطرت على سياسة هذه الدولة السورية الناشئة على استعداد لتقديم تنازلات للأقليات ومناطق البلاد الداخلية. كان الحكام السُّنة يعيِّنون على مناطق الدروز والعلويين وأدّت العصبية القوية «العروبة» لسوريا وسكانها إلى زيادة تهميش الأقليات. وكما ذكر ايتمار رابينوفيتش فإن النخبة الاتحادية أصرَّت على أنه لم يكن هناك شيء خصوصي أو مختلف حول العلويين - أو الدروز أو الأكراد. جميعهم سوريون كغيرهم، فهم عرب حقيقيون ومسلمون ولكنهم «تخلّفوا عن الركب»، ومع الوقت والتعليم سوف يندمجون في المجتمع الكبير.

عندما سارت الأمور لصالح أولئك العلويين الذين قبلوا وكان لهم ترحيب في الدولة السورية، جاءتهم هدية من خلال مفتي القدس، الحاج أمين الحسيني. وكرجل سياسي محض فقد رأى في الدين سلاحًا وقناعًا. أصدر المفتي فتوى في صيف عام 1936 يشير فيها إلى أن العلويين حكمًا مسلمين ولذلك «يجب قبولهم بالكامل من قبل كلّ مسلم». فصار الزنادقة الآن علويين مسلمين. كان اتجاه المفتي دائمًا نحو الوحدة العربية وهذه الفتوى لم تكن لتقلقه أبدًا. لقد صدرت في حزيران/ يونيو1936 في الوقت الذي اشتعلت فيه ثورة فلسطينية عارمة. استمرت الثورة العربية لمدة ثلاث سنوات وأغرقت الفلسطينيين في الدم والبؤس. كان المفتي أحد رموز هذا الكفاح وأكثر المنافسين تطرفًا وعنفًا، كان لديه أعداء قريبون ولم تكن فتواه حول العلويين لتشغله طويلًا.

كانت الظروف مواتية للسنّة «المركزيين» في المدن، وتعاطف الفرنسيون مع الأقليات، ولكن تلك السلطة قد تحطمت بسقوط باريس في أيدي النازيين. أصبح لبريطانيا نفوذ أكبر في شرق المتوسط ـ واعتمد «الفرنسيون الأحرار» بالكامل على القوة البريطانية، وكانت بريطانيا تدعم بالكامل وحدة سوريا وقادتها الوطنيين. من وجهة نظر العسكريين والدبلوماسيين الذين تولوا الشؤون البريطانية في شرق المتوسط، لم يكن العلويون سوى مخلب قط في المخططات الفرنسية لدعم حكمها المباشر في سوريا. ازدادت النخبة الحضرية ثقة بأن الكيان الجديد لهم. وحسب قول رابينوفيتش: «لقد ولّدت الثقة بالنفس تبلُّدًا تجاه مخاوف الأقليات، وكان ذلك يعبِّر عن سياسة تهدف إلى الدمج والامتصاص الكلي لمناطق الدروز والعلويين من الدولة السورية.

كان هناك هدية، مع ذلك، أورثها الفرنسيون للعلويين كان مقدَّرًا لها الاستمرار ورسم مسار الكيان السوري، لقد جنَّد السوريون الكثير من الأقليات عند تأسيسهم «القوات الخاصة لشرق المتوسط» لقد سلك العلويون هذا الطريق للخروج من الفقر. فقد هيّأت لهم الخدمة العسكرية دخلًا ثابتًا واحترامًا، وحياة بعيدة عن القرى الجبلية. السنيّون احتقروا الخدمة العسكرية وكانوا في غنًى عنها. وبمجرد مرور عقدين بعد الاستقلال، كان مقدرًا للجيش أن يكتسح حكم أعيان السُّنة وطبقة البيروقراطيين. كان النظام السياسي جاهزًا للاقتطاف وهؤلاء الرجال الجديدون القريبون بشكل خطير من بؤس الريف، لم يكن هناك ما يخسرونه. كان الوضع الذي استمر قرونًا أكثر وهنًا ممّا كان يتصور الجنود والأيديولوجيون.

لم يكن التحوُّل أقل من كونه انتهاكًا للأوضاع الطبيعية. وفي دراسة فذّة قدم المؤرخ مارتن كريمر قراءة ملائمة عن التمزق الجذري: العلويون الذي كانوا ذات يوم فلاحين «حوّلوا محارثهم إلى سيوف»، بداية أصبحوا ضباطًا عسكريين ثم استخدموا آلات الحرب للاستيلاء على الدولة. بالنسبة إلى السُّنّة، كان ذلك «اغتصابًا»، ويقول كريمر: «كانت سوريا ميراثهم، وأدخلوا العلويين إلى مشروعهم القومي والآن أصبح الغرباء سادة البلاد».

أضاف كريمر بأن «صعود العلويين أوقع السُّنّة في حيرة، فقد غدرت بهم أيديولوجية العروبة التي صنعوها بأنفسهم». كان هناك سخرية عظيمة كما قال كريمر: «بدلًا من أن يكون لهم دولتهم، أخذوا كل سوريا بدلًا عن ذلك. العروبة التي كانت ذات يوم أداة للتوفيق بين الأقليات وحكم السُّنة تُستخدم الآن للتوفيق بين السُّنة وحكم الأقليات». مساكين أولئك الحرفيون والتجار الصغار ورجال الدين من مصائد حماة ودمشق: طائفة مارقة من الفلاحين استولت على وطنهم. كانوا ينظرون إلى الأمة من منطلق علماني، والآن يحاولون إعادة تعريفها على أسس دينية وإخراج العلويين من الملة.

# الفصل الثالث

# زمن المؤسس

ولدت السلطة في سوريا الجديدة هذه من فوهة البندقية بالطبع، ولكن الأيديولوجية فوق كل شيء، أيديولوجية حزب البعث، لعبت دورها، أعطت الرجال الجدد اللغة التي يحتاجونها لإخفاء طموحاتهم الشخصية والطائفية. ثلاثة استيلاءات عسكرية بعثية على السلطة غيّرت ملامح الساحة السياسية السورية بالكامل.

حدث الأول عام 1963 والثاني عام 1966 والثالث عام 1970. ونما تركيز السلطة إلى الحد الأقصى خلال هذه الفترة العصيبة مثل ما حدث للطائفية. كان الانقلاب الأول خليطًا من الحماس الأيديولوجي والطموح، حيث تلاقى الضباط البعثيون والمنظرون الأيديولوجيون لقلب نظام الامتيازات القديم رأسًا على عقب. لقد نفذ ذلك الانقلاب رجال من أصول ريفيَّة - إسماعيليون ودروز وعلويون وسنَّة من الطبقات الصغرى في المجتمع. كانت هناك العديد من الحركات الأيديولوجية المتصارعة والمتنافسة على توجه البلاد ـ ناصريون وشيوعيون والمؤمنون بقومية سوريا الكبرى ـ ولكن البعث انتصر. لقد كانت في تلك الفترة التكوينية بداية تخلُّق مراسم الطوارئ

والتي استمرت قانونًا للبلاد للستين سنة التالية. حصل المؤسسون «التاريخيون» للبعث، ميشيل عفلق وصلاح الدين البيطار - الذين كوَّنوا أيديولوجيتهم في باريس من سنوات ما بين الحربين على ما يريدان. لقد اخترقوا صفوف ضباط الفرق العسكرية وضمنوا هزيمة «الإقطاعيين» والعوائل الكبار، وهزّوا الزعيم المصري جمال عبد الناصر، ودفعوا جانبًا الأحزاب السياسية المنافسة.

كان الانقلاب الثاني بعد ثلاث سنوات مؤامرة داخل حزب تآمري. تمّ دفع المؤسسين جانبًا - ثم طُرد الأسطوري عفلق من الحزب الذي خلقه. وقد ترك سوريا للأبد معلنًا على الأشهاد أن ذلك البعث ليس بعثه وهؤلاء الجنود ليسوا جنوده. صعدت إلى السلطة سلالة جديدة محدودة الأفق. سيطر ضابطان علويان، صلاح جديد وحافظ الأسد، حينئذٍ على الصرح العسكري البعثي. هذان الرجلان والضباط الذين تحلقوا حولهم لم يعرفوا ثقافة وأساليب المدن السورية، فضلًا عن باريس. أيديولوجيًا، كان ذلك نظامًا متزمتًا ومعاديًا للتجار والأعمال الخاصة في البلاد، وشرهًا ومتهورًا تجاه الشؤون الدينية والإقليمية. كان هذا هو النظام الذي بشكل أو بآخر أشعل حرب الأيام الستة في العام 1967. كانت طائفية النظام آنذاك بالكاد خفيّة: دفع العلويون الضباط الدروز والإسماعيليين جانبًا ولكنهم تركوا بعض المجال لأولئك المستعدين من بين السُّنّة لقبول واقع سلطة العلويين. ولكن هذا النظام البعثي الجديد كان مقدرًا له الانتهاء من الداخل: فالنزاع بين حافظ الأسد وصلاح جديد انتهى لصالح الأول. خلع جديد بذلته ووضع سلطته في

جهاز الحزب، أمّا الأسد الأكثر دهاءً، فقد اختار البقاء من داخل الجيش وفرق الضباط. كان تبرير استيلائه على السلطة أنه «حركة تصحيحية» ضد صلاح جديد والمتزمتين.

وضع هذا الانقلاب في عام 1970 حدًّا لدورة الاستيلاء العسكري المتعاقب على السلطة والذي ميَّز السياسة السورية منذ أول انقلاب من عام 1949. لقد وفَّر لبلاده الاستقرار، لكن الثمن كان فادحًا. لم يمر وقت طويل على المطلعين على هذه الطبقة السياسية العسكرية من داخل حزب البعث للإفصاح عن إحساسهم بالخيبة والخذلان. كان هناك من قبل الفيلسوف - الملك لحزب البعث، ميشيل عفلق الذي تبّرأ منه أطفاله السياسيون. إن أفضل تفسير إلى الآن لما قد حلَّ بالنظام الجديد هو ما جاد به قلم أحد أكثر العقول المتميزة، سامي الجندي والذي ظهر منذ الفترة المبكرة عام 1969. ويجب القول إن كتابه «البعث» الذي نُشر في بيروت، من الكتب اللامعة في مجاله، في المذكرات السياسية العربية. ولد سامي الجندي في مدينة السلمية قرب حماة في عام 1921 وهو سليل عائلة إسماعيلية ذات علم هائل. كان قد احتل منصبًا وزاريًّا في حكومة البعث الأولى 1963 ـ 1964. وكان قد أرسل إلى الخارج كسفير لدى فرنسا بعد سنة أو سنتين. «كان طبيب أسنان وكاتبًا ذا لمسة رقيقة ورجلًا واقعيًّا ومترفعًا عن الزيف والنفاق. لقد جرَّب كلًّا من السجن والمنصب العالي. وتجاه مسيرة حزب البعث عبَّر عن خيبة محب واهم فقد الأمل. كان البعث عالمه ولكنه بدأ يتغير ويصبح غريبًا عليه. «من كان ليصدّق في عام 1940-1941 أن حزب البعث سينتهي به الأمر إلى هذا

الضياع؟ من مِنّا كان ليتنبأ أن تسمية بعثي ستصبح تهمة ننكرها بمرارة؟ لن يصدق أحد اليوم أنه كان لنا ذات يوم قضية، لأنّهم يصرّون على أننا مُخبرون، وكاتبو تقارير جلادون وقتلة. يتهمنا الناس هذه الأيام بالخيانة ويوغلون في رفض كل شيء قلناه أو أنه ليس إلّا نفاقًا وانتهازية. من البداية ظهر للناس أننا ظاهرة جديدة، جادُّون ومثاليُّون ولم يعتقد أبدًا أننا كنا نلعب بالنار. «السلطة ساقت إلى الدمار». كانت رحلتنا إلى السلطة سريعة وقصيرة وخطيرة. لم يظن جيلنا أننا سنصل إلى الحكم. وجدنا أنفسنا في موقع السلطة، بعقلية جديدة ولكن بوسائل قديمة، تنقصنا الخبرة والأيديولوجية. «كانت مجموعات البعث الشابة مقتنعة أن عصر الانحطاط قد ولّى مع سقوط السياسيين القدماء وأننا فجر الحضارة الجديدة. انتهى الأمر بنا لأن نكون أحدث نسخة من التخلُّف».

يقول الجندي عن رفاقه إنهم عاشوا «غباء المؤمنين الصادقين». كانوا فقراء ولكن لم يبالوا بذلك، قرأوا على نطاق واسع وكانوا ميالين إلى الأفكار الجرمانية عن القومية. كان كل شيء خداعًا. لقد اكتسب البعث كل هالته وبريقه من اختطاف قضية فلسطين وها هو الآن، بعد عام 1967، المتسبب في «أكثر الهزائم الكارثية إذلالًا في التاريخ العربي». لقد مُنِحوا فرصتهم لأن السوريين نشأوا على الاقتناع أن الطبقة السياسية التي كافحت من أجل الاستقلال لم تستطع تحقيق تطلعات جيل جديد. ومن مخاض أعوام 1940 ـ انتهاء الانتداب الفرنسي وبزوغ الاستقلال الوطني في العام 1946 ـ ولد حزب البعث «كتعبير وحيد عن القومية العربية في دمشق». لقد اكتسح

الشيوعيين والإخوان المسلمين والأحزاب السياسية القديمة. أمّا ميشيل عفلق، والذي كان آنذاك مدرسًا وكاتبًا لا بأس به، فقد أضفى على الحزب «الرومانطيقية الضرورية». برز عفلق في دمشق أيامه: قرأ فريدريك نيتشه وأندريه غيد وشرح مارسيل بروست وتوماس مان. كان فنانًا أكثر منه سياسيًّا، تكوّنت العضوية الأولية من ثلّة من الشباب. كانوا من خريجي الثانوية العامة وجُنِّدوا من قبل مدرِّسيهم. اجتذب الحزب خمسمائة عضو إلى عام 1952. «غَمَرنَا نشاط الحزب بالكامل وكرَّسنا له عملنا وكل حياتنا. ولو كنت لأعطي أمثلة عن التضحيات الشخصية فسأحتاج إلى تأليف كتب عديدة». لم تكن هناك قرية نائية بالنسبة إلى البعثيين الشباب. كان هناك قرويون لم يروا طبيبًا من قبل، وكان الأطباء البعثيون يذهبون إلى أولئك الفلاحين البؤساء ويعالجونهم دون مقابل.

في البداية لم يتقبل الفلاحون هؤلاء المتمردين الجدُد «كانوا يرون فينا تهديدًا لعقائدهم المقدسة ولكن إصرارنا جذبنا إليهم أكثر». كان المجتمع الزراعي مثقلًا بالظلم وأعطى ذلك للبعث موطىء قدم، وممّا جعل نجاح الحزب في الريف أكثر سهولة الأصول الريفية لمجموعاته: فبالرغم من أنهم كانوا طلبة جامعيين في دمشق، فإن جذورهم هي من الريف نفسه الذي كانوا يحاولون تحويله إلى قضيتهم.

يذكر الجندي أن دمشق لم تستجب للبعث. كان الحزب يبحث عن نتائج وكان العمل السياسي في دمشق شاقًّا ويتطلب مهارات وجهدًا كبيرًا. وعن دمشق كتب الجندي: «إنها مدينة التاريخ العربي ولا تنفتح إلّا إلى عاشق جدير بإغرائها. إنها

مدينة انتظار، تتمهل وتمتنع ثم تقول إما لا أو تقبل». إن رفضها يعني أنه من المستحيل أن تستمر، وقبولها يعني الدخول إلى التاريخ من أوسع أبوابه. لقد بنى الإسلام دولة عظيمة فقط بعدما رفعت دمشق راياتها. وبالمثل فإن الوحدة العربية لم تكن لتصبح أيديولوجية ذات أهمية لو لم تستسغها دمشق. سد الإرهاب الفجوة بين الحزب والمدينة العظيمة المذهلة.

أصبحت السجون السياسية علامة مميزة للحياة السياسية السورية. وسجن المزة السيئ السمعة سيلاحق الحياة السياسية. تذكر الجندي أن البعثيين تفاخروا في براءة بأنهم سيحوّلون ذلك السجن إلى فندق سياحي ويضعون حدًّا للسجون والتعذيب. لقد حدث النقيض في عاصفة من العنف. «ومنذ ذلك الحين، والمواطن السوري يفتح أذنيه وقلبه كل صباح على توقع سماع موسيقى عسكرية. وإعلان البيان رقم واحد». أبطال الأمس سيصبحون أنذال اليوم. لقد حيّد البعث الأحزاب الأخرى ولكنه كان في غاية الانشغال بالانقسامات في الداخل. تعارك الضباط والمنظِّرون الأيديولوجيون داخل البعث. كان مهمًّا لهم أن يحبطوا الرئيس المصري الشهير جمال عبد الناصر ويقلّلوا من أهمية اشتراكيته وذلك بتقديم برامج اقتصادية جذرية شاملة. لقد حارب جيل الشباب ضد الشيوخ. «لقد وصلنا إلى السلطة بعد أن اندحرت كافة القوى الأخرى. لقد حققنا رغبات الإمبريالية بينما كنّا نهتف ضدها». كانت هذه فترة التطهير الذي لا نهاية له: فصل المئات من الضباط وأصبح جيش الوطن عصابات متقاتلة. تحدث المنظرون الأيديولوجيون عن «الأجنحة» المتنافسة في حزب البعث إلّا أن هذه، كما ذكر الجندي، كانت «قبائل»

متناحرة. «أصبحت أيدي البعثيين الآن ملطخة بالدماء والعار، حيث البعثيون ينافسون بعضهم البعض في القتل والاضطهاد».

تبيّن أن حافظ الأسد كان النموذج والمستفيد من هذا العهد للقطيعة الحادة والتي استخدمها للوصول إلى السلطة، فقد كان متآمرًا أكثر كفاءة من الباقين، وكان هو الجندي الصارم قبل انقلابه «التصحيحي» المغالي في التباهي، كان في مبارزة مع صلاح شديد زميله الضابط العلوي، ونور الدين الأتاسي، الطبيب ورئيس الدولة السُّني. كان الأتاسي في الحقيقة غطاء للقادة العلويين، كان الأمر أن الفائز يأخذ كل شيء في هذه اللعبة العنيفة. ثبَّت الأسد حكمه وأرسل الرجلين الآخرين إلى سجن المزة. بقي الأتاسي هناك حتى أُطلق سراحه عام 1992 حيث أرسل على نقالة إلى باريس ليموت بالسرطان. أمّا نهاية شديد فقد أتت بعد عام من ذلك في سجن المزة البائس.

كان من حُسن حظ سامي الجندي أنه كان طبيب أسنان ماهرًا وأنه لم يصعد عاليًا كي لا يكون معرَّضًا لدفع ثمن مريع. لقد جرب المنفى - ونعمة طب الأسنان المنقذة في تونس وانصرف إلى كتابة المذكرات. أصبحت سوريا الآن ملك سيدها الجديد. لقد صاغها على صورته - كتومة وقاتمة وماكرة جمهورية الخوف والاكتئاب. في عام 1971، بعد سنة من صعود الأسد إلى السلطة، أفضى إلى حمود الشوفي، الزعيم في حزب البعث والذي انفصل عنه بعد سنوات، ملخص رأيه في السياسة والإنسان. قال إن الناس لديهم «مطالب اقتصادية أولية» أشياء مثل امتلاك قطعة أرض أو سيارة أو منزل... إلخ وهناك «مئة أو مئتين» على الأغلب الذين هم رجال سياسيون

وهؤلاء مقدر أن يعارضوه مهما كانت الأحوال. «إنه من أجلهم قد بُني سجن المزة أساسًا».

كان هذا الشعور بدون شك نافذة إلى عقل ذلك الزعيم السوري الأكثر تأثيرًا في العصر الحديث. إن ما سيتأكد بخلاف الحقيقة كانت هي الأعداد التي أرسلت إلى السجون السياسية. كان هناك الآلاف الذين كان ذلك مصيرهم. لم يكن من اللازم وجود شقاق كبير يؤدي للذهاب إلى سجون سوريا المرعبة. كلمة خطأ نطقت علنًا، أو إشاعة أو التواصل مع مجموعة سياسية محرمة أو نقاش قد يقود إلى الإشارة حول الخلفية العلوية للحاكم. كان هناك رجال اضطروا إلى ترك السياسة لأجل البقاء أحياء. كانت إحدى القضايا التي سجلها المعارض الشهير أحمد فرج بيرقدار ـ والذي قضى حوالي 15 عامًا في السجن ـ عن رجل يعرف باسم مازن أبو الحلم. أرسل مازن إلى السجن من أجل حلم رآه. وأخبر مازن بيرقدار أن الحلم غامض ومشوش وأن فيه جنازة مسؤول كبير وربما انقلابًا عسكريًا. مازن لم يعترف بالحلم ولكن صديقًا مقربًا منه قبض عليه وعُذِّب، وذَكر اسم مازن أثناء أوقات التعذيب. لم يستطع الصديق أن يتحمل التعذيب وأخبر عن حلم مازن وقُبض عليه. لم يكن لديه أي اتجاهات سياسية ولكن الحلم اعتبر دليل إثبات العداء للنظام وأرسل الرجل إلى السجن. كان أكثر الأحلام تكلفة في العالم كما قال أحد السجناء.

بيرقدار، الذي ولد في حمص عام 1951 والذي منح جائزة «بربارا غولد سميث لحرية الكتابة» عام 1999 وكذلك هيلمان/ هاميت للتعبير الحر، بعد عام من ذلك ذهب إلى كل سجون بلاده المخيفة: المزة وسجن الصحراء في تدمر وسجن

صيدنايا العسكري وبعد أن سجن لسنوات بدون أي تهمة موجهة ضده، أُطلق سراحه عام 2000 بعفو رئاسي - في السنة الأولى لحكم بشار - وغادر البلاد ولم يعد أبدًا. كان قد سجّل ذكريات ذلك الزمن الوحشي في كتابه «خيانات اللغة والصمت» (The Betrayals of Language and Silence) والذي نُشر في بيروت عام 2006 والذي يمثّل الروح الحرة التي عانت الجحيم ولم تنهر. كان بيرقدار الناشط الشيوعي، الثالث في عائلته الذي سُجن وتعرضت زوجته للعقاب نفسه. كان عمر ابنته الوحيدة ثلاثة أعوام عندما دخل السجن وأطلق سراحه عندما كانت على وشك بدء الدراسة الجامعية. ولستة أعوام من السجن، كان معزولًا عن العالم الخارجي، ومحرومًا من الزيارة، من الأقلام والأوراق أو سماع الراديو. كان شاعرًا مرموقًا، وأكثر جزء مؤلم من القليل الذي كتبه عن السجن كان عندما سمح لابنته بالزيارة لترى هذا الغريب تمامًا، السجين رقم 13. كان زملاؤه المساجين يتزاحمون لإعطائه الملابس اللائقة بهذه الزيارة، وتعرَّف على ابنته الخجولة نصف مخفية بجانب أمه. وفي زيارة تالية، سألته ابنته، «أبي، هل حقًّا أنك شاعر؟» فأجابها: «تقريبًا» سألته «لماذا إذًا لا تكتب لي قصيدة؟» قال إنه قد كتب لها قصائد كثيرة وإنها ستقرأها عندما يحين الوقت، عندما تنضج. «لا أريدها مستقبلًا»، أريد أن تكتب لي الآن». ألَّف لها قصيدة، مليئة بالتلميحات والإشارات التي قد تخاطبها. احتضنته في الزيارة التالية قائلة: «أبي، لقد حفظتها» كانت تتلفَّت في خوف عندما طلب منها أن تقرأ القصيدة له، وأبت. كانت هذه حياة السجن، «مملكة الخوف والجنون». لم يكن هناك أقلام ولكنهم صنعوها من أشلاء الخشب، والحبر من

الشاي وقشر البصل. يتذكر بيرقدار أنه في غمرة الإذلال والجوع وجلسات التعذيب، جنح السجناء إلى التحصُّن بزنزاناتهم، يعودون إليها كما لو كانوا يعودون إلى أمان الرحم.

كان جزءًا من الخرافات التي تروى عن حافظ الأسد أنه فتح سجون سوريا عندما جاء إلى السلطة وأنه أوقف جنون العقود السابقة. كان يروى أن الجماهير المعجبة به في حلب رفعت سيادته عن الأرض عندما زارها في السنة الأولى من رئاسته. شعر السوريون آنذاك بالارتياح لثباته وانضباطه، ولكن ذلك كان تبريرًا؛ وفي الواقع لم يكن ساديًّا في لجوئه إلى العنف ـ لقد كانت هناك منهجية لوحشيته وهدوء وتعمديَّة في شخصيته نفسه. يقول الذين تعاملوا معه إنه لم يسبق له أن رفع صوته ولم يكن يلجأ إلى الصراخ والتهديدات الفارغة. كان على الأحسن متحدثًا عامًّا متوسط المستوى. لم يكن لديه الكثير من الحيوية والحماس خلال العقد الأول من حكمه، فوَّض أمور الوحشية إلى أخيه الأصغر رفعت الذي لم يتورَّع عن العنف والانحطاط الشخصي. كان قد أسّس لنفسه كيانًا على صورته وفعل ذلك في مكر وقسوة متساويين. بنى ذلك على خلفية الحرب الباردة على نمط دكتاتوريات أوروبا الشرقية والكتلة السوفياتية. كان هناك اضطرابات ومؤامرات واستيلاءات عسكرية على السلطة في تاريخ سوريا بعد الاستقلال فقام بإنهاء ذلك. في دولة الأمن القومي لهذا الحاكم العسكري، وشى الابن بعائلته، وفضحت الزوجة أسرار زوجها. عشرات الألوف أرسلوا إلى السجون السياسية وانتشر نظام الرعب في كافة أنحاء البلاد من أكبر المدن إلى أبعد القرى.

«هل نحن نكذب الآن إذا قلنا إن حياة العبيد في روما تُعيد نفسها في سوريا، ولكن فقط في صيغة القرن العشرين؟ قال ذلك بيرقدار في دفاعه أمام أعلى محكمة عسكرية في عام 1993، كان ذلك بعد ربع قرن من مذكرات الجندي، وهذا الكاتب عانى سنوات في السجن مع المزيد الذي كان سيأتي. قال إن الحياة كانت جحيمًا في السجن و«كنا نسحب سلاسلنا معنا إلى المحكمة».

لا يجوز لنظام أتى إلى السلطة من خلال القوة والمؤامرة أن يحاكِم أي مواطن بسبب رأيه بصرف النظر عمّا إذا كان اشتراكيًّا أو رأسماليًّا، مؤمنًا أو ملحدًا، مؤيدًا للنظام أو معارضًا. تحدث بيرقدار عن تقلبات الحياة السياسية قائلًا: «لا أحد يختلف مع الفرضية أنه لو كان هذا النظام الذي وصل إلى السلطة من خلال انقلاب عسكري عام 1970، قد فشل في محاولته، فإن محكمتكم الآن كانت لتحاكم قادة الانقلاب كونهم أعداء الدولة والحزب». لم تكن هناك قواعد أو قوانين في هذه الجمهورية. هناك فقط قانون القوة والجبروت الخالص إلى درجة لا يمكن معها «رؤية أي فرق بين كلمة سوريا وكلمة سوريالي».

قال بيرقدار إن هذه المحكمة ليس لها استقلال منفصل عن النظام وإجراءاتها ليست سوى تمثيلية عبثية خالصة هدفها تلميع صورة الدكتاتورية وسلطتها المطلقة. «أشهد وأؤكد أن الأجيال القادمة في سوريا ستحني رؤوسها خجلًا إذا تأملت في تلك الصفحات السوداء من تاريخنا. مَن يحاكم من؟ أريد أن أشكر والدتي التي علمتني أن الحرية أقوى من السجون».

إن سلسلة العنف المتواصل والذي استُهِلَّ مع بداية أعوام 1960 لم يتمّ التخلص منه. كان هناك صمت في البلاد وكانت السجون مزدحمة. في سجل بيرقدار السجين السياسي ذي العبارات البديعة، نواحٌ على بلد لا يستطيع بناء سجون كافية لشعبه. وكانت هناك المذابح، لم يتقدم أحد بتقدير موثوق للذين قتلوا من قبل النظام.

إنّ علامة الاستبداد أن قسوته داخل الوطن يغطيها «نجاحه» في لعبة الدول. حافظ الأسد حطّم بلاده، وخلفيته العلوية غذَّت وحرّكت الإرهاب. كان ابن فلاحين وانشقاقي. كانت دمشق عاصمة السلالة الأموية (661 ـ 750) مستودع العقيدة الحضرية السنية التقليدية. كان ذلك حيث أحرز أولى انتصاراته عندما اندفع خارج الجزيرة العربية، الأمر الذي له أهمية لانطباع سوريا عن نفسها. كان هناك أقليات لا أقل من 18 طائفة، وجماعات عرقية ولكن فخر المكان كان للمدن الرئيسة ـ حلب وحمص وحماة ـ وللعقيدة السنِّية التي غلبت على هذه المدن.

كانت طبقة التجار وأعيان المدن وعائلات المسؤولين في الدولة تعتبر سيادتها أمرًا مسلّمًا به. لم يخطر ببال السُّنة بأن عسكريًّا علويًّا من خلفية فلَّاحية سوف يحكم المدن الأبيَّة المفعمة بالحياة. كان حافظ الأسد شديد الحيطة. كان صعوده إلى السلطة بداية من 1960 حذرًا للغاية. اختبأ وراء رجال من السُّنة كواجهة له وبذل جهده لتطمين عائلات التجار الكبار بأن مصالحهم ستكون محمية من قبل نظامه وأنه يمكن الاعتماد عليه ضد الأيديولوجيات المتطرفة في حزب البعث والجيش.

ولكونه كان دائمًا على وعي بالإساءة التي تمثّلها خلفيته

العلوية لدى المحافظين والمتعصبين من السُّنة، فقد حصل على فتوى من حليف في لبنان، الإمام موسى الصدر، بأن العلويين جزء من الشيعة الاثني عشرية. الصدر، الفقيه الناشط الإيراني المولد، جاء إلى لبنان عام 1959 وصعد بالتدريج في عالم بيروت السياسي وما وراءها. لم يكن ذلك هو الحل المثالي لأن أيّ صاحب دكان حرفي سُّني في حمص وحماة ينظر إلى الشيعة بعين الكراهية - ولكن كان هذا ما استطاع الحاكم العسكري عمله. بناء على القواعد الصارمة للإسلام السُّني، فإن الشيعة لا يعتبرون على المقياس نفسه للبدعة التي تمثلها العقيدة العلوية. ولإدراكه للعزلة التي تعيشها طائفته، حاول حافظ الأسد أن يدفعهم إلى الدخول في المجتمع الديني العام. إنّ تقديس الإمام علي، والذي هو أساس للعقيدة العلوية تمّ ضبطه، وحاول الحاكم نفسه أن يعمل المستطاع ليبدو منسجمًا مع الممارسات السُّنية. كان يصلي في العلن، ويتناول إفطار رمضان برفقة علماء الدين، وأظهر التقوى المتوقعة من رجل أُتيحت له الفرصة ليحكم مدينة ذات أهمية قصوى للإسلام مثل دمشق. وفي أثناء فترة رئاسته بُنيت خمسة مساجد في قرية أجداده كان أكبرها مُسمّى باسم والدته.

لم يكن سهلًا عليه الحصول على قبول بلاده. وعندما كانت الدكتاتورية تشتدُّ في قبضتها عام 1970، طوّع حافظ الأسد المؤسسات الدينية السُّنية لتكون تحت إرادته. فأعطى الفقهاء ميزة ولكنه حدَّ من دورهم السياسي. أكّد الفقه السُّني على طاعة الحاكم وتحاشي الفتنة وتقيد الفقهاء السُّنة الذين عينتهم الدولة بذلك المبدأ. كان مزاج الجهاز الديني الرسمي قد شكّله رجل من

نقابة رجال الدين والذي تمّ تعيينه مفتيًا أكبر للجمهورية عام 1964 يدعى أحمد كفتارو، (1915 ـ 2004) والذي بقي في المنصب أكثر من أربعة عقود، وترقّى إلى منصبه من خلال الرعاية السياسية، ولم يحظَ بتعاطف قرنائه من المؤسسة الدينية. في عام 1971 أقدم على خرق فاضح غير مسبوق للمتعارف عليه حيث قبل تعيينًا في البرلمان. وقد قدّم النظام وسيده العلوي الشرعية والدعم الذي احتاجه. ففي عام 1991 أعطى الإعادة الروتينية لانتخاب حافظ الأسد مسوغًا غير عادي واصفًا له بأنه «التزام وطني وواجب ديني». نفع الحذر والمراوغة الحاكم. وفي زمن الاختلاف الديني ـ السياسي، كان حافظ الأسد محظوظًا بالأعداء الذين جذبهم. ثم جرى تحدي حكمه من قبل الإخوان المسلمين وكان تطرفهم مقدَّرًا له أن يكون دعمًا للنظام. من الأفضل أن يكون هناك حاكم قاسٍ ولكن يمكن التنبؤ بتصرفاته، بدلًا من حركة دينية ـ سياسية كانت خطرًا على الأمن العام والاستقرار. عقد اتفاقًا مع طبقة التجار السُّنة في دمشق، التزم فيه أن يضبط الأيديولوجيين ويترك السوق حرًّا. وفي المقابل يقدم التجار له دعمهم، واستمرت هذه الصفقة طوال حكمه. استمتع حافظ الأسد بوصفه لنفسه كفلاح وابن فلاح. وفي اجتماع الاتحاد العام للفلاحين تحدّث بحنين عن جذوره القروية، «كنت أحبّ كثيرًا درس المحصول ولكني اشتركت في كل مراحل الزراعة. وعشت مشاعركم وأفهم عواطفكم». كان ذلك عام 1980 وكان في ذروة السلطة لعقد كامل، كان ينعى ماضيًا كان مصممًا على الهروب منه. كان يقول أمام الرابطة نفسها بعد عام من ذلك «زملائي الفلاحين، لا يد بعد اليوم ستعلو على يدكم ... أنتم المنتجون يدكم هي السُّلطة».

كان حزب البعث اشتراكيًّا صريحًا وحسب موجة ذلك الزمان كان «الإصلاح الزراعي» ركنًا أساسيًّا من أيديولوجيته. كان ذلك خطة ممتازة للعلويين لمهاجمة نظام الملكية القديم والمنزلة الاجتماعية والسلطة السياسية. لم يكن لدى الفلاحين سلطة، ولكنهم كانوا درعًا للنظام وقاعدة موالية لدعمه. لقد تمّ تجنيد الريف كسند للسيادة التقليدية للمدن.

كان الامتحان الكبير لحافظ الأسد ـ وبالتالي الامتحان لجماعته العلويين ـ بعد عقد من حكمه في صيغة عصيان دام ثلاث سنوات (1979ـ1982) كان مسرحه مدينتي حلب وحماة. لقد سقط قناع النظام وأوشك صبر أهل المدن السُّنية على النفاد. تكررت هذه القصة الدامية مرة بعد أخرى ـ وفي أذهان الناس ارتبطت بحماة الوحشية التي أُنزلت بها من قبل النظام في شباط/ فبراير1982، ولكن التمرد كان قد اندلع في المدينة الشمالية الأكبر حلب. لو أن حادثة واحدة يمكن أن يقال إنها أشعلت هذا القتال الوحشي، فإنه الهجوم في 16 حزيران/ يونيو1979، ضد الطلاب العلويين في مدرسة المدفعية. كان هناك ضابط جيش ـ سُني ليس له روابط بالإخوان المسلمين، كان في الظاهر بعثيًّا مكلفًا بتلقين الطلاب قام بهجوم مرعب. قام بفصل الطلاب العلويين (من بين 300 طالب ملتحقين بالأكاديمية كان 282 علويين) ثم أطلق رصاص الرشاش على 83 منهم. أعقب ذلك عدة مداهمات لمكاتب حزب البعث، لم يمر وقت طويل إلّا وأصبحت حلب مسرح حرب، وظهرت السوق ساحة للمعركة وأجبرت المساجد على الدخول في القتال. وقد شكل الإخوان المسلمون درعًا للمقاتلين في هذا التمرد.

لم يكن أي شيء غير مسموح به في هذه الحرب لكلا قوات الأمن والحلبيين المصممين على التخلص من هذا النظام. وفي هذه المدينة التجارية القديمة كانت قوى النظام غرباء، قوات احتلال بكل ما في الكلمة من معنى. لم يكن لحزب البعث الحاكم هنا وجود يذكر، 600 عضو في مدينة تعداد سكانها مليون. مشاكل حلب أفرزت مشاعر أقلية بين العلويين المتمثلة في قلق مجتمع ظلّ مضطهدًا لزمن طويل حيث تصبح خطايا النظام خطايا علوية تقاسم هوية مشترك.

ذكر عالم الاجتماع الفرنسي ميشيل سورات في ذلك الوقت أن آباء وأمهات الطلاب المقتولين رفضوا استلام تعازي المسؤولين الذين اتصلوا بهم. ولكن الحاكم استنفر الجماعة ونجح في ربط بقائهم على قيد الحياة ببقاء نظامه. ونتج عن محاولة اغتيال الأسد في حزيران/ يونيو 1980 ظهور إرهاب جنوني، فقد أعلن الأخ الأصغر للحاكم رفعت الأسد، حارس النظام وقائد سرايا الدفاع، الحرب الشاملة ضد الإخوان المسلمين ومن وقف معهم. وفي منشور متداول على نطاق واسع، أعلن أن النظام على استعداد لقتل مليون سوري لأجل حماية «الثورة». إن عملًا وحشيًا مميزًا وسَمَ هذا القتال المرعب: بعد يوم من محاولة الاغتيال أُرسلت طائرات هلكوبتر مقاتلة إلى سجن تدمر الصحراوي وقتلت 800 سجين سياسي في هجوم واحد.

أراد النظام أن تُعرف هذه البربرية. كانت مجازر تدمر مقدمة للمذابح الجماعية في حماة. هذا الحاكم هنا ليبقى وجعل العنف منه وشقيقه عنوانًا لهذه الرسالة. عادت مظاهر الماضي -

الاحتجاجات في الشوارع والنزاعات في حماة حيث كانت تندلع الصراعات المحدودة بين القرويين العلويين داخل المدن.

بعد هذه الفترة من الرُّعب، انطلق العاملون في النظام في حملة مبالغة لتقديس الأسد وحشر وجوده في الحياة العامة. تراجع حزب البعث الآن إلى الخلف واحتل الحاكم بؤرة الهالة السياسية. كانت هذه ظاهرة ذات طابع ريفي خشن. فوالدة الدكتاتور، الفلاحة العجوز، أصبحت أم الأمة، وقد جعل يوم وفاتها عام 1992 يوم حداد وطني، كانت هناك صور هائلة لها ورأسها مغطى ترنو إلى ابنها. وأقحم ذلك في حياة السكان الحضريين ذوي الاحتقار الأسطوري للفلاحين. فالشباب العصريون في كافة أنحاء الشرق المتوسط كانوا يتهربون من أول وهلة عند رؤيتهم لقريبات يشبهون ناعسة الأسد متظاهرين بأنهم لا علاقة لهم بهم. ولكن جاءت الموجة القدسية للابن الأكبر بعد موته بحادث سير بعد عامين. كان باسل «المهندس» «الفارس» مستودع آمال الأمة الذي اختطفه الموت القاسي. ويمكن القول بأن النظام، بقاعدته الاجتماعية وجوهره العلوي، قد طبع دمشق بطابع ريفي. في واقع الأمر تقاطر أهل الريف على المدينة وكان هناك أيضًا تحوُّل ثقافي - استيلاء الفلاحين على السلطة.

وصف صحفي لبناني متألِّق وذو نظرة ثاقبة في تاريخ سوريا الاجتماعي، جهاد الزين، مأساة البلاد من عام 2011 والانقسام العلوي السُّني كأساس للصراع بين الصفوة الحضرية وقوى الريف. في هذه القصة نجد أن تاريخ القرى الماضي يمكن إرجاعه بسهولة إلى نهاية الحرب العظمى، وانهيار السيادة العثمانية إلى الوقت الحاضر. من عام 1920 إلى عام 1958

كانت الصفوة الحضرية وقواعدها في المدن الأربع الرئيسة دمشق وحلب وحمص وحماة هي صاحبة السيادة. كانت هناك فترة فراغ بين عامي 1958 و1963 ثم جاء الانتصار العظيم لأولاد المناطق والجيش. في أيام من أيام عزّها، لم تحفل الصفوة الحضرية (السنية) بالسكان الريفيين واعتبروا سيادتهم أمرًا مسلّمًا به. ولكن منذ عام 1985 كان عالمهم آخذًا في الانهيار وكانت الحركات الأيديولوجية المتطرفة تقرع أبوابهم. بحثت الصفوة عن النجاة في الاتحاد مع جمال عبد الناصر في مصر، لكن ذلك الاندماج (الجمهورية العربية المتحدة) كان مقدرًا له الانهيار منذ البداية: كانت الصفوة السورية تتّسم بالمشاغبة والمصريين كانوا متسلطين. انتهت التجربة بمرارة وعدة سنوات من الضياع في السياسة السورية. والآن اعتلى السلطة البعثيون من الجيش والعلويون والدروز والإسماعيليون من الريف. ادّعوا أنها «اشتراكية» وكان برنامجهم مشحونًا بالانتقام الطبقي والطائفي. كان هناك رجل من بينهم، حافظ الأسد، الذي كان محظوظًا وكذلك لاعبًا سياسيًّا ماكرًا. وبينما الكثير من أقرانه ومعاصريه ومنافسيه سقطوا تحت رصاص الاغتيال أو قضوا في السجن. كان مقدرًا له أن يحكم لثلاثة عقود ويموت ميتة طبيعية ويُدفن في قرية أجداده. والأكثر أهمية أنه استطاع أن يحوّل كيانًا سياسيًّا مضطربًا إلى نظام جمهوري وراثي. كان هذا هو النظام الذي سعى المتظاهرون إلى الإطاحة به عندما اشتعل الربيع العربي السوري.

إذا كانت الصفوة الحضرية متغطرسة ولا تأبه لاحتياجات سكان الريف، فإن رجال السلطة الجدد كانت سمتهم الاستبداد

والوحشية. وبدون شك فهم يحملون معهم دائمًا ذكريات الحرمان القديم وكانوا لا ينسون كيف كانت البرجوازية القديمة تنظر إليهم. وعندما حطَّم رجال الريف الجدد النظام تسابقوا للحصول على مزاياه. انتقلوا إلى دمشق وتزاوجوا مع أكثر العوائل مقامًا في دمشق وحمص، واهتموا بالمظاهر وأصبحوا في غاية الثراء. وفي الوقت الذي انفجرت البلاد ضدهم كانوا قد سيطروا على مؤسسات الجيش وقوات الأمن والاقتصاد والمؤسسات الدينية وأجهزة الدعاية ونشروا أسطورة آل الأسد الأب والابن. هناك ملامح من كوريا الشمالية في هذا النظام السوري. يقدَّر أن هناك 3000 تمثال للرجل العجوز الأسد عند وفاته. لقد سلبت هذه الموجة التأليهية البلاد كل حيوية سياسية كانت لها من قبل.

الـ

لها
في
الم
شبا
أخر
لبنا
ماك
اغت
دمش
الس
الأق
لقد
الم
من
الع
ورأى

## الفصل الرابع

# الفجر الكاذب

انطلاقة بشار وبداية ظهوره على المسرح الدبلوماسي كان لها أن تكون في شباط/ فبراير2005، وكان لجريمة قتلٍ سياسية في لبنان أن تحطّم جدار السرية حوله. وبالنظر إلى أحداث الماضي فقد كان اغتيال رئيس الوزراء رفيق الحريري في 14 شباط/ فبراير على واجهة بيروت البحرية، العمل الفاصل الذي أخرجه من ظلّ أبيه. لقد كان للأب نصيبه من أعمال القتل في لبنان، ولكن هذا الاغتيال مختلف. ومثل اغتيال الملك في ماكبث، لم يعلم الفاعلون هنا أن ضحيتهم كان ذا دم كثير. إن اغتيال هذا القائد السُّني المرموق والذي كان قد تصادم مع دمشق بشأن شروط حرية بلاده في المناورة في وجه السيطرة السورية، سيلاحق بشارًا ونظامه. وفي الحقيقة كان الحريري الأقل احتمالًا ليكون من المستشهدين في سبيل استقلال لبنان. لقد صعد من عتمة وفقر صيدا ـ على شاطىء لبنان ـ إلى المشارف العليا في المجتمع اللبناني والعربي، على الأغلب من خلال دعم آل سعود والعلاقات الشخصية مع الحكام العرب ورجالاتهم. كان مؤمنًا بسلطة الثروة والبراغماتية، ورأى أن رسالة لبنان تتلخَّص في النهج التقليدي الموروث في

صيدا الفينيقية: التجارة وتبادل المصالح والأعمال المصرفية والسياحة.

وعلى مرّ عقدين طويلين في اللعبة السياسية تأقلم مع القوة السورية. رشى عملاء المخابرات السورية وضباطها وساعد أبناءهم وبناتهم وزوجاتهم في صفقات تجارية، وأعطى المال عندما طُلب منه من قبل بارونات المخابرات السورية وفعل ما في استطاعته لإعادة بناء بلاده في الوقت الذي لزم فيه جانب السلامة بعيدًا عن السلطة السورية في لبنان.

كان الحريري يعلم بعواقب سخط سوريا: لثلاثة عقود تمّت تصفية شخصية أكبر منه عندما بدأوا يثيرون مسألة سيادة بلادهم، ضد سلطة دمشق. لقد اغتيل جنبلاط لأنه كان رجلًا فخورًا وصعب المراس. ولم يلتفت إلى تطلعّات سوريا إلى السيطرة. وبعد خمس سنوات جاء دور شاب عنيد ماروني، بشير الجميِّل الذي صعد خلال حرب لبنان الأهلية إلى قمة السلطة.

انتخب الجميّل رئيسًا أثناء صيف 1982 القاسي عندما اجتاحت إسرائيل لبنان لكي تدمّر المقاومة الفلسطينية المسلحة. كان وطنيًّا لبنانيًّا متعطشًا إلى إعادة بناء دولة تفكّكت ولكن لم يقدَّر له اعتلاء السلطة، في عمل إرهابي لا يُنسى، مزّق انفجار مبنى مركز حزبه السياسي ذي الثلاثة طوابق وأودى بحياته.

كان سيتلو ذلك على الطريق ضحايا آخرون ـ رئيس ورئيس وزراء وشخصيات سياسية أقل شأنًا. كان النظام في دمشق مصممًا على محو الحدود بين سوريا ولبنان.

«بيروت هي مدينة الاستراتيجيات»، كتب هذه الجملة جورج شولتز وزير الخارجية الأميركية في مذكراته.

«اضطراب وانتصار» (1993). كان داخلًا بعمق في سياسات لبنان في (1982-1984) عندما حاول أن يضمن للبنان هامشًا للمناورة فيما يتعلق بسوريا. لم يفلح ذلك الجهد النبيل. كانت الطبقة السياسية اللبنانية في وضعها الممزق وفي غاية الخوف. كان قدرها أن تواجه استراتيجيًّا غاية في المكر في دمشق، الحاكم حافظ الأسد. منهجيًّا كان الصبر علامته المميزة ـ كان قد أخرج أو همَّش لاعبين خارجيين آخرين في لبنان وكل ما تركه للبنانيين هو هيكل من السيادة الوطنية.

كانت الطبقة السياسية والعسكرية حول حافظ الأسد تعتقد أن لبنان ملكها الشرعي. كان اللبنانيون لامبالين. كانوا في خصومات مع بعضهم البعض، واستغل السوريون تلك المنافسات وذريعة وجود إسرائيلي عسكري في جنوب لبنان، وحوّلوها إلى استيلاء فعلي على جارهم الأصغر. وأصبح لبنان منذ آنذاك يُدار من عنجر تلك البلدة المغمورة قرب الحدود السورية. كان الحكام العسكريون والاستخباراتيون السوريون يمارسون عملهم من عنجر.

تعرض لبنان لخدعة عظيمة وقاسية. ذلك البلد الذي أَلِف تيارات العالم المتداخلة، بلد الثقافة ـ ثقافة فرنسية في شرق بيروت وجبل لبنان والثقافة الأميركية من على ساحلها العربي ـ كان مقدَّرًا له أن يقع في قبضة جيش الاحتلال لنظام وحشي متخلف. كان للسوريين أغراض في لبنان: كانت هناك أموال للصوص السوريين الكبار، وفرض في تجارة المخدرات والممنوعات وحدود يستطيع منها شّن حروب متقطعة وأعمال إرهابية ضد إسرائيل مع الحفاظ على أكثر الحدود هدوءًا على الجبهة السورية ـ الإسرائيلية.

والحقيقة أن هذه الانتهاكات المضطّردة للبنان كانت بمساعدة وتشجيع صمت العالم. فمن التغيرات المذهلة، أصبح يُنظر إلى السوريين المسببين للحريق المتعمَّد على أنهم فريق إطفاء الدولة اللبنانية السريعة الاشتعال. كان اللبنانيون يعتقدون ببساطة أن بلادهم ذات أهمية للولايات المتحدة ولكن السلام الأميركي غضّ طرفه عن تدمير سوريا آخر أثر لاستقلال لبنان. في عام 1990-1991 لم تمانع الولايات المتحدة عندما أخمدت سوريا ثورة ضابط لبناني، ميشيل عون الذي تجرأ على تحدي أوامر سوريا في بلاده. كان ذلك هو الثمن الذي دفعه جورج بوش الأب من أجل تجنيد سوريا في التحالف الذي شنّ الحرب على صدام حسين لاحتلاله الكويت. رحمة باللبنانيين: لديهم شجر الأرز ولدى الكويت بترول. استُردت سيادة الكويت بينما تُرك لبنان لقدره المرعب في ذلك السجن السوري الكبير. كان الحريري قد تعرّض للتهديد من قبل السوريين قبل بضعة أشهر من اغتياله.

في ظاهر الأمر، يبدو أن ثروة الحريري وعلاقاته مع آل سعود وصداقته الحميمة مع الرئيس الفرنسي جاك شيراك وفَّرت له بعض الحماية ولكن بشار الأسد كان رجلًا هشًّا عازمًا على البرهنة على نفوذه.

كان اغتيال الحريري سجلّ لموت سبق التنبؤ به. بدأ العدّ التنازلي لقتله قبل حوالي خمسة أشهر. إن العقدين من التعامل السياسي بين الحريري وحافظ الأسد لا قيمة لها الآن. لم يُخفِ بشار الأسد بُغضه للحريري. وممّا لا شك فيه أن مكانة رفيق الحريري، السياسي السُّنّي ذي الآفاق الواسعة والصلات حول

العالم كانت مقلقة للسيد الأسد والعصابة التي حوله. أراد بشار ونجح في ضمان تجديد انتداب واليه في لبنان، الرئيس إميل لحود الذي كان خصمًا لدودًا للحريري. كان ذلك نوعًا من الخرق للممارسة الدستورية للبنان لأن مدة الرئيس كانت ست سنوات في وظيفته. لم يكن ذلك الحدث مشرفًا أو سلسًا. الحريري الذي كان رئيسًا للوزراء لعشر سنوات من الاثنتي عشرة سنة السابقة، استُدعي إلى دمشق. إن ترتيب الأحداث الزمنية له أهميته هنا: عقد اجتماع مع الرئيس الأسد في 24 آب/ أغسطس2004. مضى زمن المجاملات والأحاديث القصصية والاجتماعات الطويلة التي كان معروفًا بها الأسد الأب. هذا الاجتماع استغرق من عشر إلى خمس عشرة دقيقة (أربع عشرة دقيقة كان الرقم المحدد الذي أشار إليه الحريري نفسه).

تمّ تبليغ الحريري على عجل بأن تمديد ولاية لحود سوف يتمّ لأن تلك هي إرادة بشار وقراره. حذر السوري بأنه سوف «يحطِّم لبنان» على رأس الحريري ووليد جنبلاط، الزعيم البارز بين الدروز والشخصية المعروفة المعارضة للهيمنة السورية. وكما أدلى الحريري بقصّة اجتماعه لعدد من الرسميين حال وصوله إلى بيروت، لم تكن هناك لطافة دبلوماسية. حذّره بشار بأن السوريين سيجدونه وعائلته «في أي مكان في العالم». قال بشار إن الحريري ينبغي له أن لا يطمئن بسبب علاقته الوطيدة مع الرئيس الفرنسي لأنه إذا «أخرجني شيراك من لبنان، فسآخذ بالاعتبار خيارات أخرى وأخبرك».

لقد أفرغ السوريون لبنان من زمن بعيد من أي إحساس حقيقي بالسيادة ولم يدَع بشار مجالًا للغموض حول ذلك: «أنا

شخصيًّا مهتم بهذا الموضوع. إن الأمر لا علاقة له بإيميل لحود، بل ببشار الأسد». بشار، طبيب العيون الشاب أصبح واعيًا على الإحساس ببراعته السياسية. لم تكن تلك الطريقة التي كان والده سيتبعها، ولكن سوريا أصبحت الآن دولة بشار.

كان الحريري يعلم بأنه سيكون هدفًا للاغتيال إذا تحدّى رغبة بشار، فحسَب حساباته وقدَّم استقالته وصوَّت في البرلمان لتمديد لحود، وأعلن أنه يفكر في خياراته السياسية. واستبدلت حكومته بواحد من الممالئين للمحتل. ترأس الحكومة الجديدة سياسي سُّني مذعن من مدينة طرابلس. كانت الشرعية النسبية التي حصلت عليها حكومة الحريري قد حرمت منها حكومة مَن خلفه. بدأ بشار الآن يواجه المتوقع من الحريري، تلك الشخصية الرائدة في مجتمعه، الذي قد يجنّد أتباعه ويستخدم مكانته العالمية لينضمّ إلى المعارضة المتصاعدة للاحتلال السوري.

في وسط هذه الأزمة تبنّى مجلس الأمن في الأمم المتحدة القرار 1559، الذي تقدَّمت به فرنسا والولايات المتحدة، والداعي إلى «نهج انتخابي حرّ وعادل في الانتخابات الرئاسية اللبنانية القادمة ... بدون تدخل أجنبي»، وأن «تنسحب جميع ما تبقى من القوات الأجنبية من لبنان». كان التوقيت قوي الأثر: حدث التصويت في 2 أيلول/ سبتمبر وكان مقررًا أن يوقِّع البرلمان اللبناني السيئ الحظ على التمديد للحود بعد يوم من ذلك.

لم يكن هناك مطلقًا أي سبيل أمام الحريري يستطيع من خلاله إقناع العصابة الحاكمة في دمشق أنه لم يكن عرّاب قرار مجلس الأمن. شرح قضيته لذلك المسؤول الماكر المحنك في النظام، نائب وزير الخارجية وليد المعلِّم. كان الحريري في هذا

الاجتماع الرجل التوفيقي كالعادة. كان صديقًا لسوريا، كما أصرّ، ولكنه كان يريد وضع حدٍّ للمؤامرات والتهديدات ضده. كان عملاء سوريا في لبنان ـ ضباط الاستخبارات وقوى الأمن اللبنانية التي مرجعيتها دمشق ـ يلاحقونه. ولكنه لم يكن عميلًا فرنسيًّا أو أوروبيًّا أو أميركيًّا كما قال. كان يريد الحفاظ على علاقات لبنان مع سوريا ولكن العالم تغيَّر ولبنان لا يمكن أن يُدار من دمشق. كان يعرف شيراك ولكن شيراك كان «جديرًا بالثقة كالساعة خلال تسع سنوات» وكان قد قدَّم خدمات لسوريا نفسها. قال الحريري إنه على علم بأنه كان يتعامل مع «رئيس شاب» من دمشق وأنه لو اصطدم مع بشار فستكون العواقب سيئة له وللبنان كذلك.

كان أمله أن إخلاصه لسوريا خلال فترة الـ 25 عامًا سوف يقيه سخط دمشق. كان لديه الأصوات في البرلمان لمنع التمديد للحود ولكنه كان يعرف أن ذلك سيُنظر إليه على أنه فشل شخصي لبشار، ولذلك منح صوته لذلك التمديد وأصوات ائتلافه البرلماني. كان المعلم ذا خبرة، وكانت الريح تعصف بالحريري. لن يُمنح أي تعاطف. قال المعلم «ضبطناك» وكان يتحدث باسم النظام وعملائه في بيروت.

تحدى بشار الحلف الفرنسي ـ الأميركي الجبار. ولكن النظام السوري لم يكن ليرتاح. لقد تشجَّع اللبنانيون وأصبحت سيادتهم فجأة مهمة للعالم الخارجي. كان لاغتيال الحريري ردّة فعل سلبية كبرى. أصبح الآن لدى اللبنانيين من جميع الأطياف شهيد في شخص رفيق الحريري. أولئك الذين سخروا من ثرائه واعتبروه مجرّد أداة بيد السعودية، اتحدوا في ذكراه. بدأ

السُّنيون في لبنان، والذين كانوا مستسلمين وغير واثقين من وضعهم في البلاد تدبّ فيهم الشجاعة. أثبت شبح الحريري، والحق يقال، أنه أكبر من الرجل. كان ورثته السياسيون بارعين في استخدام ذكرى الضحية. وعلى الطريقة السلالية اللبنانية أصبح ابنه سعد حامل راية قضية الحريري. كانت العائلة تملك محطة تلفزيونية «تلفزيون المستقبل» وبدأت تشحن الموجات الهوائية بالثناء على مآثره وحبّه لوطنه وأحلامه من أجله. أصبح رفيق الحريري في موته إلهامًا للسُّنَّة ورمزًا توحيديًا للحداثة والعمل الخيري. لم يفت ذلك الحكام السوريين. لقد فعلوا أقصى ما يمكن لتخويف اللبنانيين والآن هبّت أسطورة الحريري وكان لها صداها بين السنّة في سوريا، كان الحريري متدينًا ولكن باعتدال. ظلَّ عند تقديم نفسه، ابن مدينة صيدا الذي نجح. لقد ارتقى علوًا ولكنه ظلّ على احترامه للمؤسسة الدينية. نشّأ ودعم رجال دين سنة معتدلين وصرف عليهم وعلى مشاريعهم الكثير. لا يمكن لأحد أن يتهمه بالتطرف. كان عدوًا للأفكار الجهادية ولذا قدّم إلى السنة بديلًا سياسيًا محترمًا. وبالتحديد كان لبنان مسرحه ولكن نظام الأقلية الهش في دمشق لم يكن مطمئنًا تجاه ذلك.

أصبح المشروع الهائل للنصب والاحتيال الذي كان يستفيد منه بارونات نظام سوريا مهددًا: لقد أصبح وحشيًا ومطمئنًا، لقد افترض، على نحو صائب، أن العالم تعب من اللبنانيين وأن سيطرة سوريا على البلاد هي أهون الشرين. في تحوّل تاريخي فريد في 2 شباط/ فبراير 2005 في خطابه حول «وضع الاتحاد» كان الرئيس جورج دبليو بوش يتّبع السياسة التي قُبل بها والده

وأعلن عن منطلق أميركي مختلف جدًّا. سوريا ما زالت تسمح باستخدام أرضها وأجزاء من لبنان، من قبل الإرهابيين الذين يسعون لتدمير كل فرصة للسلام في المنطقة. لقد أصدرتم ونحن نطبق قانون المساءلة السورية ونتوقع من الحكومة السورية أن تنهي كل دعم للإرهاب وأن تفتح الباب للحرية.

إن تشريع المساءلة السورية وتشريع استعادة السيادة اللبنانية اللتين هما مبادرة من الكونغرس لعام 2003، أعطت الرئيس سلطة فرض عدد من العقوبات الاقتصادية والقيود على سوريا. وإلى ذلك الوقت، تعاطى البيت الأبيض مع هذه المبادرة وبتحفُّظ كبير، ولذا فإن تبنّيه كان مؤشرًا لتغيُّر في واشنطن. كانت القوات الأميركية قريبًا من الحدود الشرقية السورية من العراق. كان طغيان بعثي في بغداد قد تمَّ تدميره، وكان هناك «المحافظون الجدد» - هاجس حقيقي لدى النظام السوري - في واشنطن يتحدثون عن «الفاكهة الدانية» وعن الاقتصاص من الأنظمة التي تؤوي الإرهاب. كان هناك الكثير من الشكوك غير المبررة في الدوائر السياسية العربية حول مشروع أميركي جديد متغطرس لإعادة صياغة العالم العربي وكانت تلك الشكوك شديدة جدًّا في دمشق.

لا بدّ أنه كان هذا هو الوقت الذي فيه قرّر النظام في دمشق وحلفاؤه من حزب الله في بيروت، قتْل الحريري. كانت هناك لعبة التخمين حول ما إذا كان القتلة سيأتون لاغتيال الحريري أو حليفه وليد جنبلاط. كان لدى زعيم الدروز جماعة قوية في سوريا وكان والده قد اغتيل من قبل السوريين في عام 1977.

كان الحريري هذه المرّة هو الهدف. فقبل أربعة أيام من

الانفجار الذي أودى بحياته وحياة 22 شخصًا آخرين، كان الدبلوماسي النرويجي المتيقظ، والمبعوث الخاص للأمم المتحدة السيد تيري رود لارسن قد حذَّر الحريري. قال النرويجي ـ الذي قام برحلة إلى دمشق ـ: إن هناك «احتمالًا كبيرًا جدًّا لحدوث عنف واغتيالات» وإن على الحريري أن يكون على حذر. وكان هناك تحذير مماثل للحريري من قبل الرئيس الفرنسي شيراك. ولكن كل ذلك لم ينفع.

لم يغب ذلك الاغتيال عن طبقة المصلحين والمثقفين السوريين. لا يملك أحد حتى الآن دليلًا قاطعًا حول هوية القتلة، ولكن الأثر من موقع الجريمة في بيروت قاد إلى دمشق. جريمة كبرى ارتُكبت وافتُرض أنها لا يمكن أن تحدث بدون ضوء أخضر من أعلى سلطة في دمشق. لاحظ ابن الحريري ووريثه السياسي سعد، أنه لم يسمع من بشار شجبًا للجريمة، وأنه لم يكن هناك تعازي أتت من الحاكم السوري. ولكن «خطابًا مفتوحًا» للتعازي من مجموعة مشهورة من المفكرين السوريين والمعارضة نشر في الجريدة الأكثر مصداقية في لبنان «النهار» في 24 شباط/ فبراير. جاء في الخطاب أنّ هذا الاغتيال كان «عملًا مريعًا وقبيحًا من الذبح خُطِّط له ونُفِّذ من قبل أولئك الذين لا يريدون أن يروا لبنان معافى وموحَّدًا وحرًّا. إننا نؤيد بالكامل مطلبكم بسحب الجيش السوري من لبنان وتصحيح العلاقات السورية ـ اللبنانية وبناء علاقة قائمة على النِّدية والاستقلال وحرية الاختيار لكلا الشعبين. لقد عبّرنا عن هذا الرأي من خلال الوسائل المتاحة لنا منذ زمن بعيد لأننا كمثقفين سوريين وجدنا في لبنان نافذة للتعبير عن الأفكار غير مسموح بها في وطننا نحن».

لو كان لدى السوريين شكوك حول وريثهم الشاب الذي هو على رأس بلادهم فإن هذا الاغتيال في بيروت أكّد أسوأ مخاوفهم. إن النظام لم يتغيَّر، وبشار هو ابن أبيه. لم تنته آلة القتل. فبعد أربعة أشهر من اغتيال الحريري، وفي 2 حزيران/يونيو، قتلت سيارة مفخخة المعلّق البارز في جريدة النهار والذي كان لامباليًا في عدائه لسوريا، سمير قصير. وبينما كان الحريري حذرًا، كان قصير متهورًا. كان عداؤه تجاه تواجد الجيش السوري في لبنان مطلقًا وظاهرًا.

كان قصير، ذو الخمسة والأربعين عامًا يمثل الأساليب البيروتية المتفتحة. كان من طائفة الروم الأرثوذكس وكانت أمه لاجئة من فلسطين عام 1948 ووالده سوريًّا. كان أكاديميًّا وصحفيًّا في آن واحد يتناوب بين عمله في جريدة النهار وبين التدريس في جامعة القديس يوسف في شرق بيروت. أشاد بهذه المدينة في كتاب عن تاريخها الطويل باللغة الفرنسية بعنوان «تاريخ بيروت». كان الكتاب قد نُشر في باريس قبل عامين من اغتياله. لقد سجَّل تاريخها منذ بدايتها المبكرة إلى «نهاية براءتها» وانحدارها في المشاكل السياسية. لقد خضّب تفانيه الكتاب خصوصًا أن المدينة وهبت ملاذًا لوالديه. وبادلته بيروت الحب بوداع مؤثر.

حمل ألفا شخص نعشه من مكاتب النهار في ميدان الشهداء في وسط المدينة إلى كنيسة قريبة. كان زميله ورئيس التحرير جبران التويني الذي يكبره بثلاث سنوات، والذي كان مثله ملتهب العاطفة في نقده للسياسة السورية في لبنان. كان يتكلم بمنتهى الصراحة قال إن مرتكبي الجريمة سوريون ومسؤولون عنها

من رأسهم إلى أقدامهم. يجب أن لا يسمح بأن يكون لبشار جاسوس واحد في لبنان».

إن واقع جحيم بيروت يفوق الخيال. فبعد ستة أشهر في 12 كانون الأول/ديسمبر، فُجِّرت عن بُعد سيارة محمّلة بثمانية وثمانين رطلًا من الـ «تي أن تي» نسف الانفجار سيارة جبران التويني، الجيب الرياضية، إلى جانب تل وقتله وشخصين آخرين. كان التويني وريثًا لسلالة من الناشرين من عائلة أرثوذكسية أيضًا.

كان جده وسميُّه قد أصدر جريدة النهار في عام 1933؛ كان والده غسان ناشرًا أسطوريًّا وشخصية سياسية وكان له من حين لآخر مقعد في البرلمان، ومثَّل لبنان في الأمم المتحدة وأفصح عن رأيه في القضايا التي تواجهها بلاده. ورث ابن غسان موهبته في الكتابة، ولكن أنشطة لبنان، والتي هي الآن في ظلّ سوريا، قد تمَّ تبديلها. قال جبران في مقابلة قبل شهرين من اغتياله إن «النظام السوري لم يقدِّم لسوريا أي شيء ولم يقدِّم للبنان أي شيء. هذا النظام يعيش على المافيات، يعيش على غسل الأموال، يعيش على تجارة المخدرات، يعيش على الفساد». كان يعرف أنه معرَّض للخطر ولذا غادر إلى باريس ومكث هناك لبضعة أشهر، واغتيل بعد يوم واحد من عودته.

كان بشار الأسد عند كلمته. كان قد حذّر الحريري أنه لو كان سيُدفع خارج لبنان فإنه سوف ينظر في بدائله. كان خصوم سوريا يتساقطون بالسيارات المفخخة وعلى أيدي الإرهابيين. جيش بشار قد أجبِر على الخروج ولكن عملاءه اللبنانيين الذين قوَّاهم وأعانهم كانوا ناشطين في تكسير الاستقلال الهشّ الذي أقامه لبنان.

كان التويني بدون شك زعيم المعارضة المثقف. لقد وضَّحت ذلك بجلاء برقية دبلوماسية من دمشق «هذه رسالة إلى المعارضة اللبنانية، لا زلنا هنا رغم كل الضغوط وباستطاعتنا الوصول إليكم وأصدقاؤكم الجدد لا يستطيعون حمايتكم». لم يكن بشار وعصابته في مزاج لقبول خسارة سيطرتهم المربحة على لبنان. لقد قدم اللبنانيون إلى ورثة الحريري السياسيين نصرًا ساحقًا في الانتخابات البرلمانية ولكن السوريين كانوا مصممين على أن يقلبوه. كان لديهم حالة ندم؛ لقد خرجوا من لبنان بالإجبار وكانوا متلهفين لاستعادة ما تخلوا عنه.

بعد الانسحاب من لبنان كانت هناك تخرصات بأن التراجع قد ينعكس سلبيًّا على سوريا وأن قبضة النظام على السلطة سوف تنفلت ولكن ذلك لم يحدث. قامت الدكتاتورية من تلك العثرة وأخذت تزداد في القمع وانطلقت تعمل من أجل العودة إلى لبنان ولتعمل كل ما يمكنها لتُثبط الأميركيين في العراق وبصراحة فإن «ثورة الأرز» أعطت اللبنانيين حرية كانت نتاج «دبلوماسية الحرية» التي نادى بها جورج دبليو بوش. في كتابه «Decision Points» كان بوش على حق عندما قال إن الثورة هي «إحدى أهم نجاحات أجندة الحرية» ذلك التحدي لسوريا جاء مبكرًا في فترة بوش الرئاسية الثانية ولكن لم يمرّ وقت طويل حتى بدأت تفقد زخمها. فبعد عام من اغتيال الحريري، تجدد التبختر في دمشق. كانت هناك أزمة بعيدة في الدانمارك، والتي كانت نتيجة نشر رسومات كاريكاتورية تمثّل النبي محمدًا، أعطت النظام فرصة للمناورة وليظهر بمظهر المُدافع عن الإسلام في شغب مصطنع نشر البساط الأحمر للرئيس الإيراني محمود أحمدي نجاد،

كتذكير للولايات المتحدة أن دمشق ما زال لديها خيارات دبلوماسية، أصبح بشار الآن مقتنعًا أن بإمكانه أن يتبع سياسة النفس الطويل مع إدارة بوش وأن يتحداها ويُحبطها في لبنان. كانت هناك انتخابات في الضفة الغربية وغزّة لمصلحة حماس وفي تشرين الثاني/نوفمبر2006 أعطى المصوتون الأميركيون نصرًا بليغًا للحزب الديمقراطي في انتخابات الكونغرس. كانت الثقة في القوة الأميركية تتراجع وكل ما استطاع جورج دبليو بوش التركيز عليه كان إنقاذ الحرب الأميركية في العراق. جاءت الزيادة المفاجئة للجنود التي اختارها جاءت عند آخر لحظة. وتمّ إنقاذ الموقف الأميركي والانضباط في العراق. وانقلب سُّنة العراق ضد القاعدة وكانت النتيجة هزيمة ساحقة لهم على يد الميليشيات الشيعية. لم يبق الكثير في جعبة الأميركيين من الناحية العسكرية وكان على لبنان أن يدافع عن نفسه ضد النوايا السورية.

وعند قرب انتهاء عام 2006 تغيَّر ميزان القوى داخل إدارة بوش، تمّ استبدال دونالد رمسفيلد بالمحافظ روبرت غيتس ـ وتناقصت سلطة نائب الرئيس ديك تشيني وكان جورج دبليو بوش متجهًا نحو اختتام رئاسته.

في تشرين الثاني/نوفمبر2007 عندما بقيت سنة عليها، عقدت إدارة بوش مؤتمرًا في أنابوليس بميريلاند، في اجتماع دبلوماسي كبير آخر لتدارس الصراع الإسرائيلي ـ الفلسطيني. كان السوريون هناك في أنابوليس ومن ثم كانوا في طريق عودتهم للتنافس. كان ذلك النوع من الدبلوماسية وسيلتهم المفضلة في التعامل. بدأت الأمور تتجه لصالحهم. كانت الحرب الشرسة في صيف 2006 بين حزب الله وإسرائيل،

والتي أشعلها اختطاف حزب الله لجنديين إسرائيليين قد أعطت الميليشيا مكانة وحرية أكثر للمناورة داخل لبنان.

صمد محور إيران وسوريا وحزب الله أمام فترة من الصلابة الأميركية وأصبح حلفاء أميركا في لبنان في موقف دفاعي وكانت لحظة «المحافظين الجدد» المفزعين في واشنطن قد ولّت.

كانت «ثورة الأرز» رائعة وكان أداؤها ليس أقل من باهر، حيث كان الشباب يستعرضون في أسواق بيروت حبّ بلدهم ويتحدّون مُعذِّبهم السوري. كان سعد الحريري محبوب الجماهير. كان شابًا وذا غنى أسطوري ويحمل في نفسه ظُلامة مقتل أبيه ولم يكن مترددًا في القول بأن خط جريمة القتل يقود إلى دمشق.

تولى أحد مساعدي والده المقربين بعده رئاسة الوزراء نيابة عنه. وتولى سعد ذلك المنصب بنفسه بعد انتصار برلماني ثانٍ في عام 2009. ولكن آنذاك حقيقة السلطة كانت قد آلت إلى حزب الله وسوريا وداعميهم الإيرانيين. وفي كانون الأول/ ديسمبر من ذلك العام قام سعد الحريري برحلة حياته السياسية تلك الرحلة القصيرة من بيروت إلى دمشق للاجتماع مع بشار الأسد. كان صريحًا ومباشرًا في اتهامه للسوريين بقتل والده. ولكنه الآن عليه أن يدير شؤون لبنان وكان عليه أن يمارس السياسة مع سيد النظام في دمشق. كان من الضروري التضحية بذكرى والده على مذبح الواقعية. لم يستطع داعمو الحريري ـ الفرنسيين والأميركيين والسعوديين ـ أن يوازنوا قُوى محور إيران ـ سوريا ـ حزب الله.

ولم يجد اللبنانيون إلى الآن طريق الخروج من ظلِّ سوريا.

* * *

من السهل دائمًا معرفة تكاليف الثورات: إرباك وتيرة الحياة وخسائر الأرواح والممتلكات وركام الاضطرابات المفاجئة. ولكن الأصعب في قياسه تكاليف جمود الأوضاع والخسائر الناجمة عن ضمور المجتمعات وعجزها عن إيجاد حلول جديدة لمعضلات قديمة. وبعد مرور عقد على حُكمه نجد أن نظام بشار لم يُطَحْ به وجهاز الأمن الذي أورثه إياه والده لا يزال جديدًا عندما ألمح الرئيس باراك أوباما إلى أن سياسة جورج دبليو بوش سوف تُستبدل بسياسة التعامل الإيجابي، وكل ما على النظام في دمشق ومثيله في إيران فعله هو فتح قبضته.

أصبحت دمشق مرة أخرى وجهة دبلوماسية. سعى الحكام السوريون دائمًا إلى الرعاية الأميركية وأصبح ذلك الآن في متناول اليد. فالنظام في طور الإصلاح ـ فبالفعل بدأ ذلك قبل بداية رئاسة أوباما مباشرة في نهاية عام 2006 أصدرت مجموعة دراسة العراق - برئاسة وزير الخارجية السابق جيمس بيكر وعضو الكونغرس السابق في هاميلتون تقريرًا أثار اهتمام وسائل الإعلام «الوضع في العراق خطير ويزداد سوءًا. ليس هناك مسلك لضمان النجاح ولكن الاحتمالات يمكن تحسينها، وبهذه الإثارة أعلنت مجموعة دراسة العراق نتائجها. كانت الثقة في المشروع الأميركي قد وصلت إلى المنحدر، وأعلنت هذه المجموعة عالية السمعة عن الإنذار بالخطر. هناك دور لسوريا وإيران في إصلاح الوضع في العراق. ينبغي إعطاء سوريا محفزات، وطلب مساعدتها في القضاء على تدفق التمويل والمتمردين والإرهابيين إلى العراق». تمّ التخلُّص من الإجماع الأميركي حول عزل سوريا وفقدت إدارة بوش الحوار العام

وكانت هزيمة الحزب الجمهوري بعد عام في انتخابات الكونغرس قد أنهت ما تبقى من سلطته.

استخلص النظام السوري النتيجة بأنه استطاع الانتصار على «المحافظين الجدد». في نيسان/أبريل2007 ذهبت رئيسة الكونغرس نانسي بلوتزي إلى دمشق واجتمعت ببشار الأسد. ولكن كانت زيارة الرئيس الفرنسي نيكولا ساركوزي في أيلول/سبتمبر2008 هي التي رأى فيها حكام دمشق تأكيدًا على أنهم «الدولة التي لا يمكن تحاشيها» في المنطقة كما أشارت إلى ذلك إدارة أوباما. كان نبذ سوريا الذي سبّبه اغتيال الحريري في عام 2005 قد انتهى فعليًّا. لم يكن بشار ذا فائدة للسعوديين. كان قد أحبطهم في لبنان وحقَّر قادتهم وكان هو كل شيء يكرهونه ـ كان مجابهًا وقليل الحياء. انتهك مبادئ الحكام ووصف نظراءه في العالم العربي بـ «أنصاف الرجال» ولكن الملك السعودي اختار المصالحة. زار بشار الرياض في أيلول/سبتمبر2009 وقام الملك عبدالله بزيارة تاريخية إلى دمشق في الشهر التالي. لم يغفر كل شيء ولم يُنس، ولكن الرغبة في فصل سوريا عن إيران تقدمت. تراجعت الرغبة السعودية في تحدي سوريا في لبنان. لم يكن السعوديون غريبين على مشاكل وانقسامات لبنان، ولكن بحلول عام 2009 تبيّن لهم أن مصالح سوريا في لبنان لا يمكن تخطِّيها. كانت رحلة بشار الأسد إلى بيروت على متن طائرة الملك في حزيران/يونيو2010 رسالة قوية إلى اللبنانيين بأن سوريا تحتفظ بالأولوية في شؤونهم. كان الوضع لصالح سوريا. وكان التغير في بلدين ديمقراطيين كبيرين لصالحهم: بدلًا من جورج دبليو بوش جاء أوباما وبدلًا من

جاك شيراك ـ صديق رفيق الحريري ومعينه الدبلوماسي ـ جاء نيكولا ساركوزي.

كانت لدى الأسد ميزات يدخل بها إلى اللعبة. وصفت برقية من السفارة الأميركية من دمشق في بداية عام 2009 مهارات المخابرات السورية ورجالها السياسيين. في 18 شباط/فبراير كانت الإدارة الجديدة في واشنطن تختبر الأوضاع في المنطقة وتتفحص مدى استعداد سوريا للتعاون في المجال الاستخباراتي.

كان المنسق الأميركي في وزارة الخارجية لشؤون مكافحة الإرهاب، دانيال بنجامين، قد جاء إلى دمشق مع مجموعة صغيرة من مساعديه. وكان مقررًا أن يجتمع بنائب وزير الخارجية فيصل المقداد. ولكن كانت هناك مفاجأة «هدية» قدِّمت إليه، كما قيل له، من الرئيس الأسد نفسه. كان الجنرال علي مملوك، رئيس دائرة المخابرات العامة موجودًا أيضًا. أشار فيصل المقداد أن وجود الجنرال مملوك ينبغي أن لا يؤخذ على أنه إشارة بأن التعاون الاستخباراتي والأمني بين البلدين قد بدأ. وعلى طريقة البازار، كان ذلك مجرد مداعبة. أشار مملوك إلى أن التعاون الاستخباراتي يجب أن ينتظر التقدم في «القضايا السياسية» بين الولايات المتحدة وسوريا. كانت هناك حاجة أميركية إلى التعاون السوري حول أمور الجهاديين الذين يذهبون إلى العراق عبر الأراضي السورية؛ السوريون سيتعاونون ولكنهم ينتظرون الانتخابات العراقية المقرر عقدها في آذار/مارس. كان بنجامين قد قام بدراسات حول القاعدة والإرهابيين الإسلاميين، وطرح وجهة النظر الأميركية حول التهديد الذي تمثّله تلك

المجموعات الإرهابية على الاستقرار الإقليمي. أشار إلى أنه على علم بأن سوريا والولايات المتحدة تختلفان حول حماس وحزب الله، وأراد أن يُفهم أن الولايات المتحدة لا زالت تعتبر هاتين الحركتين تهديدًا للسلام في المنطقة.

كان مملوك فخورًا بسجل سوريا في محاربة الإرهاب. قال، إن سوريا كانت تمارس هذا النوع من النشاط لثلاثين عامًا. ولديها سجل أفضل من الولايات المتحدة والحكومات الأخرى «لأننا عمليون ولسنا نظريين» وأفصح عن جوهر مهنته وعن الأسلوب الذي اتبعه هو وأجهزة المخابرات الأخرى في بلاده لمحاربة الإرهاب «مبدئيًا» لا نهاجمهم ونقتلهم في الحال، بل بدلًا من ذلك، نغرس أنفسنا بينهم، ولا نتحرك لفعل ذلك إلا في اللحظة الملائمة؛ قال إن عملية «الغرس» صعبة «ومعقدة». نعم، صحيح أن بعض الإرهابيين ينتقلون إلى العراق من سوريا، ولكن بإمكان الطرفين العمل على ذلك ومن المؤكد أن نتائج أفضل ستتبع. لقد عملت سوريا والولايات المتحدة مع بعض من قبل، ولكن مملوك كان لديه نظرة قاتمة تجاه العلاقة. لو أراد الأميركيون والسوريون أن يبدأوا علاقة جديدة فينبغي أن تأخذ سوريا زمام الأمور. «هذه منطقتنا ونحن نعرفها. نحن على الأرض ولذا يجب أن نقود». وعاد إلى موضوع العراق ولأسباب واضحة: عرف حاجة الأميركيين إلى عراق مستقر. قال إن الجهاديين الذين يعبُرون إلى العراق يأتون من بلدان عربية وإسلامية كبيرة، وإن سوريا تعمل المستطاع للقبض عليهم «معاونوهم المحليون» كان يريد أن يعرِّف مُحاوِره الأميركي أنه في العام الماضي فقط سلَّم أكثر من 24 من

الجهاديين السعوديين إلى الأمير مقرن رئيس الاستخبارات. كانت رسالة ماكرة وواضحة في الوقت نفسه: السعوديون كانوا أهم الحلفاء العرب لأميركا ولكن الجهاديين السعوديين هم أعداء الأميركيين في العراق.

جاء الآن دور مقداد: كان الرجل يريد «مظلة سياسية» لتعاونه حول الأمور الاستخباراتية. لا بدّ من إزالة سوريا من قائمة الدول الراعية للإرهاب وأن ترفع العقوبات الاقتصادية. وأن تتمّ عملية الصفقة بالسماح لسوريا أن تشتري قطع غيار الطائرات وخصوصًا لطائرة الرئيس الأسد (الطائرة كانت هدية من أمير قطر الذي كان آنذاك حليفًا مقربًا لبشار) أشار مقداد أن ذلك ضروري من أجل «إقناع الشعب السوري» بأن التعاون مع الولايات المتحدة يجلب فوائد لسوريا. أخبر بنجامين السوريين بأن هناك أيامًا أفضل قادمة: فبعكس الإدارة السابقة فـ «الفريق الجديد في واشنطن» لا يعتبر محاربة الإرهاب كشيء منفصل عن بقية سياسة الولايات المتحدة الخارجية أو المحرك الوحيد للسياسة الخارجية الأميركية.

يعرف نظام دمشق أحوال العالم. بلاده متخلفة اقتصاديًا والأجانب ـ وخصوصًا الأميركيين الذين يظهرون ويختفون جيئة وذهابًا إلى المنطقة ـ جاؤوا للتعاون الاستخباراتي، وللتفاوض على رهائن، وللتلميح بأن هناك سياسة خارجية جديدة تجاه المنطقة في الطريق. كرّر بشار ما كان الأسد العجوز يقوله: إن أميركا لا تملك الصبر أو العزم على المجهود المرهق في الهلال الخصيب. كان فخورًا بتجاهل تحذيرات أميركا الصارمة وتحدي رغبات أميركا ويسلم من العواقب. سيأخذ السوريون ما اضطرت

أميركا لتقديمه ولكن الأميركيين ظلوا في حيرة حول ما إذا كانت الرابطة الأساسية لسوريا مع إيران وحتى مع حزب الله وحماس لن تتم التضحية بها.

امتلأت البرقيات من السفارة الأميركية في دمشق في عام 2009 ـ 2010 بالتفاؤل بأن التقارب مع النظام سائر على الدرب. كانت الإدارة الجديدة معتمدة على الاعتقاد بأن سوريا سوف تصلح أخطاءها وصدقت البيروقراطية ذلك. ومنذ زمن مبكر في نيسان/أبريل 2009 كانت التكهنات في دمشق متفائلة: ذكرت برقية بتاريخ 6 نيسان/أبريل بأنه لم يتمّ تحقيق «اتفاق كبير» ولكن هناك «خطوات أولى إيجابية» لم يكن أحد يفكر الآن في تغيير النظام ولكن «إصلاح النظام» كان الطموح آنذاك. كانت وفود الكونغرس تقوم بزيارات متكررة إلى دمشق. الترتيبات السورية لهذه المناسبات ماهرة، بما في ذلك اللقاءات المرغوبة مع الحاكم السوري وكذلك اللقم الصغيرة جدًّا من المعلومات عن الإرهابيين والمتسللين إلى العراق. أبدى الحاكم السوري ثقة متوهِّجة. تحدث كمراقب محنك وخبير بما يجري في واشنطن. تقدم بالتمنيات الطيبة للرئيس أوباما ولكنه قطع الأمل في النظام الأميركي. إن دورة الأربع سنوات في الرئاسة الأميركية أصابته بالإحباط. يستغرق الرئيس الأميركي سنة للتعلّم من المنصب وسنة يقضيها في حملة لانتخابه مرة أخرى وسنتين فقط لإنجاز أي شيء. كان تقديم بشار لنفسه غاية في الكمال. كان تحديثيًّا وعلمانيًّا مصممًا على محاربة الإسلام السياسي. كانت زوجته امرأة حداثية، وآل إليه إرث سياسي كان حريصًا على إصلاحه. كان على حلف مع إيران ولكنه منفتح على

التعامل مع الغرب. كان والده رجل الثكنة ومساومًا بالطريقة التقليدية القديمة، وكان يتحدث عبر مترجمين وتعامل مع الغرب بتحفُّظ. بشار يعرف اللغتين الفرنسية والإنكليزية وليس غريبًا على الأساليب الغربية. الاعتدال قائم وموجود وبالإمكان إطلاق سراح المعارضين من السجون عندما يطلب ذلك الزوار الأميركيون ولكن بشرط أن يعترفوا بذنوبهم. كانت كل المقاليد بيد النظام: يستطيع إطلاق المعارضين المهمين في الوقت الذي يقبض فيه على معارضين آخرين.

هناك نجم السياسة الخارجية في الحزب الديمقراطي ورئيس لجنة العلاقات الخارجية بمجلس الشيوخ جون كيري الذي تصدّى لنظام الأسد وحاكمه. ليس سرًّا أن كيري يسعى ليصبح وزيرًا للخارجية وتولي مهمات مع بداية رئاسة أوباما. فقد أصبح حلّال المشاكل للإدارة الجديدة. وقد جاء ذلك به إلى دمشق التي زارها أربع مرات خلال عامي 2009 و2010. كان متفائلًا بإمكانية عقد صفقة مع الأسد. استطاع الحاكم السوري وزوجته جعل السناتور متحمسًا لحلمهم بسوريا مزدهرة وديمقراطية. وفوق كل شيء وعدوا بالحرص على جعل البلاد إسلامية معتدلة، وقد صدَّق كيري ذلك الوعد. كان من الصعب عليه أن يتوسط لبشار الأسد وبدّد الانفجار في سوريا ضد النظام دبلوماسية كيري. وفي الدفاع عن نفسه كان كيري يقول إنه لم يأخذ على محمل الجد فكرة بشار «كمصلح» سياسي. وأن فكرته كانت ذات طموح محدود. كان يريد أن يكتشف ما إذا كان ذلك «طريقًا» للخروج من تطرف سوريا في السياسة الخارجية. قال إن هناك آخرين ذهبوا إلى هناك قبله. وزيرا

الخارجية السابقان هنري كيسنجر وجيمس بيكر سعيا وراء سياسات مماثلة مع نظام دمشق. لم يندم على اختبار نوايا سوريا؛ وما أسف له هي الفرصة التي أضاعها بشار الأسد... وقال كيري في حزيران/يونيو2011 في غمرة حمام الدم: «إن سياسات الدكتاتور السوري المؤسفة قد ينجم عنها نهاية حكمه ولن يكون لديه من يلوم سوى نفسه».

إن الموظفين القنصليين والسياسيين الأميركيين في دمشق كانوا محترفين وعلى دراية، وكانت رسائلهم عن سرّ هذه الجهود «الحوارية» مع النظام أكثر حذرًا. ذكرت برقية بتاريخ 10 أيلول/سبتمبر2009 هذه السياسة الجديدة التي ذكرتها مرة أخرى في شهرها السادس. «في هذه الأشهر الستة، وجدنا تحركًا إيجابيًا وآخر سلبيًا من قبل حكومة الجمهورية العربية السورية. بخصوص القضايا الأساسية ـ إيران وحزب الله وحماس والعراق ووكالة الطاقة الذرية الدولية ولبنان ـ فإن موقف حكومة الجمهورية العربية السورية قد تصلّب ويشكل عددًا من التحديات. وفي الوقت نفسه، وجدنا بعض التقدُّم في تطبيع حوارنا، بين العواصم والسفارات، ونستشفّ أن دمشق حريصة على استمرار الحوار». كان السوريون في منطقة نفوذهم وباستطاعتهم أن يقدموا طُعْم إيقاف تدفق الجهاديين إلى العراق حيث إنهم هم أنفسهم مَن جنّد ودرّب العملاء لنشر الدمار في العراق.

وتوضّح في برقية أرسلت في شباط/فبراير2010 أن السجناء السياسيين قد أثاروا الشغب في ثلاث مناسبات لأن الحكومة السورية نكثت وعدها بإعطاء هؤلاء السجناء حريتهم

حال عودتهم من العراق. كان السوريون في غاية المهارة في هذا الشأن لأنه ليس هناك أي قوة أجنبية تستطيع السيطرة بإتقان على بيئة أجنبية سرية.

* * *

إن الأمر مختلف في أن يستطيع نظام بشار الأسد «أن يناور في طريقه لكسب عطف الولايات المتحدة وفرنسا، ولكن الأزمة الأشد حدة كانت على الصعيد الوطني ويمكن رؤية هذه الأزمة في الضرر الذي لحق بالسكان الذين عانوا طويلًا. كانت جمعية «رقيب حقوق الإنسان» على حق عندما وضعت العشر سنوات الأولى لبشار في السلطة كعقد ذهب هباءً. وبكل مقياس ذي قيمة فإن سوريا بلد متخلف وإن التلف الذي لحق بها من قبل الرجل العجوز الأسد قد تضاعف بكثير بسبب أفعال ابنه، فالبطالة أكثر بكثير من 20% و32% من سكانها يعيشون تحت خط الفقر. كان ترتيب البلاد 152 (من بين 165) في سلّم الديمقراطية والـ 19 (من بين 22 بلدًا عربيًا) في الفعالية الاقتصادية. الجامعات والمؤسسات الأكاديمية في تراجع. بدأ بشار عصره بإطلاق السجناء السياسيين ولكن بعد فترة قصيرة كان مشغولًا بملئها مرة أخرى. وصف ناشط سياسي ذلك لرقيب حقوق الإنسان قائلًا: «في أعوام 1980 دخلنا السجن بدون محاكمة. الآن نحصل على محاكمة ومع ذلك نذهب إلى السجن».

في منتصف العقد الأول من حكم بشار، في عام 2005، أصدرت مجموعة من ناشطي الحريات المدنية والمحامين والمنشقين الأكراد بيانًا. كما كان «إعلان دمشق» تشريحًا لتشخيص أمراض البلاد، مع برنامج الإصلاح. جاء الإلهام من

نسخ طبق الأصل للتغيير الذي تقدَّم به المثقفون والمنشقون في شرق ووسط أوروبا أثناء كفاحهم ضد الدكتاتوريات. لم يكن هناك مطلقًا ما يثير الاضطراب في «إعلان دمشق» كانت لغته ومطالبه معتدلة، ولكن في سياق الطغيان واحتكار السلطة من قبل حزب البعث والأجهزة الاستخباراتية كان تحديًا جريئًا لتلك الدولة المتحجِّرة. قال الموقِّعون إن البلاد في أزمة حادة وإن أهلها بحاجة إلى «تقييم ذاتي». لقد أبعد النظام الناس بشكل كامل عن الشؤون العامة وإن سياسته في لبنان سبّبت عزلته في الداخل وفي الخارج. «الانتهازية» و«الفكر الشمولي» سمّمت الحياة السياسية وهناك حاجة إلى «عقد اجتماعي» جديد لبناء دولة حديثة. هناك حاجة إلى «حلّ ديمقراطي» للمسألة الكردية يضمن لهذه الجماعة «حقوقًا ثقافية ولغوية. إن قوانين الطوارىء يجب أن يُلغى، وأن يُعطى «المنفيون بدون اختيار» حق «العودة بكرامة» إذا أرادت البلاد أن تبدأ صفحة جديدة في تاريخها. لقد قبضت الدولة المستبدة على الحياة السياسية والقادة الذين صاغوا هذا الإعلان يريدون حوارًا سياسيًّا مفتوحًا وتخليص «المنظمات الشعبية والاتحادات وغرف التجارة والصناعة والزراعة من سيطرة الدولة وتسلُّط الحزب والأمن».

لا يوجد هنا شيء حول الإطاحة بالنظام ولا دعوة إلى بشار الأسد ليستقيل. ولكن «الحكم المطلق» استعمل إعلان دمشق الكلمة نفسها في فقرته الأخيرة ـ لم يستطع منح تلك الإصلاحات. كان الحاكم ورؤوس المخابرات ورجال الحزب القديمين مصممين على إبقاء الوضع الذي عرفوه.

كانت سوريا تحت النظر الثاقب للقوى الخارجية في تشرين الأول/أكتوبر2005، فقط بعد خمسة أشهر من اغتيال رفيق الحريري في بيروت. لأول مرة منذ سنوات كان هناك ضغط على النظام في باريس وواشنطن. وتأثر السعوديون كثيرًا لمقتل الحريري وتفككت عُرى القواعد القديمة: عِشْ ودع غيرك يعيش والتي نفعت بين الرجل العجوز الأسد وآل سعود. نظرت دولة الأمن إلى هذا الإعلان من بؤرة الخوف من اللاموجود والعزلة. هؤلاء المنشقون كانوا من وجهة نظرها يشقون صفوف الأمة في زمن الخطر.

## الفصل الخامس

# أولاد درعا

كان لسوريا كبرياؤها الرسمية وأدت تلك الكبرياء إلى إعمائها عن العاصفة القادمة التي أثارها الربيع العربي. في نهاية كانون الثاني/يناير2011، بعد أسبوعين من سقوط الزعيم التونسي وأيام بعد أن احتل المصريون ميدان التحرير للإطاحة بدكتاتورهم ظهر بشار في مقابلة ذات دلالة مع وول ستريت جورنال. سُئل عما إذا كان ما يجري في المنطقة يسبّب له انزعاجًا فكان جوابه «سوريا مستقرة، لماذا؟ لأنه ينبغي لك أن تكون على صلة بقناعات الشعب. هذه قضية جوهرية. إذا كان هناك تشعبات.. سيكون لديك نزاع رقيق يتسبب في الاضطرابات». كان قريبًا من شعبه وقاد «مواجهة» مع إسرائيل وكان على خلاف مع الولايات المتحدة وكل هذا أعطاه مناعة ضد الاضطرابات. لن تسلك سوريا طريق مصر وتونس.

إذا لم تتضح لك الحاجة إلى الإصلاح قبل ما حدث في مصر وتونس، فالوقت متأخر جدًا للقيام بأي إصلاح. إذا أردت أن تتحدث عن تونس ومصر فنحن خارج هذا، وفي النهاية نحن لسنا تونسيين ولسنا مصريين. ولسنا نسخة من بعضنا. لقد تحدث

كمصلح شاب وأظهر نفسه كمراقب حزين للتقهقر الذي خيَّم على المنطقة ككل.

لاحظ أنه قد صارت «للتطرف» جذور بين العرب ونتج ذلك عن «قلّة في الإبداع، وقلة في التنمية، وقلة في الانفتاح» والغرب لم يساعد.

فمسار السلام الذي يتحرك منذ عام 1991 لم يتمخَّض عن أي نتائج. الأمل دائمًا يولد من الفشل. كان يتحدث باللغة المألوفة للمتسلطين المستثمرين: كان على بوابات الفيضانات، قائلًا: «نريد ماءً جاريًا ولكن كم هي سرعة الماء؟ إذا كانت سريعة جدًّا فبالإمكان أن تكون مدمرة أو قد يحدث طوفان. ولذا لا بد أن تنساب برقَّة».

لم تفلح حراسة البوابة وقد استعجل بشار في حديثه فبعد ستة أسابيع جاءت الثورة تجاه سوريا. لم يكن هناك استثنائية سورية من هذه الأزمة العربية. لا يهمّ أن بشار كان أصغر بثلاثين عامًا من الزعيم التونسي وأصغر تقريبًا بأربعين عامًا من الحاكم المصري، وبالنظر إلى الوراء، كان من المحتوم أن تظهر قافلة الحرية العربية في سوريا. هناك قبل ثلاثة عقود تفتق الرعب الرسمي عن دولة مريعة وكل ما سيراه العرب في سياساتهم كان وشيك الحدوث.

كانت سوريا الحديثة دائمًا واثقة من مكانها في المنظومة العربية أصرّ السوريون منذ زمن بعيد أن القومية العربية كانت هبتهم للعرب الآخرين، وأن المصريين والعرب الآخرين حديثون على تلك الفكرة. الأحداث في تونس ومصر وليبيا. بدون ذكر للمظاهرات في اليمن والبحرين- كرّت وزادت جرأة.

كانت هناك مقولة في دمشق كتبها حافظ الأسد: الكفاح ضد إسرائيل يعلو على كل الأمور. قال لي رجل من طبقة السياسيين العراقيين: كان لدى الرجل خيار: يمكن أن يكون بطلًا عربيًّا ضد إسرائيل أو طاغية علويًّا. كان الاختيار سهلًا، والدرس أوصله إلى وريثه المخلص. دعهم يأكلون «ضد الصهيونية» كما علم من الميراث. أخبر الشباب أن رغبتهم في الخبز والحرية والفرص وحلمهم بعالم خارج أسوار السجن الكبير الذي شيّده النظام يجب أن تنتظر حتى تُرفع الأعلام السورية على مرتفعات الجولان.

ولكن المتظاهرين، الذين هزموا خوفهم وعدم الثقة وكانوا مستعدين لتجاوز ذكريات حماة المؤلمة ووحشية أعوام 1980، كانوا يقرأون من كتاب جديد.

بلد جديد يستيقظ من سبات طويل. عندما أتى آل الأسد إلى سلطتهم قبل أربعة عقود كانت سوريا في معظمها مجتمعًا ريفيًّا وعدد سكانها ستة ملايين والآن أصبحت البلاد حضرية وتصاعد عدد سكانها ليصبح 22 مليون نسمة وهذا يعني أن 16 مليون إنسان لم يعرفوا أي حكام غير آل الأسد ودولتهم الأمنية.

وهؤلاء السكان صغار إلى درجة الخطر: 50 في المائة تحت 19 عامًا من العمر و57 في المائة من الناس تحت 25 عامًا من العمر دون عمل.

لو كان التاريخ يعيد نفسه فإن هذه الثورة ستنفجر هذه المرة في حماة ـ المدينة التي تنتقم بسبب ما تحمَّلته لثلاثة عقود مضت والإهمال الذي قاست منه في تلك السنين الماضية. حمص، المدينة التوأم لحماة في السهول الوسطى، والتي كانت

أكبر وبها سنيون وعلويون ومسيحيون مع بعضهم البعض قد تكون منافسة أخرى.

ولكن التاريخ لا يتوقف أبدًا، إن النظام الذي تخلق في الريف ودفع من قبل طموح وضغائن رجال هامشيين سوف يواجه شبيهه بعد نصف قرن تقريبًا في الريف ذاته. القاص في رواية خالد خليفة الرائعة «دفاتر القربات» والتي نُشرت عام 2010 تروي عن ابن عمه، أحد مسؤولي حزب البعث الذي ترك قريته التعيسة شمال حلب من أجل وظيفة سياسية في العاصمة. كره ابن العم القرية وكان لا يستطيع الصبر من أجل الابتعاد عنها. لقد بصق على حجارتها عندما غادرها وحلف أن لا يعود إليها أبدًا.

يتذكر معاصروه أنه لم يحضر جنازة أمه، وأتى بعد عشرة أيام ومكث مساءً واحدًا ليتلقى التعازي الباهتة من أهل قريته وغادر مسرعًا إلى عمله في العاصمة التي لم يعرفها أحد من القرية أو يعرف عنها أي شيء، عاد إليها مرة أخرى ابن العم هذا لأن الحزب استحدث مقعدًا في البرلمان لمكان مولده، تحدث إلى القرويين في اجتماع مقفل حول الانتصارات العظيمة للحكومة، وعن اهتمامها المكرس بالجماهير وعن الإقطاعيين والرأسماليين السابقين الذين أرادوا تدمير البلاد وتحويلها إلى أراضي قاحلة تقتات عليها الغربان وتستقل من قبل الانتهازيين. ووضع تأكيدًا خاصًا على كلمة «انتهازيين» كانت تلك الكلمة غريبة على سامعيه وظنوا أنها مرتبة حكومية عالية وأرادوا أن يطمح أطفالهم إليها «كان ذلك ما اعتبر حملة سياسية، والانتخابات مجرد رسميات مُتلاعب فيها. وذهب ابن العم مرة أخرى».

كانت درعا، المركز الإداري لسهل حوران الزراعي قريبًا من الحدود مع الأردن، هي الأولى التي تحركت.

ثم كانت هناك دير الزور في الشرق وبانياس على الساحل. هذه وغيرها من المدن المهملة كانت حاضنات حزب البعث والنظام الذي أنتجته (يقول أهل دير الزور إن بشار الأسد زارهم في عام 2008 في أول زيارة رئاسية منذ الاستقلال).

قدمت المجموعة العالمية للأزمات تحليلًا ذكيًا حول نشوء الثورة (من التناقض أن النظام نشأ في المقاطعات نفسها التي تثور عليه اليوم. في أعوام 1950و1960 وجد الفلاحون والبرجوازيون الصغار الجيش وحزب البعث أدوات للترقي الاجتماعي. جاؤوا من مناطق هامشية مثل حوران وساحل البحر المتوسط أو دير الزور، وتمكنوا في النهاية من أن يقلبوا الأمور ضد نخبة شبه إقطاعية احتكرت السلطة السياسية وملكية الأرض ورأس المال والشرعية الدينية. وبانقلاب عام 1963 تمّ التغلب على المركز الرئيس للسلطة من قبل مناطق الأطراف.

ولكن أوردة النظام قد تصلبت. كان محيط النخبة الجديدة هو القصة المألوفة كثيرًا حول كيفية تصرف أولئك الذين كانوا إلى ذلك الوقت مستثنين بعد أن يتسنموا مناصب في سلطة جديدة.

كان هناك الضباط العلويون الذين ازدهروا في سوريا الجديدة ولا يشاركون في غنائمهم التي كنزوها حتى إخوانهم في الدين. نشأت شراكة بين الضباط العلويين في الجيش وقوات الأمن وطبقة التجار السنيين. استفاد أبناء القادة الكبار من تلك العلاقة بشكل خاص.

كان أولاد السلطة كما كانوا يُدعَون، هم في الواقع أبناء النظام، لاحظت المجموعة العالمية للأزمات أنه «مع مرور السنين، نسي النظام جذوره الاجتماعية وأخذ يبعد نفسه بشكل متزايد عن مناطق الأطراف التي جاء منها» اتسعت الفجوة بين المدينة والريف عندما فقد النظام اهتمامه بالمقاطعات الريفية، اقتصر وجود الدولة في حياة الأقاليم المهملة على الوجود الابتزازي وممارسات النهب من قبل قوات الأمن وهذه ليست أبدًا مكونات حياة طبيعية.

قام اثنا عشر ولدًا تقريبًا من مدينة درعا الداخلية في بداية آذار/مارس، بكتابة بعض الخربشات ضد النظام على الجدران. كان هناك هتاف جذّاب ينتشر بإغواء في البلدان العربية. كان الهتاف حول رغبة الناس في إطاحة النظام له صبغة غنائية وضخّمته النشرات التلفزيونية وانتشر في مصر والبحرين واليمن وليبيا. والآن هذه القلة من الأولاد أعمارهم بين 10 إلى 15 عامًا أتوا به إلى أكثر البيئات تسلطًا وهي الدكتاتورية السورية.

على مشارف درعا، كانت هناك قاعدة عسكرية يسكن بها الضباط العلويون وعائلاتهم، وكان حضور الدولة في حياة أهل درعا يتمثل في تواجد الجيش وقوات الأمن. اعتُقل الأولاد وعندما ذهب شيوخ وأعيان هذه المدينة للاستفسار عنهم عوملوا بازدراء، وقيل لهم انسوا أطفالكم. اذهبوا إلى بيوتكم وأنجبوا من جديد وإذا كنتم لا تستطيعون فنحن نستطيع أن نرسل إليكم رجالًا يستطيعون إنجاب أطفال جدد. وعندما أعيد الأولاد إلى أهلهم تبين أنهم اغتصبوا وعُذِّبوا. انتفضت درعا وأصبح مسجد المدينة الرئيس، المسجد العُمري مكان التجمُّع لموجات من المتظاهرين.

كان عدد الضحايا في ازدياد سريع، وفوجئ النظام وأصبح مصممًا على إنهاء الاضطرابات في مهدها. بدأت قوات الأمن بالمدافع المائية وبعد ذلك مباشرة تلقوا أوامر بالقتل وأصبحوا يطلقون النار على المتظاهرين ومسيرات الجنائز سوية. ظهر القناصة في درعا وكثير من الضحايا تعرضوا لجروح في الرأس والرقبة والصدر. أصبحت درعا تحت الحصار. لقد عوقبت على خرق صمت البلاد. لم يكن يهمّ قوات الأمن أن أعدادًا لا تحصى من المتظاهرين كانوا يحملوا أغصان الزيتون ويفتحون قمصانهم ليبرهنوا على أنه ليس لديهم أسلحة ويهتفون «سلمية سلمية» وعانت درعا نقصًا حادًّا في الطعام والماء والدواء. وقطعت اتصالاتها مع العالم الخارجي. وعندما أرسلت مدن أخرى أناسًا لمساعدة درعا تمّت مهاجمتهم أيضًا وأطلقت قوات الأمن النار على أفراد العناية الطبية الذين كانوا يحاولون مساعدة الجرحى. وبعد أربعة أسابيع من الحصار منع الأذان. سيطر رجال الأمن على المساجد واستبيحت. كانت هناك قوارير مشروبات كحولية فارغة وعلى جدران عدة مساجد كانت هناك كتابات تهزأ بالدين، وكان أشدها تدنيسًا وأكثرها إيذاءً للمؤمنين «إلهكم بشار» «لا إله إلا بشار» واستنتج أهل درعا أنه لا يمكن لجندي مسلم أن يتمادى إلى ذلك الحد. هؤلاء الذين فعلوا ذلك خوارج علويون والمساجد لم تكن لهم ليحترموها. وكانت الأيام العشرة الأولى هي الأكثر دموية وقد سقط من أهلها 200 شخص على الأقل.

أصبحت درعا قدوة. لقد أخجلت وولّدت الحسرة لمدن أخرى. رفعت بانياس واللاذقية وإدلب وطرطوس راية الثورة.

لم تنفع هتافات «سلمية سلمية» ففي نهاية أيار/مايو حسب تقدير منظمة «مراقبة حقوق الإنسان» قتل 887 شخصًا من بينهم 418 في درعا لوحدها. هذه المنطقة الإقليمية الراكدة دفعت ثمن تحديها. بيّن مجرى الثورة مدى ما كان عليه النظام من الغفلة عن التغيرات التي انهمرت على السكان. أخبر مسؤول من داخل النظام «المجموعة الدولية للأزمات» «أن بعض رجال الأمن القائمين على تسيير هذا الجهود متخلفين 30 عامًا عن الزمن، ويعتقدون أن بعض الأساليب التي اتُّبعت في أعوام 1980 ما زالت مناسبة». لم يكن المتظاهرون يعانون في عزلة لوحدهم حيث غيَّرت التكنولوجيا قواعد هذا الصراع. وأضاف المصدر الداخلي في النظام بأن «كل سوري معه تلفون نقال يستطيع أن يجعل من نفسه مذيع محطة تلفزيون فضائي، فكيف نلجأ إلى تلك الأساليب ونحن نواجه 24 مليون تلفزيون فضائي في وسطنا؟» كانت قوات الأمن متدربة على الطرق القديمة للقمع، ولا يمكن «إصلاحهم» وتغيير مفاهيمهم في وسط المعركة. لقد كان النظام أبلهَ، فقد أرسل إلى الشوارع مظاهرات «نحبك» تمجِّد الحاكم ولكن لم يكن هناك أحد يصدق أو ينجذب إلى تلك الاستعراضات للولاء المزيف.

وكعادة الأنظمة التي تفاجئها الأحداث وهي غير مهيئة، فقد مارست الطبقة الحاكمة الوحشية وقدمت الوعود بالإصلاح في عملية تبادلية مرة بعد مرة، وبطريقة متشنجة من إصدار المبادرات الإصلاحية الرسمية عن الحاكم مثل رئيس وزراء جديد بينما البلاد تعلم أن رئيس الوزراء ليس لديه أي سلطة حقيقية. فلتهدئة الأكراد، كان هناك وعد لتحويل النيروز عيدًا

وطنيًّا كما كان هناك وعد بإعطاء الغالبية السنية تنازلات، وهكذا أعلن النظام الأكثر علمانية بين الأنظمة تدشين قناة تلفزيونية إسلامية، وفي مدينة بانياس التي استفزت بعد إقالة 1200 من مدرسات وموظفات المدارس اللواتي لبسن الحجاب، تمّ إعادتهم إلى وظائفهم.

كان النظام يتجه نحو مصاعب اقتصادية مخيفة ومع ذلك أثيرت مسألة زيادة الرواتب وتعزيز الإعانات ورفعت أسعار مناقصات القمح لكسب دعم الفلاحين. كانت هناك خطط جاهزة لتخفيض إعانات الوقود الغالية ولكنها الآن وضعت جانبًا. كان هناك قانون للطوارئ ساريًا منذ عام 1963. كان هذا أسلوب حياة وليس مجرد مرسوم موقت - وقد رفع الآن. إن الإرهاب الحقيقي ليس مكتوبًا وتطبِّقه قوات الأمن والدبابات وطائرات الهليكوبتر ضد السكان.

إن رفع قانون الطوارئ لا قيمة له بالنسبة إلى الرجال والنساء العاديين الهاربين للنجاة بحياتهم إلى البلدان المجاورة عندما بدأت المشاكل، فقد كان من المعقول للقائمين على النظام أن يفترضوا بأن لديهم قدرًا من التعاطف تجاه الرجل الذي هو على رأس النظام.

لم يكن الحاكم سيئًا بشكل خاص حيث إنه بقي بعيدًا عن الصراع. قيل إن الدكتور بشار سوف يمنع المشاكل.

بينما كانت العاصفة تقترب، ألقى بشار ثلاثة خطابات - في 30 آذار/مارس، و16 نيسان/أبريل، و20 حزيران/يونيو. ألقى الخطاب الأول أمام برلمان متزلِّف وأظهر بشار مدى عزلته عن الواقع. كان في خطابه إعجاب بالنفس وغرور يتعلق

بنظامه، جعلها الصراع الذي بدأ يظهر على السطح تبدو أكثر حماقة. نظر إلى أبعد من سوريا، قال إن «الوضع العربي» برّأ سوريا وسياساتها. قال إن سوريا مثال يُحتذى وقد رُفضت أن تُستعبد. سوريا ليست كباقي البلدان، فلها «خصائص» في سلوكها الداخلي يميّزها عن البلدان المجاورة، وسوف تستمر في طريقها «اليوم نرى ظاهرة يسمونها ثورات. ونحن لا نسميها بذلك لأننا نعتقد أن ذلك على الأغلب حالة عامة» هناك احتياجات لم تُلبَّ في سوريا، ولكن النظام ماضٍ في طريقه لمعالجتها. «لقد تغلبت الفتنة على السعي للإصلاح لأن سوريا في عين هدف المؤامرات. «التحريض» جاء من الخارج «معلومات ملفقة وأصوات وصور... إلخ زيّفوا كل شيء» كان المتآمرون المجهولون ماهرين، استخدموا «العنصر الطائفي»، أرسلوا أناسًا ملثّمين إلى أحياء ذات طوائف مختلفة تعيش سويةً، يقرعون أبواب الناس ويخبرون كلًّا منهم أن الطائفة الأخرى قد بدأت في الهجوم وأنهم في الشوارع وذلك من أجل الحصول على ردّ فعل. ونجح ذلك فترة ولكنّا تمكنّا من إطفاء الفتنة في مهدها ... ثم بدأوا يستخدمون السلاح. بدأوا يقتلون الناس عشوائيًّا لأنهم يعلمون أنه إذا كان هناك دم يكون من الصعب حلّ المشكلة. لم يكتشف بعد الهيكل الكامل للمؤامرة، ولكنها كانت «غاية في التنظيم» ومرتبطة ببعض «بلدان خارجية» لقد أعطيت الأوامر إلى قوات الأمن بأن لا يؤذوا أي مواطن سوري ولكن الأمور انقلبت إلى الشارع وسفك الدم السوري. إنه قدر سوريا أن تُبتلى بالفتنة والأزمة في هذا الوقت.

ظلَّ العالم العربي في «وضع منهار وخنوع لأميركا» لقد

قاومت سوريا المشروع الأميركي وكان الثمن هذه الاضطرابات، كانت الإصلاحات ماضية وظهرت من الداخل، ولا تعكس «الموجة الجديدة التي تجتاح المنطقة» حاول نظام بشار أن يتعلم من تجارب البلدان الأخرى. قال إن تونس كانت مقيدة، تأمَّل نظامه في التجربة التونسية وتعلم «أن التوزيع الجغرافي غير المتوازن للثروة» كان مصدرًا كبيرًا للمشاكل ولكن سوريا بذلت أقصى الجهود لتحاشي هذا الخلل. قد تكون هذه الأزمة نقمة متنكرة.

سوريا الآن تُمتحن وسوف تنتصر، إن هذه الفتنة لن تؤدي إلى خضوع هذا البلد الفخور «القرآن الكريم يقول»: ﴿وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾(1) وندعو الجميع لدفن هذه الفتنة دفاعًا عن الوطن.

لم يُعرف عن بشار تقواه الدينية وهذا الاستشهاد من القرآن كان لأزمان طويلة مفضلًا لدى السلاطين والحكام عندما يواجهون ثورات.

كان الخطاب فاشلًا وعرف رجال النظام ذلك فبعد أسبوعين حاول الحاكم مرة أخرى. كان موضوع الخطاب الجديد هو «الكرامة» أفاد بأن سوريا مدينة لأهلها بالكرامة في سلوك مسؤوليها وفي أداء الاقتصاد، إن الدم الذي أريق على مدى الأربعة أسابيع الماضية كان دمًا سوريًا. لقد أصابه الغم من الفقدان وقال إن الذين سقطوا ـ مدنيين ـ وقوات أمن وجيش ـ كلهم سوية «شهداء»، كانت هناك وزارة جديدة وسوف تستغرق بعض الوقت لإتقان مهامها، ولكن أوكلت إليها مهمة: إلغاء

(1) سورة البقرة، الآية 191.

قانون الطوارئ الذي كان ساري المفعول منذ عام 1963، وصياغة قوانين تسمح وتشرِّع حقوق الاحتجاج المدني والمظاهرات ـ وكان ذلك دليلًا على الرغبة في الإصلاح. كان هناك معضلة: عندما تصنف تلك القوانين، فلن تكون هناك حاجة إلى المظاهرات لأن الشعب السوري بطبعه «شعب متمدن ومنضبط ويكره الفوضى والبلطجة».

إن «مجال الحرية» سوف يوسَّع في الأيام القادمة وستقدِّم سوريا ردًّا «جوابًا تاريخيًّا على أولئك المستشرقين الذين كتبوا الكثير الكثير عن العرب في الماضي وقالوا إن هذه المنطقة بسبب تركيبتها غير قادرة على التطور الديموقراطي» وأضاف «إن احتياجات الشعب السوري لا حدود لها، المواطن العادي يرى عدالة وطُرقًا وماء وتنمية وعناية طبية وتعليم» كان هناك الكثير من الشباب الذين في حاجة للعمل وهناك نسبة المواليد العالية في البلاد وكل هذه تحديات هائلة. كما أن البلاد مرت بأربع سنوات جفاف وعانى القطاع الزراعي والريف من جرّاء ذلك.

إذا كان موضوع الخطاب الأول هو المظاهرات التي حيكت للبلاد، فإن هذا الخطاب الثاني كان قائمة غسيل حول ما تعاني منه البلاد داخليًّا ـ الفساد، «الحكومة الإلكترونية» اللامركزية والتواضع المطلوب من المسؤولين الحكوميين في التعامل مع المواطنين «المصلح» والتحديثي، ورئيس الجمعية الوطنية للكمبيوتر ورئيس الموظفين المحترفين، الدكتور بشار قد عاد. وفي الشوارع، كانت الأمور أكثر سوءًا. لقد ورث القمع ولكن كان ذلك رضوخًا للواقع واعترافًا بأن خطابه قبل أسبوعين كان غير مُجدٍ.

في خطابه الثالث في 20 حزيران/يونيو ـ أصابه النحس من سابقة حسني مبارك الذي ألقى ثلاثة خطابات قبل أن يُسدل الستار عليه ـ والذي ألقاه في جامعة دمشق. اختفت تلك النبرة المصقولة المعقَّمة في الخطاب الثاني. كان هناك تمردٌ دامٍ وكان لا بدّ أن يتحدث عنه. عاد إلى موضوع المؤامرات التي تُحاك ضد البلاد. «المؤامرات مثل الجراثيم تتكاثر في كل لحظة». قال إن هناك ثلاثة أصناف من الناس في الشارع، أولئك الذين لديهم احتياجات مشروعة، وخارقي القانون، والذين لديهم أيديولوجية متطرفة كانت قد واجهتها البلاد لعدة عقود. لجأ إلى الدِّقة، وقال إنه فوجىء عندما عرف أن أولئك المطلوبين للعدالة «أهل الفتنة» بلغ عددهم 64000. وقد مثَّل هذا العدد تحديًا كبيرًا للحكومة ولكن الحكومة لن تقوم بأي عمل انتقامي. سوف يكون هناك تمييز عادل بين المتظاهرين والمخرِّبين. وقد وجد المتظاهرون، وسط هذا الزمن المظلم، قدرة على الهرج والفكاهة، فقد ركَّزوا على الحديث عن الجراثيم. كُتِب على إحدى الرايات بأن الشعب السوري بحاجة إلى طبيب جديد. كان هناك طاغية من قَبل، القذافي في ليبيا، والذي نعت شعبه بجرذان، وجعل من ذلك رابطًا مع الصراع. «الجراثيم السورية تحيِّي الجرذان الليبية». كما كُتب على راية أخرى.

لقد سيطر الواقع على الخطابات. اكتسب بشار لنفسه الآن لقب سفّاح. لو كان هناك أمل أن يبتعد الحاكم عن المذابح ويتعداها وينقذ نظامه، فإن ذلك الآن من الماضي. إن التميز بين الأسد الأب والابن يتلاشى الآن.

لدينا صورة بسيطة وغير منمَّقة عن بداية الثورة في مذكرات

أحد الشباب المشاركين في المظاهرات في مدينة بانياس الساحلية. كانت المدينة المسرح الثاني للمشاكل بعد درعا. لقد تظاهرت تلك المدينة ضد وزارة التعليم التي فصلت عددًا كبيرًا من المدرِّسات والموظفات اللواتي تحجّبن. كانت هذه المدينة مختلطة في منطقة علوية، حيث يكوِّن العلويون نسبة 65 في المائة من السكان. جرحت مشاعر السُّنة بسبب منع الحجاب. كان هناك أمر آخر: كانت هناك مصفاة بترول كبيرة احتكر العلويون كلّ الوظائف الموجودة فيها وجذبوا إليهم علويين آخرين من أماكن أخرى كحمص. كان في بانياس شاب سني وواضح، الشيخ أنس العيروط، الذي كرَّس طاقاته وقياديته للثورة ضد النظام. قالت السلطات إن العيروط هو «رأس الفتنة».

تبدأ مذكرات هذا الشاب المتظاهر بليلة 2 نيسان/ أبريل بعد فترة قصيرة من بداية الثورة. كان الوقت بعد منتصف الليل وكانت الكهرباء وجميع وسائل الاتصال مقطوعة. وسيطر الرعب على المدينة تحسبًا لهجوم قوات الأمن. خرج هذا المتظاهر من منزله ومشى في الشوارع حيث هناك آخرون يفعلون الشيء نفسه. كان التفكير في حماة 1982 مسيطرًا على أذهان الكثيرين خلال تلك الليلة المليئة بالقلق.

بعد صلاة الفجر، بدأ مجنّد سابق من الجيش باستطلاع سريع لشوارع المدينة وعاد ليخبر حراس الحواجز الموقتة ونقاط التفتيش أنه لا أثر للشبيحة. أزيلت بعض الحواجز ولكن السكان بقوا في الخارج. في الخامسة صباحًا بدأ الهجوم. كانت هناك سبع سيارات مليئة برجال مسلحين اخترقوا المدينة بسرعة كبيرة وكانوا يطلقون النار عشوائيًّا على المنازل والمساجد. جُرح عدد

من الناس وتوفي شخص بعد أسبوع في المستشفى حيث أصبح «أول شهداء بانياس». ردَّ أهل المدينة بالمثل أو حاولوا. أطلقوا النار على المهاجمين من بنادق صيد وأسلحة قديمة. لا يعلم صاحب القصة إذا كان قد أصيب أحد المهاجمين أم لا. تعطَّلت اثنتان من السيارات وتمّ سحبها إلى ميدان وسط المدينة وأُشعلت فيها النار. وعلى إحدى السيارات كتب المتظاهرون، «تذكروا، أنتم في بانياس وليس في إسرائيل».

وبحلول العصر، بدأ الشبيحة وقوات الأمن يتقاطرون على الحي العلوي على مشارف المدينة. وفجأة ظهرت وحدة من الجيش النظامي من حوالي مائة شخص. وبناءً على أوامر رئيسها الكولونيل، بدأ الجنود يطلقون نيرانهم من داخل الحي العلوي ومنطقة سكن السنّة القريب.

وتحت غطاء الحماية من وحدة الجيش، صعد قناصة الشبيحة وقوات الأمن إلى سطوح منازل الحي العلوي.

استمر ذلك إلى بداية المساء. قيل لصاحب القصة من مصادر موثوقة إن الكولونيل أطلق النار عن قرب على ستة من جنوده لعصيان أوامره؛ ثلاثة منهم ماتوا مباشرة.

قُتل ضابط من الجيش أثناء القتال وفَقد آخر ساقيه عندما رمى مقاتل شاب من بانياس أصبع ديناميت داخل سيارته المصفحة. ويخبرنا صاحب القصة، في تفاصيل ذات دلالة، أن الضابط الذي فقد ساقيه قد شوهد على التلفزيون بعد وقت قصير من الهجوم. وبلهجته العلوية التي لا تخفى على جميع السوريين، اعترف الضابط بقوة أعصاب أنه قتل الشاب الذي هجم على المصفحة وفتح بابها ووضع الديناميت في داخلها قبل أن يلوذ

بالفرار. في المساء، أصبح الحيّان العلويان في بانياس، القور ولاقوز مهجورين تمامًا. لقد هرب سكانها إلى جبل قريب. حاول بعض ذوي المقام من رجال بانياس الذين لهم أيضًا علاقات مع النظام، أن يفاوضوا لأجل اتفاقية سلام نيابة عن المدينة. اتفقوا على أن يغادر الشبيحة وقوات الأمن المدينة وأن يحلّ الجيش النظامي مكانهما. انسحبت قوات الأمن آخذين معهم أثاث مركزهم - وفي الصباح وصلت وحدة صغيرة من الجيش وجمعت أجساد الجنود الثلاثة الذين قتلهم الكولونيل. ثلاثة جنود جرحى أخذهم شباب بانياس إلى المستشفى للعناية بهم.

في صباح 3 نيسان/ أبريل، أحاط الجيش بانياس، وعندما حاولت بعض الدبابات الدخول إلى المدينة خرج الناس متظاهرين فانسحبت الدبابات. حاصرت الشبيحة وقوات الأمن المدينة وقطعوا عنها المؤن وقبضوا عل كلِّ مَن وقع في شباكهم، الأمر الذي شلّ الحياة العامة والتجارة. أُقفلت المباني العامة ومكاتب البلدية؛ معظم الموظفين كانوا علويين وكانوا قد تركوا المدينة. كانت المدارس مقفلة، ودبَّ الرعب في الكثير من العوائل السُّنية كذلك محاولين الخروج من خلال مناطق التفتيش تحت إمرة قوات الأمن.

أنبأت بانياس بمسار هذه الثورة: الأحياء مقسَّمة على أساس طائفي، والعلويون الذين أداروا المدينة هجروها إلى أمان الجبل، أثارت قوات الأمن المشاكل بين الطوائف. وسيكون الشأن السوري أكثر خطورة من الثورات العربية الأخرى.

## الفصل السادس

# أشباح حماة

كان لدى المتظاهرين المتراصين ضد نظام بشار الأسد إحساس بما هو قادم. سموا مظاهرتهم في يوم الجمعة 29 تموز/يوليو: صمتكم يقتلنا. قيل إنهم كانوا يعنون بذلك مدينتَي حلب ودمشق اللتين ظلَّتا حتى ذلك الوقت بمعزل عن الثورة بينما دفعت مدينتي حمص وحماة ثمنًا غاليًا لتحدّيهما. ولكن المتظاهرين لم يخفوا أنهم كانوا أيضًا يقصدون جامعة الدول العربية، فقد حملوا توابيت مكتوب عليها اسم الجامعة. وكان من حقهم أن يضيفوا قوى من خارج العالم العربي، حيث إن النظام في دمشق أسرف في القتل بدون أن يدفع ثمنًا لذلك.

يوم الأحد بدأ النظام هجومه، وذلك قبل يوم من بدء شهر رمضان المبارك وكان الحكام والمتظاهرون يستعدون لشهر من الاضطرابات (الهياج) (الغليان)، قُتل الكثير في أنحاء البلاد. قدَّرت الجمعية السورية لحقوق الإنسان أن 120 شخصًا على الأقل قد قُتلوا في أكثر يوم دموي منذ أن بدأت الثورة قبل خمسة أشهر. وكنذير شؤم لِما هو آتٍ، ففي ساعات الفجر الأولى دخل الجيش وقوات الأمن مدينة حماة. أشارت الأخبار من المدينة أن هناك جثثًا ملقاة في الشوارع. ولأسابيع كان

يُعتقد أن المدينة محظورة بسبب التاريخ الدموي بين حماة والنظام. كان هذا في عام 1982 حيث وسم الحاكم العسكري حافظ الأسد حُكمه بوحشية مميزة وطائفية. تمرَّد الإخوان المسلمون هنا وكان التمرد مصيره الفشل. كان الرجل الذي على رأس السلطة مصمِّم على القتال حتى النهاية. لقد جرَّ الإخوان هذه المدينة المأهولة بالحرفيين وأصحاب الدكاكين إلى صراع لم تكن لتستطيع الفوز فيه. تمترس المتمردون في سراديب المدينة القديمة ولكنهم لم يُرحَموا. وكان الهلاك مصير ما بين 20,000 إلى 30,000 إنسان وآلاف اختفوا. وفي الواقع فإن كل عائلة في حماة كان لها ثأرها الخاص ضد الدكتاتورية.

المدن تلِدُ الأساطير، ونظرت حماة إلى العالم خارج حدودها بعين حاقدة. وصف الرحّالة الأجنبي، روبن فيدن حماة في كتابه «سوريا: تقييم تاريخي (1946)» كمدينة «الإيمان والإقطاع». «كان حضور الغرب أقل ما يكون هنا من أي من المدن الأخرى الكبيرة في سوريا. طغى الإسلام على مزاجها وكيَّفه، وقد يكون هناك أماكن قليلة خارج المدن المقدسة في جزيرة العرب حيث العقيدة في تشدُّدها وتطرفها كما في حماة. حتى موقع المدينة فإنه يرمز إلى انغماسها في الإسلام والماضي. يأكل العاصي طريقها ـ ليس هناك جملة أخرى لوصف ذلك ـ يأخذ طريقه ويخترق السهول الجافة وتعرجات النهر التي تحجبها الجروف والمنحدرات العميقة. حماة واقعة على النهر ولذا فهي في عالم غائص». الإقطاع ـ حيث أربع عوائل امتلكت أكثر الأراضي الزراعية وسيطرت على الحياة الدينية - سيمزَّق تمامًا في السنوات القادمة. ثوار حماة أنفسهم

سيشتركون في ذلك التدمير لكل أنماط السلطة والسيطرة. حكم العوائل الأربع سيحطَّم مع بداية أعوام 1960. ولكن بقيت العقيدة متخوفة ومتأهّبة للصراع تتربَّص في توجس بالدخلاء الذين يحملون إخلالًا جديدًا بطرق الحياة المستقرة.

لم تكن مذبحة عام 1982 أول مواجهة لحماة مع المشاكل. قبل جيل من ذلك التاريخ في العام 1964 وذلك بعد سنة من تولي حزب البعث للسلطة، ثارت حماة متحدية النظام البعثي العسكري رافضة لكلِّ ما له علاقة باشتراكية البعث وعدم احترامه للإسلام ومكانته في الحياة العامة. إنّ المكانة المميزة للأقليات ـ العلويين، والدروز، والإسماعيليين ـ من ذلك النظام وضعه في مسار تصادم مع الإخوان المسلمين والمتعاطفين معها من الحمويين. شُلَّت المدينة بعد إضراب طويل عام، وتحصَّن ناشطو الإخوان في أكبر مساجد حماة ثم أطلقت المدافع على المسجد واحتدمت الثورة. ولكن جذور الإخوان المسلمين كانت عميقة في حماة وكان هناك مشاكل متقطعة في السبعينيات.

عندما انفجرت المظاهرات في آذار/مارس2011، انتظرت حماة وتخلَّفت عن الموجة الأولى من الاضطرابات، كانت مدينة مسكونة بالأشباح بالنسبة إلى الحكام وأهل حماة على حدٍّ سواء.

بالنسبة إلى بشار، استرجعت حماة شبح والده والوصمة الذي ربطته به. لا شك أن بشارًا مدين بكل شيء له. لقد ورث بكل المقاييس ما يمكن أن يُعتبر مملكة خاصة، لقد بناها والده بصعوبة بالغة ـ بالمكر والإرهاب جنبًا إلى جنب. ولكن بشارًا كان يطمح إلى شيء جديد: عباءة الإصلاح والحلم بتغيير هذه

الدكتاتورية القائمة. ولكن المشاكل أتت إلى حماة حيث لا مفرّ من ذلك. في يوم الجمعة 22 نيسان/أبريل، أي بعد شهر من بداية الاضطرابات، بدأت أول المظاهرات الكبيرة في حماة. هذه قلعة عامّة السنّة ورابع أكبر مدينة في البلاد. في 3 حزيران/يونيو، اصطدمت قوات الأمن مع المتظاهرين الذين نزلوا في شوارع حماة وقُتل نحو 70 شخصًا. اختبر النظام قوة احتمال حماة وفجأة انسحب كما لو كان قد صادف أشباح الدماء المسفوكة في تلك المدينة ورموزها. وقامت الحكومة بعمل اختفائي حقيقي. تركت حماة لتُدير شؤونها وسارعت مجالس الأحياء لتملأ الفراغ وتذوَّقت المدينة حلم الاستقلال ونصبت مناطق التفتيش والحواجز استعدادًا لمعركة أخرى مع الحكومة. في 8 تموز/يوليو، أقامت حماة أكبر مظاهرة في تاريخ الاضطرابات إلى ذلك الوقت وهيّأت استقبالًا عظيمًا للسفير الأميركي روبرت فورد الذي قَدِم إلى هناك بصعوبة. حيَّت الزهور وأغصان الزيتون المبعوث الأميركي والذي أتى مع السفير الفرنسي ليُشير إلى ما يمكن اعتباره قطيعة مع نظام الأسد.

لم يكن مقدَّرًا لذلك السلام القلق بين المدينة الثائرة والحكام أن يدوم. شهد الشهر السابق معارك دامية في حمص، تلك المدينة الأخرى في السهول الوسطى. والآن رُفعت تلك «الحصانة» التي أعطيت لحماة، حيث النظام مصمِّم على استرداد السيطرة التي فقدها. كانت حماة أكبر من أن تتخلى عن الثورة. وإبان الهجوم والإحباط المتصاعد الذي حلَّ بالنظام ورغبته في استباق العصيان الذي يَعِدُ رمضان بجلبه معه، خيَّم

المأزق الديني، من النظام العلوي والمعارضة التي غالبيتها سنية، على الثورة. كانت طقوس رمضان، كصلوات المساء بعد الإفطار والتجمع في المساجد في الليل بعد حرارة أيام الصيف كانت فقط تعني مشاكل أكبر. ولكون العلويون علمانيين متزمتين حيث إنهم انشقاقيون بدعيون وخارجون عن ملة الإسلام السُّني العام، فقد بدأ النظام الآن يبحث عن غطاء إسلامي. بدأت محطة تلفزيون فضائية جديدة، «نور الإسلام» تبث مواد دينية خالصة تنشر رسالة النظام الهادفة للطاعة السياسية ـ الدينية وتتحاشى الأمور السياسية. جُنِّدت المؤسسة الدينية الهادئة التابعة للنظام لإعطاء مواعظ حول فضائل الطاعة، وأعلن وزير الأوقاف الدينية محمد عبد الستار السيد، بأن شهر رمضان سيؤذن بالتأكيد «ببداية النهاية» للمظاهرات وأن «الأزمة انتهت ولن تعود». والأهم من ذلك أن رجل الدين الأعلى محمد سعيد البوطي، والذي مقرّه في الجامع الأموي بدمشق الذي هو أعظم مساجد سوريا وأجلُّها، أوكل إليه ما قد يكون المهمة المرَّة التي يجب أن يقوم بها: أن يعطي موافقته الدينية على جواز القمع الذي يقوم به النظام. يرى رجل الدين هذا أن المظاهرات ليست نابعة من الرغبة في الإصلاح. إنها عمل «أولئك الذين يريدون تدمير سوريا. أولئك الذين يريدون الإطاحة بالنظام يريدون أن يحطِّموا الإسلام»، لقد اطلع على «وثائق وتقارير» تبرهن بدون شك أنّ «أعداءنا لا يريدون لنا الخير، لا يريدون أن تزدهر حضارتنا الإسلامية، ويسعون إلى تدمير ثقافتنا الإسلامية».

الآن تجد الإسلام السُّني التقليدي ينصح بطاعة الحكّام،

واجتناب الفتنة. وينادي بدور محدّد للعلماء يحصرهم في دور «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» ولكن هذا القدر من التوسّل أمام النظام الذي يُفترض أنه ملحد والذي حارب الدين ولم يُعِرْه أي اعتبار لا بدّ أنه كان من الصعب التقدّم به. لم يكن الشيخ البوطي وزملاؤه في المؤسسة الدينية في موقع يمكّنهم من سدّ فوهة البركان. لقد عرف المتظاهرون هؤلاء العلماء على حقيقتهم «علماء النظام». قد يكون البوطي كبيرًا وعالمًا ولكن الثوار قد عرفوه كأداة للنظام، كما كان هناك وعّاظ سُنّة مثله في مدن سورية أخرى تمّ تجاهلهم من قِبل الذين هدفهم الإطاحة بحكومة الأسد.

قاومت حماة بقدر استطاعتها. جابَه شبابها مصفّحات النظام ودباباته بالعصي والهراوات الحديدية وإحراق الإطارات وأناشيد التكبير «الله أكبر» وفي بلاد ذات فجوة دينية عميقة بين قوات النظام والمعارضة الشعبية التي انفصلت عن حكامها فإن هذا الابتهال كان له قوة وتأثير في حدٍّ ذاته.

❋ ❋ ❋

كان للثورة جغرافية متميّزة وعقائدية مميزة، هذه ثورة اجتماعية ـ اقتصادية ذات مغزى. إن أكثر الكتابات الموثوقة وأحسنها حول هذا البُعد للثورة قام به فابريس بالانش، الجغرافي السياسي الفرنسي والذي لديه معرفة نادرة ووثيقة عن سوريا. قضى بالانش عقدًا من الزمن في سوريا ولبنان وكانت دراسته (Le Region Allaouite et Le Pouvoir Syrien) (2006) عملًا جغرافيًّا واجتماعيًّا متعدد المصادر المعرفية، أو كما سمّاها هو دراسة «اجتماعي ـ مكاني». وعلى يديه نجد أن

الخليط المكوَّن من الأرض والمجتمع في قلب سوريا الكبرى معروض بعناية ودقة. وفي عام 2011 كانت مقالته «جغرافية الثورة السورية» مستوحاة من ذلك الانطباع العميق والمعرفة بالدراسات السياسية والدينية عن سوريا، حول التلاقي المميت بين الجغرافيا والهوية الطائفية.

بدأ بالانش مقالته من حيث بدأت الثورة ـ في درعا التي تبعد 150 كيلومترًا جنوب دمشق كما حدَّد ذلك الجغرافي. ثم امتدت إلى المدن الساحلية بانياس واللاذقية، ومشارف دمشق ثم حمص وحماة ثم المدن الصغرى، الرستن وتلبيسة ومعرة النعمان وجسر الشاغور وإدلب قبل الوصول إلى إقليم دير الزور في تموز/يوليو. كانت هذه أماكن «مهمَلة» تمّ تجاوزها في التحوّل من الاقتصاد الموجَّه الذي قام عليه الرجل العجوز الأسد إلى الاقتصاد الجديد «المفتوح» الذي استوحاه ابنه. ولكن هذه الثورة في أغلبيتها الهائلة «انفجرت في مناطق العرب السُّنّة»، كما قال بالانش. الأكراد، والذين هم سنَّة أنفسهم، ظلّوا بعيدين عن الاضطرابات، كانوا قد ثاروا عام 2004 وقُمعوا بوحشية وقاتلوا لوحدهم ضد دمشق. أمّا الأقليات الأخرى ـ الدروز والإسماعيليون والمسيحيون والعلويون ـ فقد وقفوا جانبًا أو بالطبع أيَّدوا النظام. هذه ليست تونس أو مصر، «فالهوية الإقليمية» لها أهميتها هنا، الأمر الذي يستدعي إعادة النظر حول وحدة هذه الدولة القومية الغريبة. إن المظاهرات التي بدأت في درعا توقفت عند حدود السويداء، عاصمة الدروز المجاورة.

أكدّ بالانش أن مقاطعة حوران، ذلك الريف المحتوي على

درعا، لم تكن ثورية بالفطرة، ففي الستينيات كانت مستفيدة من مدِّ يد السلطة البعثي. كان «الإصلاح الزراعي» ـ تفكيك الأملاك الكبيرة التابعة للمُلّاك الغائبين ـ من مصلحة حوران. ازداد عدد سكانها من 180,000 نسمة في العام 1960 إلى 900,000 نسمة في عام 2010. نذرت حوران ولاءها للنظام، ووجد شبابها الطموح طريقهم إلى صفوف البعث ولكن الديمقراطية شتتت السلام. فهناك جيل ثالث يطمح إلى دعم الدولة ولكن الدولة كانت قد انسحبت. لم يكن لديها ما تستطيع تقديمه. أصبحت المياه نادرة ونظام التوزيع خاضعًا لأهواء البيروقراطية ومليئًا بالفساد، بل كان في الشمال أسوأ، خلفه أشبه ما تكون بقصة «عناقيد الغضب» لجون شتاينبك كما قال بالانش. لم تثر القرى، فالقرويون هجروا هذه الأماكن منذ زمن بعيد وذهبوا إلى المدن الإقليمية الكبرى التي برزت في المظاهرات، وقد تباينت الاضطرابات من حيٍّ إلى آخر. وفي اللاذقية ـ المدينة الساحلية التي هي في غاية الأهمية لسادة السلطة العلويين ـ امتنعت الأحياء المزدهرة عن المظاهرات. كان الحي البائس «رمَل» الفلسطيني هو الذي أزعج النظام وقد قُصف من الزوارق الحربية من البحر. وكان الأمر كذلك في ريف دمشق، الأراضي الريفية حول دمشق، «دوْما» الضاحية الكبيرة التي شهدت نحرًا سكانيًا سريعًا كان لا بدّ من إخضاعها بالقوة. وفي الغوطة المشهورة، والتي كانت ذات يوم جنة من الحدائق على أطراف دمشق، كانت الأحياء الأكثر فقرًا في الجنوب الغربي مليئة بالمشردين والفقراء الذين أصبحوا متململين. في الشمال الغربي كانت الطبقات المتوسطة والموظفين في توافق مع أمن السلطة.

لاحظ بالانش أن القرب الجغرافي من موطن العلويين كان عاملًا في حدّة المظاهرات. تقع أراضي العلويين بين البحر المتوسط ونهر العاصي حيث يشكّل جبل أنصارية والساحل قاعدته. وقد مكّن، عطف الفرنسيين ثم سلطة النظام، العلويين من الانتقال إلى حياة المدن، وقد اكتسبت المدن الساحلية كاللاذقية وبانياس وجبلة وطرطوس غالبية علوية. كانت خلاخ، تلك المدينة المضطربة على الحافة الغربية لمحافظة حمص، غالبيتها من السُنّة ولكن القرى التي حولها كانت أراضٍ علوية. وفي المدينة الكبيرة حمص أصبحت نسبة العلويين الجدد ما يعادل ربع السكان نتيجة مساعدة الدولة. تجمّع العلويون في أحيائهم الخاصة وأصبحت خطوط الصدع التي فصلتهم عن معاقل السُّنة خطوط مشاكل وشقاق. ولّد التقارب عداوة وصراعًا.

يفرّق بالانش بين المدن المختلطة ـ حمص وبانياس وغيرها ـ والمدن المحاطة ـ كدمشق وحلب. توضّح خرائطه بوضوح شديد لماذا بقيت دمشق وحلب خارج الثورة. لم يستطع النظام أن يغيّر ديموغرافية هاتين المدينتين الكبيرتين جدًّا ـ لم يكن لديها السكان العلويين اللازمين للقيام بعمل طموح كهذا. عملت الأقرب من ذلك حيث وضعت معسكرات جيش ومهاجرين علويين موالين على المشارف الاستراتيجية لتلك المدينتين. وفي حلب نجد أنّ ما ساعد النظام هو خط الصدع العربي ـ الكردي الذي شقّ هذه الحاضرة الشمالية الضخمة والعداء التقليدي الذي أثار عداء سكان حلب الحضريين ضد الريف المحيط بهم. ففي نهاية تموز/ يوليو دعا المتظاهرون السكان الريفيين للهبوط إلى

حلب والمشاركة في إضراب عام ولكن النتيجة كانت سلبية فقد اختارت حلب السكون.

لقد فهم حافظ الأسد الرجل الذي أسَّس النظام، حق الفهم أن بقاءه وبقاء سيادة الأقليات يعتمد على تعاضد جماعته العلويين وإبقاء السُّنة منقسمين على أنفسهم واستعدادهم للتعايش مع النظام. أمّا الابن فلم يكن خارق الذكاء، فقد عادى ـ وأيقظ ـ ما يكفي من امتعاض السُّنّة ما أوصل سيادته إلى الخطر، وللحق فلم يَثُر كافة السُّنة عليه، ولو حدث أن اتحدوا جميعًا لتغلبوا على دكتاتوريته. كانت هناك انقسامات طبقية وجغرافية لا تزال تتخلل السكان السُّنة وكان هناك الفاصل القديم بين المدينة والريف. وكانت الطبقات المتوسطة في حلب ودمشق تقشعر من فكرة أن يقودها أناس ضيِّقو الأفق.

سلطت خسائر الثورة في الأرواح ضوءًا ساطعًا على الإهمال الذي لحق بالمقاطعات وفقدان التعاطف بين الحكّام والمناطق الهامشية والتي تعبوا هم منها. قدّر مراقبو حقوق الإنسان والمنظمات غير الحكومية داخل البلاد أن 3000 شخص قد قتلوا بنهاية الشهر السادس للثورة. (تقديرات الأمم المتحدة كانت 2600). لم يكن هناك إحساس عشوائي بالفجيعة وبعض المراكز السكانية تضررت أكثر من غيرها. تعرضت حمص، ثالث أكبر مدينة وذات الديموغرافية المتشابكة، حيث تتواجد فيها أغلبية سنية مع أقلية علوية كبيرة، لأسوأ الأضرار: 761 شخصًا قتلوا. ووقع في درعا أعلى نسبة من الضحايا بالقياس إلى كثافة سكانها: 594 ضحية. وفي إدلب والريف إلى شمال غربها كان عدد الضحايا 319 ضحية. حماة، والتي تُعتبر

في أذهان الناس المركز العصبي للثورة فقدت 350 شخصًا. وتؤكد الأرقام الاعتقاد الواسع الانتشار بأن دمشق وحلب بقيتا على هامش الاضطرابات: 90 قتلوا في دمشق و44 في حلب. هاتان المدينتان أبقتا على علاقة سلمية مع النظام مشوبة بضغينة. لم تكن هناك علاقة محبة مأسوفٌ على فقدانها، بل تخوُّف من الثورة وإحساس بالقلق بأن البلاد قد تواجه اختيارًا مؤلمًا: أمّا هذا النظام بكل عيوبه أو العواقب غير المنظورة لحرب أهلية شاملة.

كان لدى دمشق تطلعاتها المكبوتة وهنا كان النظام حذرًا بالتمام. إمّا أن يختار الثورة وينجو في دمشق أو يفنى. نُشرت قوة النظام الهائلة بكاملها في العاصمة. تمكَّن النظام من ضبط المدينة بشكل جيد نسبيًا فقد كان تواجد قوات الأمن كثيفًا وأصبح من الواضح أنّ دمشقستردّ مواجهة الثورة وأن أهلها ليسوا محصّنين ضد الهياج في البلاد. في 27 آب/أغسطس، ليلة القدر في شهر رمضان المبارك حيث الصلوات والدعاء لها قوة عظيمة في ذاتها، تعرّض أكثر رجال الدين احترامًا، الشيخ أسامة الرفاعي ـ سليل نبلاء دينيين وإمام المسجد الذي يحمل اسم عائلته ـ لهجوم جسدي في مسجده من قبل قوات الأمن. كان معروفًا عنه وأخيه الأصغر، سارية، رجل دين كذلك، أنهما لم يكونا من محبّي النظام، وفي ذلك اليوم من آب/ أغسطس قُتل أحد أتباع الشيخ أسامة أثناء الشجار وجُرح الكثيرون واعتُقل آخرون وقد جُرح الشيخ أسامة نفسه وقد عرض على أتباعه المخلصين مقاطع في اليوتيوب تظهره برأسه المضمد وثوبه الأبيض مضمخًا بالدماء. كان الرفاعيون محبوبون

للغاية في أسواق دمشق. كان كبار التجار من الداعمين لخيريات الرفاعيين ومساجدهم العديدة. ظهر الحديث آنذاك عن زلزال دمشق وكان هناك غضب ظاهر كيف أن رجلًا موقّرًا يتعرض لمثل هذه المعاملة القبيحة. ولكن الزلزال لم يحدث وتراجع الرفاعيون وكذلك النظام. عرف الرفاعيون جيدًا مزاج أسواق دمشق، ليس هناك من يستمرئ طعم المواجهة الخطيرة. تذمّر التجار وأفصحوا أنه كان هناك تخطٍّ لقواعد حُسن التصرف. تعرضت دمشق وحلب إلى التدقيق المكثف والانتقاد. بالنسبة إلى المتظاهرين في المدن الأخرى الكبرى والصغيرة التي كانت تتعرض للقمع الوحشي، فإن هاتين المدينتين قد قايضتا روحيهما في مقابل الأمن والراحة. أهل دمشق ليسوا كما كانوا في الماضي، صرَّح بذلك محمد يعقوبي (المولود في العام 1962) والذي درَّس الدين في المسجد الأموي من منفاه. «إلى متى نستطيع أن نتحمل سفك دماء إخواننا وانتهاك بناتنا؟ هل أنتجت الشوكولاتة والوجبات السريعة نوعًا جديدًا من الرجال؟». أشار هذا العالم إلى «أن عبء دمشق ثقيل لأنه إذا نزل أهلها إلى الشوارع فإن هذا النظام وعائلته الحاكمة سيسقطون خلال أيام معدودة».

من منفاه في السعودية أعرب محمد علي الصابوني العالِم المسنّ من أصول حلبية عن خيبة أمله في مدينة مولده. قال إن حلب لم تنهض لمساعدة المدن الأخرى وأهلها يعرِّضون أنفسهم للانتقام الإلهي ولعذاب يوم القيامة، كما أن دعمهم لهذه الثورة هو «واجب ديني»، كان الصابوني الذي عمره الآن 81 عامًا ذات يوم عالمًا مرموقًا في حلب ومقرَّبًا من الإخوان

المسلمين. إنّ خمسة عقود من المنفى في السعودية لم تقلِّل من اهتماماته بالأساليب الحلبية. إنّ رثاء اليعقوبي حول «الشوكولاتة والأطعمة السريعة» تقترب من واقع الأمر. فكما أشار الباحث توماس بييريت إلى أنّ عقدًا من التحرير الاقتصادي كانت مفيدة لطبقة التجار السنّة. فالاستقرار الذي يوفّره النظام أفضل رهانًا من ثورة تحمل في ثناياها تغيُّرًا اجتماعيًّا عنيفًا. ما من تضامن بين السنّة كما يذكر لنا بييريت. إن الفروق الطبقية والفروق بين المدن والريف أمور شائعة بين الغالبية السُّنة. ففي صفوف ذلك البرجوازي المخلص نرى أن عدم الارتياح للحكام العلويين تغلَّبت عليه المصالح الاقتصادية. وبنهاية آب/أغسطس الشهر السادس من الثورة ظهرت حالة «حسد ليبيا» في النشرات وسلاح أفكار المعارضة. لقد ساعدت النيتو في تخليص الليبيين من قبضة طاغيتهم. كان الليبيون محظوظون بالفرصة التي سُنحت لهم، ولم يقفوا متفرجين، بل تلقفوا المساعدة وكانوا واضحين في التعبير عن امتنانهم. لم يلتفتوا إلى أولئك العرب الذين حذّروهم من مخططات القوى الغربية تجاه وطنهم. كانوا على استعداد لخوض المخاطرة. إن كبرياء السوريين قد أعاقهم مع أن قوى النيتو لم تكن في طريقها إلى دمشق وتنتظر فقط الضوء الأخضر من المعارضة السورية. كان تاريخ سوريا السياسي الحديث تاريخ القومية العربية: كانت كلمة الانتخاء في السنوات النهائية للإمبراطورية العثمانية والاستعمالات التي خدمتها بينما كانت تخيط رداء دولة قومية مكوّنة من جماعات مختلفة وغالبًا ما كانت متناحرة. والسلاح الذي استخدمته ضد قوى الانتداب الفرنسي في الفترة ما بين الحربين والأيديولوجية التي في الوقت نفسه حرَّكت وأحبطت الحياة السياسية السورية بعد الاستقلال.

هذه الفكرة المقدسة لرسالة سوريا العروبية وقفت عائقًا أمام طلب المساعدة الأجنبية، أصبح نهجًا لممارسة اعتيادية من قِبل الثورة، أضفى اسمًا خاصًّا على الجمعة 9 أيلول/ سبتمبر: جمعة الحماية الدولية. تحسَّر السوريون على المساعدة الأجنبية الغربية ولكنهم كانوا في الوقت نفسه حريصين على الإصرار على سيادة بلادهم. لم يريدوا حشودًا أجنبية ولا أحذية أجنبية على الأرض، وقرر أن يقبل الأكثر براغماتية من بينهم بمنطقة حظر جوي. ولكن ذلك الشرط لم يكن ليغيِّر صيغ التنافس فيما بينهم. فالعقود من التشرُّب الفكري المضاد للغرب وثقافة اشترك فيها الحكام والمعارضة سويةً كانت آثارها سيئة. فالمتظاهرون الذين يتوسلون من أجل الحماية الدولية كانوا خَجِلين من أولئك الذين في مقدورهم توفير الحماية، ولعلمهم بواقع أمور الحياة. لم يتوقع السوريون أنّ جيوش العرب ستأتي لإنقاذهم وكانوا مستسلمين لصمت العالم العربي النسبي تجاه معاناتهم. كانت هناك لائحة يحملها متظاهر فيها الكثير من الحكمة: «إلى الجامعة العربية ألسنا عربًا؟» لقد وجد المتظاهرون نوعًا من العزاء في إدانة النظام السوري من قِبل الملك السعودي عبد الله في آب/ أغسطس متنكبًا الحذر والتحفظ الرسمي، وصف الحاكم السعودي النظام في دمشق «بآلة القتل» ولكن خصوم النظام يئسوا من إخوانهم العرب. شاهدوا أمين عام جامعة الدول العربية، الدبلوماسي المصري، يجتمع بحاكمهم ويُغادر بتصريحات باهتة حول أهمية الإصلاح السياسي. الجامعة العربية ليس لديها جيش ترسله ولذا باستطاعة السوريين تجاهل توسلاتها. كانت سوريا تتاجر بنجاح بناءً على كونها دولة «مواجهة» ضد إسرائيل. بالرغم من أنها حافظت بمنتهى

الانضباط على الالتزام باتفاقية فصل القوات التي رتّبها وزير الخارجية الأميركي هنري كيسنجر في عام 1974. لم يكن هذا هو النظام المحاصر والمتذبذب كنظام القذافي. لقد أتقن خِداع النظام العربي وكال الاحتقار للعرب الذين يجرؤون على إطلاق أحكام على سلوكه. وعندما دُعي إلى مؤتمر عاجل لوزراء الخارجية العرب في 28 آب/أغسطس، سوريا «لوقف سفك الدماء والخضوع إلى تحكيم العقل قبل فوات الأوان» وأشاروا إلى أنهم سوف يتجاهلونه «كما لو لم يصدر».

كان نظام دمشق محظوظًا بحدود البلاد ـ لبنان والأردن وإسرائيل والعراق وتركيا. لم تكن هناك مهمة إنقاذ وشيكة الحدوث. ليس هناك قوة أجنبية راغبة في عملية عسكرية في تلك المنطقة القابلة للاشتعال. علّق دبلوماسي محنَّك من الخليج على وضع سوريا في المنطقة على أنها دائمًا على أهبة الانفجار لأن مفرقعة واحدة ستُشعل المنطقه بأكملها. كانت إسرائيل متردِّدة طوال هذا الوقت ومحقَّة في مراقبة الأمر من بعيد، ليس هنال علاقة يؤسف على فقدانها تجاه نظام أعطى إيران منفذًا على البحر المتوسط وحليفًا لحزب الله وحماس. ولكن نظام دمشق كيان معروف، وشيطان تعرفه أفضل من شيطان لا تعرفه. لم يكونوا حكام سوريا غامضين: لقد واجهوا هذا التحدي المميت لنظامهم، كانوا يتقدمون لمناشدة صريحة لإسرائيل، لم يكن قد سمحوا بدخول الصحفيين الأجانب إلى بلادهم ولكنهم أقدموا على استثناء. أرسلت دعوة إلى مراسل نيويورك تايمز «أنتوني شديد» والذي كان يغطي مشاكل سوريا من بيروت. تمّت الموافقة على منح شديد مقابلة مع رامي مخلوف، ابن عم بشار من جهة

الأم ورجل أعمال يجسّد رأس مالية الأقارب وسيطر على معظم اقتصاد سوريا. كانت هناك رسالة إلى إسرائيل وكان مخلوف الرسول الملائم. كان من خاصة دائرة الأسد وكان لديه الفرصة للإنكار لأنه ليس من مسؤولي الدولة الرسميين. «إذا لم يكن هنا استقرار فلن يكون هناك مجال للاستقرار في إسرائيل على الإطلاق. ليس هناك مجال ولا يمكن لأي أحد أن يضمن ماذا سيحدث بعد ذلك لو لا سمح الله حدث شيء لهذا النظام» وعندما سئل: هل أن ذلك تهديد بالحرب؟ أجاب مخلوف بغموض: «لم أقل حربًا، وما أقوله هو لا تجعلونا نعاني ولا تمارسوا ضغوطًا كبيرة على الرئيس ولا تدفعوا سوريا إلى عمل أي شيء ليست راغبة في القيام به» (بعد تسعة أشهر من هذه المقابلة توفي أنطوني شديد في شباط/فبراير2012 من جراء أزمة ربو في سوريا، حيث قام برحلة غير مصرَّح بها وقد كلَّفت «حساسية الخيل» هذا الصحفي الموهوب حياته).

كان لدى العصابة الحاكمة رأيها في السياسة الأميركية: إنها تُصاغ، إذا لم تكن تُملى من قبل إسرائيل. وسوريا بالطبع لم تكن كفؤًا لإسرائيل ولكنها تستطيع الإخلال بأمنها وتُقحم السياسة الأميركية في الشرق الأوسط في محنة عميقة. وقال مخلوف بزهو: «لم نخرج، ولم نهرب في قواربنا، سوف نبقى هنا وسنقاتل إلى النهاية».

إنّ التكهن حول سوريا تجارة رائجة في إسرائيل ولأسباب الفضول الفكري والدفاع عن النفس جذبت سوريا الأكاديميين الإسرائيليين وخبراء الدفاع وصانعي السياسة على حدٍّ سواء. الاتفاق مع سوريا كان دائمًا في الأفق وغالبًا كبديل محتمل

للتأقلم الأكثر صعوبة مع الفلسطينيين. كان مخلوف قد اطّلع على التقارير وكانت رؤيته في واقع الأمر تلقى بعض الدعم في إسرائيل، فأولًا هناك شكوك فكرية عميقة في الدوائر الفكرية والسياسية في إسرائيل حول التغيُّرات السياسية المقلقة الناجمة عن الربيع العربي. كانت اتفاقيات السلام التي عقدتها إسرائيل مع جيرانها العرب قد تمَّت من قبل رجال متسلطين: أنور السادات، وحسني مبارك في مصر، وياسر عرفات في السلطة الفلسطينية والمملكة الهاشمية في الأردن. الحقيقة الواقعة هو أنه لم يُعقد اتفاق سلام ملزِم مع السوريين ولكن آل الأسد ضمنوا هدوء الحدود.

لم يمكن التكهن مطلقًا بمن وبماذا يُستبدل هذا النظام! فالشعبوية والفوضى قد تهدِّد علاقة التعامل التي تطورت خلال أربعة عقود. أراد مخلوف والحاكم الذي كلَّفه بالمهمة أن تُهضم الرسالة في إسرائيل وتُنقل إلى واشنطن. كانت مسرحية مرتّبة الخطوات: نظام في دمشق أعطى الحماية لأكثر قادة حماس صلابة وحليفٌ قوي لحزب الله في لبنان ومع ذلك ما زال لديه متَّسع من المجال من المناورة بخصوص إسرائيل. كان هناك إسرائيليون من بينهم - كما قيل - إيهود براك، يرون أن عالمهم سيكون أفضل إذا أطيح بالنظام السوري الذي وفّر لإيران منفذًا على البحر المتوسط ولكن لأجل التوازن فإن الخوف من المجهول يضمن مسلكًا أكثر أمانًا.

كان سلوك تركيا مثيرًا للحيرة، فقبل اثني عشر عامًا أو أكثر كان السوريون والأتراك على حافة الحرب، فقد أمَّنت سوريا ملجأ ودعمًا ماديًّا لعدو تركيا اللدود، حزب العمال

الكردستاني وزعيمه عبدالله أوجلان. فى عام 1998 أرسلت أنقرة قوة كبيرة إلى الحدود مع سوريا وتراجع السوريون وطردوا أوجلان. وجاء نظام إسلامي جديد إلى السلطة في تركيا عام 2002 وأخذ جانب سوريا حليفًا. ازدهرت التجارة والسياحة عبر الحدود وتقدَّمت تركيا لكي تكون وسيطًا بين سوريا وإسرائيل. وقد قال بشار نفسه إن هناك ثلاث قوى في المنطقة، إيران وسوريا وتركيا على التوالي وامتدح قيادته لكونها في صميم تلك القوى المجيدة. كانت أنقرة على علاقة جيدة مع بشار الأسد في بداية الصراع وأمّنت له غطاءً في مجالس النيتو وتعاطياتها مع إدارة أوباما ولكن بشار أمعن في استغلال صبر وتسامح رئيس الوزراء رجب طيب أردوغان. كان هناك مدّ للاجئين السوريين إلى تركيا وللانتهاكات المتزايدة للمشاعر الدينية في دمشق ـ الهجوم على المساجد والوعّاظ والاستهتار العلني بمشاعر المسلمين الملتزمين. كان الحزب الحاكم في تركيا عثماني النزعة وسُنّي في ولائه ولم يتمكّن من الاستمرار في حلفه مع الحاكم السوري العلوي الذي انغمس في صراع طائفي. ولذا ولا عجب في التردُّد في السلوك الرسمي التركي. وقد غزا هذا التردّد الشائعات ـ هل كانت مجرد أمنيات؟ ـ إن الأتراك قد يلجأون إلى أي خطة، وإلى ضربة عسكرية ضدّ النظام السوري، كانت تلك فكرة رائعة إلى حدٍّ لا يمكن تصديقها: الخلاص على أيدي جار مسلم وعضو قوي في النيتو ولكنها أيضًا قوى مسلمة. كان الأتراك ثاقبي النظر وأبقوا على الخيرات المفتوحة، حيث ينافسون نفوذ إيران في سوريا دون أن يتورّطوا في المستنقع السوري.

تطوّرت السياسة في أنقرة وبدأت تعكس صعود رئيس الوزراء أردوغان كلاعبٍ سياسي مهمّ في الشؤون العربية. لقد استجاب أردوغان لفراغ السلطة في العالم العربي وللحاجة الملموسة لدى السُّنة العرب إلى توازن مقابل قوة ومخططات إيران. ولكون أردوغان رجلًا داهية وحازمًا، فقد فهم أنه لا يستطيع أن يدخل غمار اضطرابات الربيع العربي ويبقى في الوقت نفسه صديقًا لدكتاتور مجاور. ففي العلن وأمام حماسة عربية شاملة بدأ أردوغان هجومًا شاملًا على التحالف مع إسرائيل والذي كان عمودًا في النظام الكمالي القديم والجيش. وفي الدوائر الفكرية والسياسية كان هناك حديث عن رئيس وزراء تركيا على أنه السلطان الجديد، الأمر الذي يسترجع ذكرى النظام العثماني. هذه البلدان العربية التي تكابد الثورة وتبحث عن طريق سياسي جديد ـ سوريا ومصر وليبيا وتونس. كانت ذات مرة مقاطَعات عثمانية. ليس هناك من يبحث عن إحياء تلك الإمبراطورية القديمة. ولكن أردوغان كان يعرِّف نفسه كنموذج، مؤمن ـ بدون لحية أو عمامة ـ رئيس وزراء مسلم لدولة علمانية. كانت تركيا في غمرة ازدهار اقتصادي وقادتها يفيضون فخرًا بأن بلادهم قد أصبحت الاقتصاد الخامس عشر الأكبر عالميًّا، وبدأ أردوغان يجعل العرب يرون بأنفسهم حكمة مساره. أصبح بشار عبئًا وإحراجًا ولذا اختارت حكومة أردوغان التخلي عنه نهائيًّا.

في بداية أيلول/ سبتمبر، عندما لم يكن هناك ما يشير إلى نهاية الرعب السوري، قال أردوغان إنه لم يعُد لديه أي تواصل مع بشار الأسد وليس لديه نية في استئناف أي علاقة معه. كل

شيء محطَّم الآن، وكانت لغة أردوغان رائعة: «إن الذي يبني نظامه على الدم سوف يغرق في الدم. أيها السيد الأسد، عندما كنت تقصف شعبك في اللاذقية من الزوارق الحربية كنت تزعم أنك تقصف إرهابيين. القادة يجب أن يبنوا حكمهم على الشرعية. أنت ومن حولك وصلتم إلى نقطة اللاعودة». في الماضي وبّخ أردوغان الأخ الأصغر لبشار، ماهر، المنفِّذ للقمع وندَّد بوحشية ممارساته. والآن ابتعد عن بشار نفسه، ولا بدّ أن إيران والمنافَسة معها كانت في ذهن أردوغان، حيث إن حُماة بشار الإيرانيين بدأوا أنفسهم يلمِّحون أن النظام السوري بحاجة إلى إصلاح وأن العنف الرسمي لن ينجح.

بعد قرابة أسبوع من قطع العلاقة مع بشار عزم أردوغان على تحقيق جولة ناجحة في البلدان الثلاثة التي طردت حكامها أثناء هذا الربيع العربي ـ مصر وتونس وليبيا. لقد توهَّج ثقة وتفاؤلًا وأبدى دعمه ودعم بلاده لهذه الثورات. كان مصحوبًا بلفيف من رجال الأعمال والمستثمرين. وفي القاهرة كانت هناك جماهير معجبة «بالأخ» المسلم الناجح الذي أدار ظهره لإسرائيل واختارهم بدلًا عنهم. لقد أفزع الإسلاميين عندما وصف نفسه برئيس وزراء مسلم لدولة عثمانية. هذا ليس ما كانوا يتوقعونه ولكنه كان واثقًا من أن النهج التركي هو طريق الخلاص للعرب. لم يكن ليستطيع الخوض في ذلك لو كان صديقًا للطاغية الأسد. أبلغ العرب ببشرى نوع جديد من النظام السياسي الذي ينتج عن صندوق الاقتراع مدعومًا من قبل طبقة البرجوازيين المخلصين الأتقياء. كان هناك عرب لديهم شكوك بِمَن فيهم الذين يتذكّرون علاقة أردوغان الحميمة مع الأسد،

والدور الكبير الذي لعبته الشركات التركية في اقتصاد ليبيا تحت حكم القذافي. وعلاوة على ذلك فإنّ أولئك الذين هم على علاقة دقيقة بالتحولات السياسية في المنطقة يتذكرون أنّ تركيا بذلت أقصى الجهد لإفشال مهمة النيتو في ليبيا ولكن أردوغان أحرز النجاح. مكّن بلاده من احتلال موقع بجانب الملائكة. لقد شحذ الوقت والإحساس بمزاج العالم العربي الذي تجولّت فيه رسالة أردوغان. في 22 أيلول/سبتمبر، في خطاب ألقاه أمام الجمعية العمومية للأمم المتحدة وضع سياسته تجاه سوريا في إطار التغيرات الكبيرة التي تجتاح المنطقة. قال «إن خريطة الشرق الأوسط آخذة في التغيّر. منذ بداية هذه الأحداث طلبنا من الحكومات أن تصغي إلى شعوبها، ومرارًا لا تُحصى طلبنا من الحكومة السورية أن تفعل ذلك. نحن جيران وأصدقاء ونشترك في حدود طويلة تبلغ 990 كيلومترًا، هناك روابط دم بين شعبينا. الأصدقاء يقولون الحق حتى ولو كان مرًّا». لقد أسدى النصح لحكام سوريا ولكنهم لم ينصتوا. «كل قطرة دم تُراق في سوريا ستوسع الفجوة بين الحكومة والشعب». وبعد عدة أسابيع، قال أردوغان في أشد لغة لاذعة عن سوريا: «إن سلوك بشار موروثًا عن أبيه وتُرجمت في الوحشية التي كانت ردًّا على الشعب في حماة وحمص ودرعا». وقال «إنه سيُثبت أن الشعب السوري على حق وسيكافأ على مقاومته المجيدة».

لقد ارتعد النظام السوري من هذا التغير المفاجئ في سلوك تركيا. ولكن من أجل الاستمرار في استعراض تحديه، أصرَّ على أنه لن ينحني لضغط أردوغان. «مَن يرمي نحونا زهرة نرمي نحوه زهرة». قال ذلك وزير خارجية بشار عن الضغط التركي. كان في ذلك زوبعة، لكن كان فيها بعض الحقيقة أيضًا.

فالسوريون والأتراك يعرفون بعضهم جيدًا. فقد تعاونت مخابراتهم مع بعضها البعض في التآمر وكذلك في العداء. ففي أوقات الخصام دعمت سوريا حزب العمال الكردستاني وسهّلت لهم الدخول إلى تركيا ومنحتهم الملاذ الآمن. كان السوريون يريدون القول بأنه ما زالت لديهم إمكانات لاستخدامها في هذا التنافس.

الدول كائنات باردة وحشية لا تعرف العواطف، وكان السوريون حذرين عندما يتعلق الأمر بسلوك الدولة التركية وقادتها الإسلاميون. كان الاختفاء الغامض على الأرض التركية لمنشقّ عن الجيش، المقدَّم حسين حمروش، في نهاية آب/ أغسطس إنذارًا للمعارضين السوريين أنّ الأمر ليس على ما يرام في تركيا وأنهم تحت رحمة مضيفهم. كان حمروش قد انشق وقام بتسجيل فيديو في حزيران/ يونيو يدعو فيه ضبّاط وجنود الجيش إلى التمرد على النظام. شجعت رتبته العالية نسبيًّا على انشقاق آخرين سوف يتبعون التصرف نفسه وأن جيشًا سوريًّا حرًّا سوف يتحقق وجوده. كان مع زوجته وأطفاله في تركيا في معسر للاجئين في مقاطعة هتاي تحت الحماية التركية. وفي 29 آب/ أغسطس قال لزوجته إنه ذاهب لمقابلة رجل من الاستخبارات التركية. وأُقفل هاتفه ولم تستطع زوجته الاتصال به، وبعد أسبوعين ظهر حمروش على التلفزيون السوري وحقَّر المعارضة. لقد خدعوه بوعود المساعدة التي لم تتحقَّق. وأنكر أنه تسلَّم أوامر بإطلاق النار حيث اتهم الإخوان المسلمين بتهريب البنادق والإرهابيين إلى البلاد.

كان المالكي مقتنعًا بأن انتصار الثورة في سوريا سيعني

مجيء نظام سني متطرِّف على حدود العراق لم يكن عاملًا لإيران. كانت لديه دائمًا نظرة قائمة عن الثيروقراطية الفارسية ولكنه وجد في النظام السوري وفي حزب الله في بيروت سدًّا ضدّ التحالف السُّني للسعودية والأردن ومصر والملكيات الصغيرة في الخليج. كانت السعودية معارضة لظهور هذا العراق الذي ولدته أميركا. لم ينسجموا مع المالكي وحيث إنه الآن في السلطة في عاصمة عربية كبيرة كان حريصًا على تحدي إرادتهم. كان من المستحيل تقريبًا أن تجد في العالم السُّني أي تعاطف مع صعود الشيعة العراقيين. وكان المالكي نفسه يُنظر إليه كرجل تُحرِّكه الولاءات الشيعية. كان هناك طيف هلال شيعي يمتد من إيران إلى لبنان مرورًا بالعراق وسوريا. حاكم الأردن عبد الله الثاني ملك الأردن مغرم بهذا التصوّر. كان يسوّق هذه الفكرة لدى الأميركيين على أمل الحصول على تحويل وإعانات وإتاحة الفرصة للأردن وقوات أمنها للعب دور في احتواء الخطر الشيعي. وكذلك كان حسني مبارك وبلاده البعيدة الآمنة من خطر الشقاق السُّني ـ الشيعي. كان يعتقد أن القرى الشيعية تُدين بالولاء لإيران وليس لحكوماتها. نظر إلى جماعات بأكملها في البحرين والعراق ولبنان كطابور خامس للدولة الفارسية. كانت تلك هي طريقة الحاكم المصري لضمان خزائن الملكيات والإمارات السُّنية في الجزيرة العربية والخليج الفارسي. والآن وقد عزَّز المالكي هذا المنظور، فإنه لم يرَ في سوريا سوى الصراع بين نظام علوي ومعارضة سنية.

كان حول المالكي طبقة سياسية جديدة. لقد أتيحت لي الفرصة للاجتماع بهم في زيارات طويلة للعراق على مدى عدة

سنوات. لم يكونوا من النوع الدنيوي المادي بشكل ظاهر. كانوا محدودي التعليم والتطلّعات. نشأوا على غذاء من الاستشهاد الشيعي وكانوا دائمًا غير مندمجين وعاشوا حياة هامشية في دمشق ولندن أو طهران أثناء العقود الطويلة من الحكم السُّني في بلادهم. كثيرون منهم قاسوا الوحشية الرسمية لنظام صدام حسين وفقدوا أحباء لهم وأعضاء من عوائلهم من جرّاء الإرهاب. وكما في قصص الشيعة عن المأساة والخلاص، فإنّ الحرب التي تقودها أميركا والثقل الديموغرافي الشيعي أعطاهم أولوية سياسية. كانوا حريصين على تحقيق حلم تاريخي طال عليه الزمن. ففي خطر هذه الطبقة السياسية ـ كما هو بالنسبة إلى الناشطين في لبنان ـ تمثِّل دمشق ومدن حمص وحماة قلاع الإسلام السُّني، منبعًا منظورًا حياتيًّا كان دائمًا محتقرًا للشيعة. كانت دمشق مقرّ سلطة الإمبراطورية الأموية. بدأ في تلك المدينة حرمان الشيعة من ميراثهم في منتصف القرن السابع. تذكُر التواريخ شهيد الشيعة الأسطوري الإمام الحسين الذي قد أحضر رأسه إلى قصر الحاكم بعد مأساة كربلاء في جنوب العراق في عام 680، لم يعترف السُّنة مطلقًا بشناعة هذه الفعلة ولم يَنْسها الشيعة أبدًا. وهذه الثورة ـ بسبب التكنولوجيا وتحميلها على اليوتيوب وتسجيلها بكاميرات التلفزيون والتعبير عنها بلغة الديمقراطية وحقوق الإنسان ـ نُظر إليها من منظار قديم. لم يستطِع المالكي والطبقة الشيعية السياسية التي اعتلت السلطة حديثًا في بغداد تخليص أنفسهم من قبضة التاريخ. كانوا على قناعة بأن الثورة السورية، ذات المقاصد الحسنة في البداية، تمّ اختطافها من قبل السلفيين المجندين والمموّلين من قبل السعودية. تلفزيون الجزيرة كان قد أعطى استمرارية للثوار، وهذا كذلك اعتُبر جزءًا من محاولة سُنيّة

أوسع نطاقًا لتغيير موازين القوى في المنطقة. لم تكن قناة الجزيرة صديقة لشيعة العراق خلال صراعهم مع الجهاديين. إنّ تحمُّسها للثورة السورية دليل على أن أنماط الصراع القديم في المنطقة حولهم لم يتغير.

❋ ❋ ❋

الحساب بين النظام وأهل حماة يحمل حقيقة في ذاته. بعد نزيف 1979 - 1982 ترك النظام حماة تعيش حياتها وانغلق الحمويون على أنفسهم معترفين على مضض بضعفهم، تاريخيًّا، كانوا يتطلّعون إلى دمشق ويموّنون قوافلها. كانت سياساتهم امتدادًا لمنطق دمشق ومفاهيمها. ولكن دمشق تتحرك تجاه معاناتهم. والآن أتيحت الفرصة لحماة لتعبِّر عن كراهيتها الصامتة تجاه حكّامها. في نهاية الثمانينيات قام شارلز غلاس (Charles Glass) الكاتب الجريء والذي كان مسافرًا من الإسكندرون إلى العقبة لأجل كتابه «قبائل ذات أعلام» (Tribes With Flags) بزيارة حماة. وبعد حوالي ست سنوات من ذلك، كان لا يزال يميِّز وجود ما حدث هنا. فكان لا يزال هناك «النسيج الحموي» الشهير من المفارش القطنية البيضاء التي تُستخدم على طاولات الموائد وفرش الأسرة وغيرها. كانت عوائل بكاملها تقوم بتلك الأعمال، وقد تراهم يجففون الملابس على النهر. كان هذا قبل عام 1982 والآن لم يبقَ سوى عائلة واحدة. أشار غلاس إلى أنه ما زال هناك «أطنان من الركام» في السوق الذي كان مكانًا تجاريًّا مفتوحًا وناشطًا والآن صار محطمًا والركام متروك على جوانبه. كان الرحالة يتنقّل في سوريا، كان هناك شيء مفقود في حماة، شيء رآه في كل مكان في سوريا ما عدا حماة. «في كافة

دكاكين حماة ومكاتبها وميادينها وأسواقها الداخلية والمفتوحة، لم تكن هناك صورة واحدة أو رسوم أو تمثال للرئيس حافظ الأسد». وفي مكتبة حكومية هادئة صادف الصورة الوحيدة للحاكم التي رآها في حماة. كانت تعبِّر عن الملامح المألوفة للرجل ولكن الفنان أضفى عليها لمسة، فقد «وضع في يدي الرئيس مسبحة». كانت محاولة بسيطة لجعله يظهر أكثر عادية وأقل تخويفًا.

عندما وصلت الثورة إلى حماة في عام 2011 تناول المتخاصمون خيطًا قديمًا. لم تتمّ تسوية الثارات القديمة، يتحدث العلويون المغرمون بقصص المواجع القديمة في زمن عندما كان خطرًا على القرويين العلويين إذا غامروا بالذهاب إلى أماكن الصيد في حماة. يتحدثون عن الضرب والقتل على يد أعوان العوائل صاحبة الأملاك. والآن لدى الحمويين مآسيهم التي يحكون عنها.

## الفصل السابع

# حقيقة الطوائف

فُتح صندوق الشر ومنه خرجت طائفية الشرق العربي الكريهة ـ الشقاق السُّني ـ الشيعي. وهذا، باختصار، يفسِّر الموقف العراقي تجاه الثورة السورية. شرح لي رجل عراقي من الطبقة السياسية، ذو فطنة مع بعض الاستفزازية، عدم اكتراثه بالثورة المجاورة. لم يكن مطلقًا من المعجبين بالحكم المطلق. لقد ناضل وأثار الهياج ضد صدام حسين واستمتع بحرية العراق المضطربة. أخبرني أنه ذهب إلى سوريا، بل حتى أنه زار مدينة حماة، ولم يسرُّه ما رأى. قال إنه كانت هناك ثورة نبيلة وصادقة في معارضتها للدكتاتورية ولكن المتشدِّدين والسلفيين سحبوا البساط من تحتها. كان هناك نشيد إيقاعي ترك انطباعًا لديه، «العلوي على تابوت والمسيحي على بيروت». قال إن عناصر متطرفة، الجهاديين الذين حاربوا الأميركيين في العراق، والسُّنة العراقيين من الأنبار، انضموا للحرب ضد الحكومة السورية. كان لدى الأقليات ـ العلويين والمسيحيين ـ الكثير ممّا تخافه من هذه الثورة. قال بتهكم: لم يكن لديه أي أمل بأن يرتفع بشار بنفسه فوق حزب البعث ـ إذا نظرنا إلى التاريخ المشحون لهذا المصطلح في بلاده، كان ما يفضِّله هو تخليص النظام من

البعثية. الادّعاءات العلمانية لدى أهل درعا وحمص وحماة لا يمكن تصديقها. هناك الكثير ممّا أعجبه في الثقافة السورية ـ علمانيتها وانفتاحها ـ ولم يُرِد أن تُستبدل بحُكم سني. هناك نساء متحرِّرات في الشوارع وحياة اجتماعية مفعمة بالحيوية، ويعتقد أن السلفيين سوف يدمرون كل ذلك. لقد اعترف بغرابة حكم علوي في بلد غالبيته من السُّنة حيث إن ذلك ضد النظام الطبيعي للأشياء، ولا يعتقد أن العلويين استخدموا عقودهم في السلطة بشكل جديد ولكنه لا يستطيع تقبُّل ذلك النوع من النظام الذي قد تتمخض عنه الثورة.

إن الطائفية التي ترفرف على الثورة السورية محتوم لها أن تنتشر باتجاه لبنان بقوة أكثر ممّا يمكن أن نراه في العراق. ظهرت الحقيقة غير المنمقة حول عواقب ما يجري في سوريا عارية من قبل القسيس السياسي الخاص للكنيسة المارونية الأسقف بشارة الراعي. كان الأسقف المنتخب حديثًا في زيارة إلى باريس في بداية أيلول/ سبتمبر عندما عبّر عن مثل تلك المشاعر التي تُقال همسًا بين الخاصة ولكن نادرًا ما تُذكر من قبل شخص في مقامه. قال إن النظام السوري في طريقه للإصلاح وهو بحاجة ويستحق فرصة للمناورة، وبشار رجل بحاجة إلى الوقت لتحقيق التغيير، الرئيس السوري لا يستطيع «صنع المعجزات» ولو انتصر معارضو بشار فسوف يتَّحد السُّنة في سوريا مع إخوانهم في لبنان ويهتكوا التوازن اللبناني. قال إن المسيحيين في الشرق في خطر وأشار إلى مصير المسيحيين في العراق: لم تكن حالهم جيدة تحت ظلّ النظام الجديد والمصير نفسه ينتظر المسيحيين في سوريا. كان نظام دمشق يدّعي دائمًا أنه أمّن درعًا للأقليات. والآن جاء زعيم

الكنيسة المارونية ليقدِّم له الدعم، وفي باريس من بين كل الأماكن. أصبح الرئيس الفرنسي ساركوزي ناقدًا شديدًا لنظام الأسد وقال للأسقف إن نظام بشار انتهى وغير قابل للإصلاح.

عاد الأسقف إلى بلاده ليواجه عاصفة شديدة.. الكنيسة المارونية كنيسة وطنية، عقائدها مرتبطة بلبنان واستقلاله. إن الأسس الروحية للموارنة هي هجرتهم من السهول السورية إلى الحرية و«الصفاء» لموطنهم في جبل لبنان. كان سلف بشارة الراعي، الكاردنيال نصر الله صفير، بطوليًّا وثابتًا في مقاومته لانتهاكات سوريا المتواصلة للبنان. قاوم السوريين عندما استسلمت كل شخصيات لبنان المرموقة. كان وفيًّا لرسالة كنيسته. في عام 2011 كان قد تنحّى جانبًا في ظرف غير عادي لأوضاع الكنيسة. لم يكن سرًّا أنه كان على خلاف مع رفيقٍ ماروني، ميشال عون الذي هو الآن ذا قوة في البرلمان اللبناني وحليفًا لسوريا وحزب الله.

(كان عون بهلوانًا ونموذجًا للطرق المحبطة لدى الطبقة السياسية اللبنانية. كان فيما مضى عدوًّا لدودًا لسوريا، ولكن بعد خمسة عشر عامًا من المنفى في فرنسا، قام بتحوُّل مفاجئ والآن هو في ركب حزب الله ودمشق). لقد فهم صفير توازن القوى حوله وكانت هناك أخبار تفيد بأن الفاتيكان رمى بثقله خلف التغيير في رئاسة الكنيسة. كانت تريد قائدًا دينيًّا يستطيع أن يصل إلى اتفاق مع الشيعة في لبنان ومن ثم مع العلويين في دمشق - في الواقع كان صفير يقود كنيسة منقسمة، ولكن ذلك كان طابعًا أساسيًّا في الحياة المارونية.

كان الأسقف الجديد الحليق عاشقًا للأضواء والمؤتمرات

الصحفية. ولقّب بـ «الأسقف لكل شيء» (الأسقف بتاع كله) قدَّم الدعم للنظام في دمشق في زمن القمع الرهيب في سوريا. كان لبنان لا يزال بلدًا متعودًا على الجدال السياسي، ولم يسلَم الأسقف. كان قسيسًا سياسيًّا مزعجًا كما قال مايكل يونغ الصحفي اللبناني ـ الأميركي الجريء في جريدة بيروت الإنكليزية «ذي ديلي ستار» كان يونغ غير مجامل: «بالنسبة إلى المؤمنين وحتى غير المؤمنين، هذا تناقض أن تدعم كنيسة جزّارًا، ما نوع هذه المؤسسة الدينية القذرة التي تقف بجانب طاغية ضد شعبه؟ كيف يمكن للراعي أن يعظ حول المحبة المسيحية والرحمة ثم بلا خجل يحذّر من الأخطار المحتملة لو أزيل آل الأسد؟ تطرق الراعي إلى مصير مسيحيي العراق كمسار ينبغي للموارنة تحاشيه. لسوء الحظ فإن تلك الجماعة تعاني اليوم لأنها وقفت مع وحشية صدام حسين. هل هو ذلك المصير الذي يريده الراعي لمسيحيي سوريا أو لبنان؟».

قريبًا من النار ميشيل كيلو، شخصية مرموقة في المعارضة السورية ومسيحي ولد في مدينة اللاذقية الساحلية، تقدَّم برفض مفصَّل لرسالة الراعي. ألبس كيلو هذه القضية الحسّاسة ثوب الحقيقة وكصحفي غزير الإنتاج ومعلق، تعرض كيلو للسجن عدة مرات بسبب سياسته. في عام 2006 حُكم عليه بالسجن لثلاثة أعوام بتهم «إضعاف المشاعر الوطنية وتشجيع النزاع الطائفي» تجلّت سمة الشجاعة فيه عندما خاطب «صاحب البركة العليا الأسقف الماروني رجل السياسة وليس رجل الدين». قال كيلو إن الأسقف تحدّث «باسم مسحيي الشرق، بالرغم من أنه يمثّل أقلية منهم وبقية المسيحيين الشرقيين لم يسبق أبدًا أن

طلبوا منه أن يكون المتحدث باسمهم». كان هناك صراع مرير يجري في سوريا» والسياسي - دع عنك رجل الدين - كان عليه أن يكون حذرًا أكثر في حديثه. أدخل الأسقف نفسه في النزاع السُّني - الشيعي. مع أن ما يحدث في سوريا هو نوع مختلف من الصراع. تحتدم الحرب بين «أنظمة شمولية» وشعوبها، هناك صراع مشوش يحتدم في لبنان والموارنة أنفسهم منقسمون إلى فريقين متعارضين - أحدهما مع حزب الله وسوريا والآخر مع ائتلاف واسع بقيادة السُّنة - وكان على الأسقف أن يخطو بحذر «لا حاجة للتأكيد على أن موقف الراعي السياسي خاطئ. إنه بحاجة إلى التذكير بكلمة لهيغل الذي قال: «إن الحرية ظهرت بين البشر مع المسيحية». أذكِّره بهذا الاقتباس لأن منصبه كرئيس للكنيسة المارونية يُلزمه بأن يؤمن بها وأن يتصرف طبقًا لمحتواها».

هناك طريقتان أمام الأقليات كما أشارت العديد من التعليقات: حماية الدكتاتورية العلمانية أو مجازفات ومكاسب السياسات الديمقراطية. اختفى الأسقف ولكن القضايا التي فتحها لن تختفي. يشير الدليل من الجارة سوريا إلى عدم ارتياح المسيحيين: يتمتعون بحماية الحاكم ولكنهم غير متأكدين من عواقب احتضان الدكتاتورية. لم يُعرف عن بشار المواربة في التصرف، ففي منتصف الثورة أقال وزير دفاعه العلوي واستبدله بمسيحي. بدأ استدعاء الأقليات للوقوف ضد الموجة السُّنية.

في دمشق، أظهر أسقف الكنيسة الأرثوذكسية اليونانية رأيه بأنّ النظام أفضل ممّا قد تتمخّض عنه الاضطرابات. لقد كاد هذا الربيع العربي أن يتأسلم والمسيحيون العرب يعيشون فوق

بركان: ليس لديهم خيار ذكي. ليست هناك سفن غربية حربية ولا حماية قنصلية كما كان الحال في عصر الإمبراطوريات. مضت تلك الأيام عندما كانت فرنسا وروسيا وإنكلترا وألمانيا والبعثات البروتستانتية تقدِّم لهم الحماية. ازدادت محنتهم حدّة بمراوغات اللغة السياسية حولهم. لقد راهن المسيحيون على القومية العربية ولكنها خذلتهم حيث كانت مؤسلمة في أساسها. أصرّ النظام على أنّ سلطته ضرورية ضد الأصوليين والمعارضة واثقة بالمثل في ميولها العلمانية. لم يكن العرب صادقين بخصوص اختلافاتهم الدينية والمذهبية وسوريا الكبرى نفسها كانت أرض المجتمعات والهويات المتناحرة. انكسرت القومية العلمانية وغلّفت تلك الروابط والتنافسات العميقة. ولكن الصراع في سوريا، كما هو في لبنان لمدة جيل قبل ذلك أظهر تلك الخصومات إلى العلن.

كتبت فريا ستارك (Freya Stark) في رسالة من سوريا عام 1928 «لم أجد أي ذرة من الشعور الوطني، كل شيء طوائف وكراهيات وأديان». أمّا إدوارد عطية، الكاتب العربي المسيحي المرموق فقد كتب على المنوال نفسه في كتابه «عربي يحكي قصته: دراسة في الولاءات»، في عام 1946: «لو كان هناك بلد به كل تأثير ممكن وجوده، الإلهي والدنيوي، والتحفّز ضد الوحدة القومية، وتكوّن مشاعر المواطنة. فتلك البلاد هي سوريا قبل عام 1914».

لم تختفِ تلك الصدوع المتمثلة في الطائفة والجماعة، وذلك العالم في سوريا الكبرى ـ سوريا ولبنان ـ على وجه التحديد، لم يجد سبيلًا إلى التحرُّر من قبضة الطائفية. أولاد

الأسد المخيفون - بشار وأخوه الأصغر ماهر - متزوجان من المذهب السُّنّي. يُقال إن والدهما ادّعى عند موت أمه بأنه وعائلته من السُّنة وأن شيخًا سنيًّا سيؤدي الصلاة عليهما. وفي لحظة خطر تغلبت النزعة الطائفية على الادعاءات العلمانية.

في قلب هذا الصراع على سوريا ليس هناك ما هو أكثر قدرة الإسلام السُّني للمحافظة على تماسكه في وجه «الجماعات المتحالفة» والطوائف المتنافسة. لقد قلب العلويون حكم السُّنة في دمشق رأسًا على عقب ووقعت بيروت تحت سيطرة أبناء الشيعة. أناس من الريف انهالوا على بيروت من وادي البقاع والمناطق الداخلية في الجنوب. في أيار/مايو 2008، وفي لحظة مروعة للسُّنة في بيروت، شتّت حزب الله بسرعة بالغة ميليشيات سنية، واكتسح مقاتلوه المواقع السُّنية بسهولة بالغة. كانت طرابلس، المدينة الساحلية على الحدود السورية - اللبنانية معقل الإسلام السُّني مع أقلية علوية ساعدها الحكم السوري ونفخ فيها روح الثقة. كانت ممزّقة بهذا الانقسام الطائفي الجديد. لم تتأقلم طرابلس أبدًا مع حشدها داخل حدود لبنان والذي كان نتيجة لإقحامها بالقوة من قبل الحكم الفرنسي. كانت علاقاتها مع حمص عبر الحدود ذات معنى أكبر وأهم لأهلها من الروابط مع بيروت وجبل لبنان. كان هيامها الجيّاش في الخمسينيات والستينيات هي القومية العربية. وبعد خمود تلك الحركة وقعت طرابلس تحت تأثير نزعة جديدة: الجهاد، والإسلام السياسي وقلق المجتمع السُّني المحافظ من تصاعد قوة الأقليات. تغلغلت في صفوفهم واستخدمتهم لمآربها ولكن لم تثق بهم قط. وفي أثناء ذلك نمَت قوة العلويين في ظلِّ

الوجود السوري. كان هناك 120,000 علوي تقريبًا وغالبيتهم العظمى سكنت طرابلس. كان لهم حيّهم الخاص، جبل محسن، وكانوا منقطعين في ولائهم لنظام دمشق وفي خوف من العواقب فيما إذا سقط النظام. كانوا مجندين ومسلحين لردع قوة الإسلاميين. أعطى النظام السوري، بتعاون ساكن من قبل الحكومة اللبنانية التي تنفذ رغباتها، العلويين مقعدين في البرلمان اللبناني. وقد تمّ التلاعب بقوانين التجنيس اللبنانية، حيث مُنح العلويون السوريون الذين عبروا الحدود إلى لبنان الجنسية اللبنانية.

بينما كانت الأرض تحترق في سوريا وتتنامى قوة حركة حزب الله الشيعية في بيروت. تحجّرت طرابلس: كان الانشقاقيون تتصاعد قوتهم وأصبحت العقيدة السُّنية الصامتة في خطر. وتحت غطاء «مقاومة إسرائيل» كان حزب الله قد أصبح جيشًا في حدّ ذاته، وربما أكثر تفوقًا في قوته الضاربة من الجيش الوطني اللبناني. وعبر الحدود من طرابلس كان أبناء حماة وحمص الأوفياء يستميتون في الدفاع عن حياتهم ضد النظام الملحد الطغياني الذي يتصنّع العداء تجاه إسرائيل بينما هو يقوم بحملة قمع مخيفة ضد السكان السُّنة. كان الإسلام السُّني يخضع للامتحان على المحك وذلك في ساحة المعركة. لم يكن يبلي بلاء حسنًا. خلال القرون العثمانية كانت المجتمعات السنية في بيروت وطرابلس في لبنان اليوم وحمص وحماة ودمشق وحلب في سوريا متفوقة وكان «أعيانها» أعمدة النظام العام. كان الاستقلال الوطني الشرارة الأولى للجميع: السُّنة والجماعات المتحالفة والأقليات. كانت الأغلبية الأولية

للسُّنة، ولكن الزمن وديمغرافية الشيعة في لبنان وحكم السلاح والجيش في سوريا غيَّر التوازن وانتهى الأمر بالنسبة إلى الوضع الدفاعي. لقد لقبوا بـ «أيتام السلطان». وبالفطرة، اتّجه السُّنة في سوريا ولبنان إلى بعضهم البعض من أجل الدعم وبذلوا قصارى جهدهم لجذب اللاعبين السُّنة الكبار ـ مصر والسعودية ـ نحوهم. كانت الثقة الزائدة بالنفس التي يبدونها في الخمسينيات والستينيات تخفي وراءها ملفًّا على مدى تمكُّنهم من السلطة. لقد درَّسوا القومية العربية للعلويين في سوريا والشيعة في لبنان. والآن هذه المجتمعات استقوت بهذه الأيديولوجيات نفسها. وكان للتمدين دور أيضًا حيث انحدر العلويون من الجبال نحو دمشق. بينما انهال الشيعة من وادي البقاع وجنوب لبنان على بيروت، كان هناك تغييرات إقليمية كبيرة آخذة في الحدوث. انسحبت مصر منذ زمن طويل من الهلال الخصيب بينما قدمت إيران الشيعية حاملة الروح القتالية والبنادق والنقود. كان السعوديون يبذلون جهودًا حسنة لخلق توازن بين هذه القوى، ولكنهم لم يكونوا ولا أموالهم التي قدَّموها ندًّا للتغييرات على أرض الواقع. استطاع صحفي لبناني جريء يعمل في جريدة النهار «اللبنانية» يدعى رضوان عقيل أن يصوّر سخط طرابلس وإحساسها بالتضامن مع الثورة في الجوار في بداية آب/أغسطس، بعد مضي أربعة أشهر على القلاقل في سوريا، لم يخبّئ أي شيء عندما كان الصحفي يشاهد تظاهرات الشوارع حيث مضى في طريقه إلى مساجد المدينة ومنازل قادتها السلفيين. أحرق علم إيراني وكان موضوعًا بجانب علم إسرائيلي. قال أحد الناشطين للصحفي إن أستراليا البعيدة أقرب إليه من أحياء الشيعة التعيسة في جنوب بيروت،

معقل حزب الله. تلك أسلحة «مقاومة»: حزب الله التي أُلبست قداسة وحماية باسم محاربة إسرائيل إنما هي أسلحة «الزنادقة». إنه واجب كل مسلم أن يهبّ لمساندة إخوانه في الكرب وتدين طرابلس بالولاء للمسلمين في سوريا الذين يحاربون طاغية عديم الرحمة.

كان في طرابلس موطِنًا لواعظ سلفي ذا نفوذ، زكريا المصري، والذي كان إمامًا وخطيبًا في مسجد حمزة. زاره الصحفي وتحدث إليه في مكتبته المليئة بالكتب والمنشورات. أشار المصري إلى أن دعم السُّنة في سوريا واجب وجزء من «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر» في الإسلام، نظام دمشق يقتل السُّنّة، هذا كل ما في الأمر، والمؤمنون في طرابلس لا يستطيعون أن يقفوا متفرجين. لقد آلمه أن حزب الله ـ وعملاءه وأعوانه ومحطته التلفزيونية المعوّمة بسخاء ـ تكاتفوا لدعم الشيعة البعيدين في البحرين بينما طرابلس لم تستطع أو لم يُسمح لها لتثور دفاعًا عن أهل سوريا المحاصرين. قال الواعظ إن إيران وسوريا وجهين للعملة نفسها. إيران الدولة الإسلامية المزعومة، هي دولة خارجة عن حكم الإسلام. ينبغي أن لا يُخدع المؤمنون لنصرة زعيم حزب الله، حسن نصر الله. «هل ينبغي أن تدعم حسن نصر الله فقط لأنه يحارب إسرائيل، أو يدّعي عمل ذلك؟ إن ذلك مثل أن تحب هتلر لأنه كان عدوًّا لليهود. هدف نصر الله الوحيد هو حماية الدولة الفارسية ونشر نفوذها. إن مذهب الشيعة هو خطر على العرب، وأن يفهم العرب ذلك مبكرًا يكون ذلك أفضل». ليس لدى المصري أي رغبة في الحوار مع نصر الله وليس لديه صديق شيعي ولا يريد أن يكون ذلك. في نظره إن

الشيعة كفار (زنادقة ومرتدين) والعلويون أكثر من ذلك. كفارًا ليسوا من ملة الإسلام.

لا يمكن مصالحة طرابلس مع نظام السلطة في دمشق أو في بيروت. نجيب ميقاتي ابن طرابلس وأحد أرباب أعمال الاتصالات، هو رئيس وزراء في بيروت. لقد جاء إلى هذا المنصب بمباركة حزب الله وسوريا. قد انتخب عضوًا في البرلمان عن طرابلس. ولكن معظم أهل طرابلس قد تبرّأوا منه الآن. جاء شهر رمضان المبارك (تزامن هذا العام مع شهر آب/أغسطس) وكان ميقاتي، كما هو لائق برجل ميسور، يقدِّم طعام الإفطار للفقراء. وقد قوطعت صدقته وفي نظر عامة أهل طرابلس وليس فقط السلفيين ووعّاظهم. فإن ابن المدينة الثري قد انفصل عنهم.

في إدراكنا، يفترض أن يكون الشرق الأدنى لحل الخلافات ولكن هذه الطائفية ذات طبيعة مختلفة تمامًا، والاختلافات لا يمكن تغطيتها. بذلت المعارضة السورية أقصى جهدها لتدعي أن الثورة لا تشكّل خطرًا على العلويين والأقليات الأخرى. يوم من التظاهر، يوم جمعة، سمي تكريمًا لشخصية قديمة الشيخ صالح العلي، علوي بارز حارب ضد الفرنسيين في عام 1920. لقد قاوم تسلُّل الفرنسيين إلى قلب إقليم العلويين ومات في عام 1926، في عزلة جبل العلويين. قلة قليلة من الشباب السوريين من لا يعرف عن بطولاته ولكن الإشارة به كان يُقصد بها تطمين العلويين بأن لهم مكانًا في الثورة ضد آل الأسد. إن ذلك العرفان لا يمكن أن يضرّ ولكن حتى الشيخ صالح العلي كان شخصًا غامضًا. التاريخ القوي تبناه كابن سوريا الذي ثار ضد الحكم الاستعماري. ولكن في الجبل كانوا يعرفون الحقيقة. يتذكرونه

كقريب حارب من أجل استقلال العلويين وكان متشككًا في سياسة طبقة أعيان المدن وادّعاءاتهم الوطنية. هل كانت ميليشيا النظام، الشبيحة (الأشباح) يطوفون في المدن بملابسهم السوداء شبابًا علويين أعطاهم النظام أوامر وأطلقهم على المتظاهرين أم أنهم مجرمون وأدوات تخويف مأجورين؟ لا بدّ أنه كان من بينهم انتهازيون من كل جماعة حتى أولاد طيبون من السُّنة يرغبون في المال والمكافآت في بلد تنكمش فيه الفرص الاقتصادية. لا بدّ أنها كانت ظاهرة شبيهة بفدائيي صدام، رعاع ومجرمي صدام حسين من السُّنة والشيعة. ولكن يظل الافتراض الشائع والأسلم هو أن هؤلاء الشبيحة متدينون علويون جدد من الريف يقومون بالأعمال القذرة نيابة عن النظام.

في 23 أيلول/سبتمبر، ظهر فيديو يوتيوب على الـ«الجزيرة» أكّد لي وجود طائفية في هذا الزمان المريع. تمّ تصويره على مشارف حمص وكانت إحدى «الفيديوهات التذكارية» التي تصوّرها قوات الأمن والشبيحة وهم يعذبون ضحيتهم. تجد هذه الفيديوهات طريقها إلى السوق السوداء وتُباع عادة من قبل مرتكبي الجريمة أنفسهم. في هذا الفيديو نرى لؤي عامر، شابًا ملتحيًا يلبس ثوبًا أبيض في قبضة جماعة من «القوات الخاصة» التي يمكن التعرّف عليهم من الأشرطة الحمراء على أذرعتهم. كان يضرب بعضهم على باطن قدميه. وكان يُتلاعب به «خذ صورتي معه» قال أحد الجنود لرجل الكاميرا وهو يقبض على لحيته «التقط صورتي معاه» كان لؤي يتوسل الرحمة وكان معذبوه يريدون منه الإشادة باسم بشار ففعل، الإشادة الحزينة المقدّمة إلى القُواد في هذا الزمن العربي الحزين. وهتف الرجل «بدمائنا

وأرواحنا نفديك يا بشار» وطلب منه خاطفوه أن يقولها بصوت أعلى وكان يفعل ذلك والضرب بالعصا مستمر. كان الجنود يركلونه في الرأس ويقفزون على صدره. قالوا له «كذاب» غير مصدقين اعتراف ولائه لبشار.

كان هناك رجل دين سني، اسمه الشيخ عدنان العرعور، متحمِّس ولد في حماة ولكن مقرّه في السعودية، وكان له حضور قوي على التلفزيون وكان متأججًا في معارضته للنظام السوري. بالنسبة إلى العلويين كان عرعور جوهر الشرّ. كان أفراد القوات الخاصة يهزأون من أسيرهم قائلين: عرعور لا يستطيع أن يفعل من أجله شيئًا الآن، هل بإمكانه؟

إن هذا الاستعراض للوحشية لاينتج خيرًا أبدًا، يُظهر الفيديو التالي جثة الرجل وآثار التعذيب على كامل وجهه. عمل لؤي عامر في السعودية وكان لديه مدخرات، وكان لديه لحية وثوب. هل ستفعل به عصابة سنية الوحشية والازدراء نفسه؟ لا نستطيع أن نقدم إجابة مؤكدة، لأن الرجال والنساء في الأزمان والأماكن الوحشية ينهمكون في ذلك بلا حدود. ولكن الفيديو يبيِّن بشكل لا يَقبل الشك آثار ثأر طائفي. كان معذّبو لؤي عامر يعلمون أنهم سيقتلونه فالضرب بالعصا والاستهزاء كانت إجراءات إضافية من الوحشية والإذلال. لم تصدر أي تصريحات من قبل معارضين محترمين مجتمعين في اسطنبول أو بروكسل عند تأكيدهم على وحدة كل السوريين، تشير إلى كراهية طائفية.

* * *

لم يوصد الباب قط في وجه العلويين. لقد أصرّت المعارضة على أن «الطائفة الكريمة» بريئة من جرائم آل الأسد.

إن أي تصدع في الصرح العلوي اعتبر دليلًا على أن القدرة الفكرية الوطنية ما زالت بخير. عندما تحدّث ثلاثة رجال دين علويين من مدينة حمص ـ مكانتهم الاجتماعية غير معروفة ـ معارضين للنظام استبشر بانشقاقهم بأنه دليل على أنّ النصر قريب وأن العلويين لا بدّ وأن ينفصلوا عن الحكام. ولكن القطيعة لم تحدث حيث إن العلويين مرتبطة مصالحهم بالنظام ولا فكاك لهم منه. ليس هناك مكان يذهبون إليه. لقد اقتلعهم النظام من الفقر المريض والاضطهاد ومنحهم سلطة ومزايا والآن وضعهم في موقع الخطر. لقد استغرق أبناء الفلاحين أقل من خمسة عقود ليصعدوا إلى قمة السلطة. لقد جعل النظام التحدُّث عن الحياة السياسية من منطلق طائفي جريمة يعاقَب عليها. ولكن الحقيقة أقوى من المراسيم الرسمية.

إنّ أصدق تعتيم قام به علوي لمأزق جماعته ظهر في حزيران/يونيو 2011 على موقع «تعليقات سورية» من قبل كان يستخدم الاسم المستعار «خضر». كان للمقالة «عودة إلى المعضلة العلوية» طابع الأمانة المفقودة في كلٍّ من مراوغات النظام وتفكير المعارضة القائم على التمني. غاص خضر في قلب الواقع: قال «إنه ليس هناك ما يسمى بعلوي غير ممارس (لعقيدته). الإنسان يولد في العقيدة. لدى العلويين القليل جدًّا من الكتب الدينية، خمسة على الإجمال تعلمهم عن عقيدتهم. هويتنا محورها ثقافتنا، واللهجة الساحلية والاحتفالات الخاصة والعادات. ليس هناك بينهما شيء مشترك: نحن متّحدون في إحساسنا بالاضطهاد وخصوصًا أن العلويين سيطروا على أوضاع سوريا الأمنية لخمسين عامًا تقريبًا. يوضّح خضر غرابة ذلك،

إحساس بالاضطهاد يحرك جماعة حاكمة. يُذكر أن ذلك الإحساس بالاضطهاد يعيش دائمًا في نفسيتنا الجماعية. في الماضي أُجبر العلويون على الانعزال، وكان النظام هو الذي ساهم في تكاتفهم. إن المكان الوحيد لاجتماع العلويين على شيء حيث لا نُجبر على الادعاء بأننا شيء لسنا هو، هو الملاذ الداخلي العميق في حضن دولة الأمن. وجدنا أنفسنا في الأمان الأخوي داخل وكالات المخابرات، وأكاديميات ضباط الجيش ونقابات العمال والمزارعين في المناطق الساحلية. كانت كل هذه مؤسسات أنشأها وصرّح بها النظام، وربطت هويتنا بأمن الدولة وحكم الأسد. لم يكن لدينا تاريخ يُذكر، على الأقل ليس ما قمنا بتدوينه. كنا منشغلين كثيرًا في ادعاء أننا لا نختلف عن المسلمين لبناء هويتنا الجماعية، بل لا نعرف الكثير عن ديننا للالتزام به. عرَّف العلويون أنفسهم على مدى الـ 40 سنة الماضية كحكام لسوريا وليس أي شيء آخر». وأضاف «بأن خصوم نظام الأسد السابقين بدؤوا يتحولون إلى «بشاريين» عندما بدأ النظام يتعرض الآن للهجوم. معضلة العلويين في سوريا ليست شبيهة بمعضلة السُّنة في العراق تحت حكم صدام. فالسُّنة، الأقلية الحاكمة في العراق، هي جزء من الإسلام والجماعة السائدة في العالم العربي. لقد حظوا بالسيادة بين العرب في «بلدان تمتدّ من المغرب إلى السعودية». قال إن العلويين ينقصهم الإحساس بالثقة والانتماء. سوف يتوجب عليهم أن يناضلوا إلى النهاية ويبقوا مع آل الأسد تحت أي ظرف. إن المستقبل الذي يفكر به العلويون لا يسرّ حيث إن موطنهم لا يمكن أن يوفّر لهم الأمان»، هكذا اختتم هذا الكاتب الشديد التأمل مقالته.

لن يكون أمرًا هينًا التحدث عن هذه الأزمة العلوية التي لا يمكن حلّها. في 12 أيلول/سبتمبر في القاهرة قامت المعارضة السورية بمحاولة عقد مؤتمر تحت لواء الوحدة الوطنية. قدّمت مناشدة مفتوحة إلى العلويين. أعلن منظِّمو هذا المؤتمر أن التحزّب الديني جرم ولذا تكمن أهمية الحفاظ على الوحدة الوطنية. كان هناك إسلاميون في صفوف هذا الاجتماع، فقد أكّد المجتمعون أنهم لا ينظرون إلى النظام على أنه حكم جماعة بعينها ولكنه سلطة أولئك الراهنون بأن يكونوا أدوات ومستفيدين من العائلة التي في السلطة. قال هؤلاء المعارضون إن النظام لم يحابِ طائفة بعينها. لقد اضطهد الجميع وادّخر لأي علوي تحدّاه عقابًا أكثر قسوة بكثير ممّا يُنزله على الآخرين. لقد خيَّم شبح الاضطرابات الطائفية لأعوام الثمانينيات على تلك الجلسات وتحدَّث الذين اجتمعوا هنا عن الماضي. قالوا «إنه لن يكون هناك أعمال انتقامية طائفية ولن يعتبر أحد مذنبًا بناءً على انتمائه الطائفي».

أصاب توماس بييري (Thomas Pierret) الباحث المتمكن في الإسلام السوري، والذي قام بأبحاث ميدانية شاسعة في ذلك البلد عندما قال: ليس من المحتمل أن يُطمئِن ذلك العلويين، ولكنه أفضل من الهياج الذي اندلع في أعوام 1980. إن الوضع اللاهوتي للعلويين لم يتمّ البت فيه. ولا يمكن الاجتماع في القاهرة إلى أن يلتئم الصدع بين العلويين والإسلام السُّني العام.

لقد بذل العلويون جهودًا كبيرة للتأكيد على أنهم جزء من الجماعة الإسلامية. وقد كان لهذا أثر سلبي حيث إنه بناءً على مكوِّنات الاعتقاد فإن العلويين كانوا طائفة بدأت كانشقاق داخل

الإسلام وانتهت بأن أصبح لها استقلالًا عقائديًا ودينًا منفصلًا. لقي هذا الاجتماع في القاهرة دعم أحد الشخصيات المثيرة للجدال، الملتهب عدنان العرعور. اشتهر الواعظ السُّني من خلال قناة قمر صناعي، الوصال، والتي مركزها السعودية. لم يكن لدى العرعور للعلويين سوى الويل والثبور (جهنم والهلاك). وفي خطبة أُلقيت في أيار/مايو2011، وعد بأنه لن يلحق أي ضرر بالعلويين «المحايدين» في هذا الصراع، ولكن الآخرين لن يُرحموا وأن أجسادهم سوف «تُرمى إلى الكلاب». طغيان علوي من جهة ومن جهة أخرى مصير مرعب.

لقد أظهرت سوريا بشكل سافر، ربما أكثر من أي أرض عربية أخرى، خلل الدولة العربية ما بعد الاستعمارية، التوحيد الوطني كان ادعاءً. والدولة نفسها كانت غنيمة بالغلبة، وأُديرت من قبل فئة حاكمة تستولي على كل ما يمكن أن تنتجه البلاد.

ظنّ الشباب ـ الروم الأرثوذوكس، والسُّنة، والدروز، والإسماعيليون، والعلويون ـ الذين اجتمعوا قبل عدة عقود تحت راية البعث، بأنهم سوف يبنون شيئًا أفضل من نظام «الإقطاعيين» والتجار ورجال الدين. كتب الجيل الأول من البعثيين نعيهم لذلك الحلم المبكر بالمثالية السياسية. لقد انبثق الشبيحة بهراواتهم وبنادقهم من بطن تلك البراءة المتصلبة.

كان على المعارضين أن يتمسكوا بقدر من التفاؤل في وجه الاحتمالات العالية السلبية. لقد انتظروا أن يحدث انشقاق بين العلويين. تحدث إسماعيل الخالدي، رئيس «ائتلاف قبائل سوريا»، من هذا المنطلق إلى جريدة «الوطن العربي» في 30 أيلول/سبتمبر. قال إن الثورة ستنتصر خلال «شهرين أو ثلاثة»

وقوى الأمن لن تفوز، وأن «العائلة العلوية» سوف تنشق عن النظام لتحمي نفسها وتتحاشى العقاب ضد أعضائها. وأضاف بأن العلويين لم يثوروا لأنهم كانوا ينتظرون «ضمانات» من المعارضة تطمئنهم بأن أولئك الذين تلطخت أيديهم بدماء الشعب السوري هم فقط سيعاقبون.

قال إن العلويين لم يحكموا سوريا ولا البعث. لقد حُكمت البلاد من قبل عصابة مؤلفة من خمسة رجال: بشار وأخوه ماهر وثلاثة من أقاربهم من جهة الأم من آل مخلوف وهم محمد وحافظ ورامي.

قدَّم الزعيم القبلي السُّني تأكيدًا، حقيقة يقول بها الكثير من العلويين باستمرار، كان توضيحًا بالفرق وذا أهمية عظيمة لفقراء العلويين من أهل المدن والأرياف على حدّ سواء. ولكن فُقد ذلك التفريق في وسط هذا الصراع المتزايد في صبغته الطائفية. ليس هناك من لديه تنبؤ مقنع بمصير العلويين. ففي السيناريو الكارثي ـ سوف يهرع جماعة العلويين تجاه القرى الجبلية التي كانت موطنهم الأصلي.

كانت هذه تهمة مسدَّدة نحو العلويين منذ صعودهم إلى السلطة ـ بأنه في يوم مظلم عندما تُحطّم قوتهم سيعودون إلى جبل الأنصارية (جبل العلويين) وإلى السهول الساحلية عند قاعه. كانت هناك شائعات جديدة بأن النظام بدأ في تأمين نقاط الوصول إلى قلب أراضي العلويين، من جسر الشاغور في الشمال إلى تل كلخ على الحدود مع لبنان. كانت الجبال والقرى خلف مدينة اللاذقية الساحلية في سنوات ما بين الحربين، موطنًا لـ 90 بالمائة من سكان سوريا العلويين. وفي ذلك العالم

المعزول الذي حموه وحاربوا من أجل استقلاله ضد العثمانيين والفرنسيين وأعيان المدن الذين أتوا إلى السلطة بعد الاستقلال. وللذين يحبّون سيناريوهات المصائب، فإن العلويين سوف يضرمون النار في دمشق والسهول وهم يتقهقرون إلى عالمهم. قال رجل دين علوي صغير للصحفي السياسي نبراس كاظمي في عام 2007: «لدينا الجبل والساحل» كان هذا الرجل قيمًا على ضريح علوي في منطقة عالية في الجبال وقال عن السُّنة «لا نستطيع العيش معهم». ثم أتت القصة الخيالية «حلب وحمص وحماة كانت كلها مدن علوية ولكنهم كلهم قتلوا». كان ذلك عزاء، لأن الأرض والزراعة كانت قد اندثرت من زمن بعيد، وأصبح رجال ونساء الجبال متمدنين وأصبحوا متعلقين بنعمهم الجديدة. قد لا يكون التوحيد الوطني نجاحًا باهرًا، لكن لم يكن هناك جنرالات ورجال أعمال ومهنيين علويين يتلهفون على قرى السنين الماضيات. لقد ولد الأسد الأب في قرية أجداده القرداحة وأولاده كانوا نتاج دمشق.

أصبح الشعور بالطائفية يتزايد بمرور كل يوم، في 2 تشرين الأول/أكتوبر على طريق إدلب حلب قُتل سارية حسون، ذو الاثنين والعشرين ربيعًا، ابن مفتي الجمهورية. فقد وجّه المعارضون الشتائم إلى والده أحمد حسون واتهم بأنه ينفذ مآرب النظام نيابة عنه. وفي مظاهرة في حمص هتف المتظاهرون: «اسمع اسمع يا حسون، اخلع عمامتك وضع قرون». لم تكن تلك حادثة مفردة ومعزولة، ولم يكن حسون صديقًا لهذه الثورة فقد اعتبرها رياحًا يحرّكها الخارجيون ـ السعوديون والأميركيون وغيرهم.

هناك عُرف لدى سُنة سوريا بالابتعاد كثيرًا من حكام البعث حتى لا «يحرقون أجنحتهم» من جراء الاقتراب من الدولة. لقد عبَر المفتي ذلك الحاجز منذ زمن طويل. أشار الباحث توماس بييريت إلى أن المفتي الأول غير دمشقي يحتل ذلك المنصب منذ تأسيسه في عام 1947، رجل سياسي بمؤهلات علمية متواضعة. لم يكن غريبًا على الجدل وكان محطّ أنظار المعارضين السياسيين ـ الدينيين للنظام. في عام 2010 نقل عنه بشكل واسع في جريدة غربية في لندن قوله لمجموعة زائرين أميركيين مهتمين بالحوار بين العقائد، أنه «لو طلب مني النبي محمد أن لا أؤمن بالمسيحية واليهودية فلن أؤمن به ولو طلب مني قتل الناس سأقول له بأنه ليس نبيًا».

توافق ائتلاف من المحافظين الذين في دمشق وعناصر معارضيه للنظام من الإخوان المسلمين على إدانته. أدان واعظ سلفي ذو نفوذ من منفاه في لندن اسمه أبو بصير الطرطوسي، المفتي قائلًا له «زنديق وبلطجي للدكتاتورية. أنت يا حسون مفتي الطغاة. أنت مفتي النظام البعثي الطائفي الذي يقمع الشعب السوري بالحديد والنار. أريد أن أقول لك: كن مستعدًا لهلاكك. لا أحد يجرؤ على ذم وإهانة الرسول بدون أن يواجه عقوبة عظيمة في الدنيا والآخرة». وفي توافق غريب تداعى العديد من رجال الدين المعتدلين وناشطي المجتمع المدني، للدفاع عن المفتي ولكن الضرر قد حلّ. إن هذا الاغتيال الوحشي لابنه تذكير بالمخاطر الناجمة عن الخلط المميت بين الدين والسياسة وخصوصًا في زمن العواطف الملتهبة والنكوص إلى الأصولية.

ودَّع المفتي ابنه في حلب بتأبين مؤثر، يُعتبر في رأيي أحد أكثر الاستخدامات البليغة في اللغة العربية التي صادفتها في حياتي. أذيعت وكرِّرت إذاعتها على التلفزيون السوري. كما وضعت على اليوتيوب بتاريخ 3 تشرين الأول/أكتوبر. وكسيِّد في البراعة اللغوية قام المفتي بتقديم أداء نادر. تحدث عن ابنه وتحدث عنه كوالد مفجوع وناشد أهل بلاده المتعبين والعرب الآخرين، تناوب الأسى والتحدي في خطابه وتداخلت الفجيعة الشخصية مع المعنى السياسي للمناسبة، كان يتحدث ارتجاليًا كما أنه أشاد بالشاب المحب لعائلته وأصدقائه. قال للابن الراحل إن أمه وجدت له عروس المستقبل قبل يوم واحد فقط من اغتياله. عرف الأب أنه هو نفسه كان الهدف وتمنى لو أنه قُتل بدلًا منه. كانت هناك أعمال وحشية أنزلت على أطفال درعا وربط المفتي حزنه بحزنهم: «قلت لأبناء درعا إنّ دمكم هو دمنا وشرفكم شرفنا. لقد ربيت سارية ليكون شهيدًا في فلسطين وعوضًا عن ذلك فقد قُتل على يد واحد من وطنه. أتوسل إلى عوائل الشهداء لأن يقولوا يكفي قتل أطفال سوريا. ابني الآن في رحمة الله ولكن رسول الله قال إن هدم الكعبة المشرّفة حجرًا حجرًا أقل ذنبًا من قتل روح بريئة واحدة».

لقد عانى المفتي من أكثر الأعمال وحشية ولكنه كان فقط «جسرًا بين القائد والناس»، خادمًا لـ 23 مليون إنسان في سوريا. قال إن هدف زمن الفتن هذا ليس نظامًا بعينه أو حاكمًا بعينه، بل سوريا نفسها، هذه «البلد النبيلة المباركة» يُطلب منها أن تركع أمام أعدائها. كان هناك أعضاء في منصبه، شيخ الأزهر في القاهرة والشيخ يوسف القرضاوي في قطر، تحدّثوا

ضد نظام الأسد، تحدث المفتي إليهم مباشرة وذكّرهم بأنهم وابنه سيقفون أمام الله في يوم القيامة، وسيحاسب أصحاب الفتاوى على ما اقترفوه «أخبر رسول الله يا سارية أن العرب الآن لديهم قنوات تلفزيون فضائية وأن سوريا هي هدفها. وأصحاب الإنترنت سيقفون كذلك أمام الله الحكم والقاضي بيننا جميعًا». كان الوالد المفجوع علمًا في هذا الصراع وخاطب الحكّام العرب الذين أرسلوا «أسلحة وأموالًا» إلى سوريا والذين سحبوا سفراءهم. دعاهم أن يأتوا ليروا بأنفسهم السلام والأمان في مدن سوريا.

لم يطلب المفتي ثأرًا: «أقول لكم يا من قتلتم ابني، أسأل الله أن لا تجبروا على الشرب من كأس الحزن نفسها مثلي، كأس الأسى، أسأل الله أن يغفر لكم». كان رجل دولة وقدم تضحية للرجل الذي على رأس تلك الدولة. تحدَّث عنه كزعيم عرفه حق المعرفة، رجل لم يكن مغرمًا بامتيازات منصبه، بل أراد أن يقود سوريا إلى برّ الأمان ثم يتنحى جانبًا. قال القادحون إن رعاية الدولة قد رفعت مقام المفتي ـ ابن وصهر رجال دين من قبله ـ إلى مقامه الرفيع وأنه حصل على ثروة طائلة، والآن جرّب هذه الخسارة المروعة. كانت لحظة تنفيس لسوريا ولكن الحدّ قد رُسم وحرقة هذا الأب الذي كان عاجزًا في وجه هذا الزمن الجائر كبرت. كان لديه رسالة إلى أهل أولئك الشباب الواقعين في هذا الصراع. دعاهم إلى تسليم أبنائهم ودعا الحاكم إلى منح العفو إلى كل أولئك الذين حملوا السلاح بِمَن فيهم قاتلو ابنه ولكن لم يكن هناك سلام وشيك.

لم يستطع هذا المفتي أن يبرِّئ هذا النظام أو يُلبس أفعاله

غطاءً دينيًّا، وفي مدينته حلب كان هناك رجل دين مبجَّل بصدق، مفتي المدينة نفسها إبراهيم السلقيني. لقد مات بنزيف في الدماغ في بداية أيلول/سبتمبر، وتدور الشائعات أنه قُتل من قبل النظام. وأغلب الاحتمال أن موته عن عمر 77 عامًا كان موتًا طبيعيًّا. ولكن المشيعين لجنازته كانوا متأكدين أن موته أتى على يد قوات الأمن. لقد شُيع كشهيد وأصبحت لحظة وداعه تظاهرًا شعبيًّا سياسيًّا ضد بشار الأسد. كان السلقيني كل شيء لم يكُنه المفتي. كان عالمًا ومستقلًّا سياسيًّا. لقد بقي بعيدًا عن النظام، وأغضب السلطات عندما رفض دعوة لحضور إفطار مع بشار الأسد في شهر رمضان. لقد تحدّث ضد «حمّام الدم» في البلاد ووقَّع على عريضة مع علماء آخرين في حلب ضد عنف النظام. لقد حذَّر من أن هدوء حلب كان خادعًا وأن النظام سيتعرض للفناء ما لم يغيّر السياسة. كان لدى السوريين والحلبيين على وجه الخصوص - في عقر دار المفتي حسون - نموذجًا مختلفًا عمّا ينبغي أن يفعله رجال الدين في وجه الحكام الطغاة.

بصرف النظر عن حزنه على ابنه، عاد المفتي حسون إلى الأضواء بعد أيام قليلة. وهذه المرة ظهر كرجل مهام في النظام بصورة خالصة. كان لديه رسالة إلى أوروبا وأميركا في خطاب توعُّد جهنمي. قال إنه «عند توجيه أول صاروخ إلى سوريا ولبنان فإن أبناءنا وبناتنا سينفجرون ويصبحون انتحاريين في بلادكم. لا تقتربوا من بلدنا النبيل». سيقاوم شباب سوريا «العين بالعين والسن بالسن». وكان يريد أن تفهم أميركا ذلك قبل الجميع. كانت الموهبة ظاهرة. وأهم من ذلك النظرة السياسية التي رفعت الشيخ حسون إلى منصبه الرفيع. لم تكن لتفوت الرسالة على

اللبنانيين، فقد أدمجوا في عالم سوريا. لقد أكّد حافظ الأسد منذ زمن بعيد أن «السوريين واللبنانيين هما شعب واحد في دولتين اثنتين». نسخة من نظرة السوفيات إلى الأنظمة التابعة لهم. ومنذ ذلك الوقت تقبلت سوريا بتردد وجود لبنان كدولة، ولكن أهل لبنان كانوا رهائن في هذه الأزمة السورية وهذه كانت الرسالة التي وجّهها رجل الدين هذا.

لم تكن العلاقة بين النظام الذي يسيطر عليه العلويون والإسلام السُّني واضحة. لم يكن المفتي حسون بالطبع العضو الوحيد في النقابة الدينية الذي تكيَّف مع النظام، لقد فعل ذلك الكثيرون غيره. فمن جانبه أظهر النظام احترامه للإسلام السُّني - فانتهاك المساجد والهجوم على العلماء المنشقين جاء ذلك مع الثورة.

طرح جوشوا لاندس، أحد الباحثين البارزين في الشؤون السورية في الأكاديمية الأميركية، قضية تتعارض مع الانطباع عن نظام أقلية يحارب ضد العقيدة السنية السائدة: «آل الأسد بذلوا جهدهم لكي يكونوا سنة طيبيون وليس لجعل السنة ليبراليين طيبين». ولاحظ في منهج التعليم في مدارس البلاد: «أن التعليم الإسلامي في المدارس السورية تقليدي، جامد، وسني. لا تبذل وزارة التعليم أي جهد لغرس مفاهيم التسامح أو الاحترام تجاه التقاليد الدينية ما عدا الإسلام السُّني والمسيحية هي الاستثناء من هذه القاعدة. وبالفعل، كل المجموعات الدينية غير المسيحيين ينظر إليها كأعداء للإسلام وأنه يجب أن يحوّلوا إلى الإسلام أو يحاربوا».

فحص لاندس المواد الدينية المقررة على الطلاب في

المراحل الرابعة والخامسة والسابعة والتاسعة والثانية عشرة. ووجد أنّ محتواها عربي شمولي وسني، وكانت المواد صامتة حول العلويين والإسماعيليين والدروز وحتى عن الشيعة العامة. لم يُرد العلويون إيقاظ هياج الإسلام السُّني. كانت «علمانية» البعث هي التعرب والمراوغة. كان العديد من قادة حزب البعث «التاريخيين» من الأقليات ـ روم أرثوذوكس وعلويين ودروز وإسماعيليين. فلا عجب من الصمت ومن الاهتمام بالسنية السائدة. إن النظام الذي كان يرسل جهاديين شرسين إلى العراق فإنه محتوم عليه أن يعاني من عقابيل ذلك. والأهم من ذلك هو أن الغطاء العلماني سيمزّق من قبل هذه الثورة العنيدة. يشير لاندس إلى أن سوريا لم تختر اتخاذ طريق الليبرالية الدينية، ولكن هل كان مثل هذا الطريق مفتوحًا أمام الانشقاقية بحيث يتسنّى للعلماء والناس العاديين سوية أن يتحملوه ويتبعوه على مضض فقط لأن لديهم وسائل القمع والجبروت؟ هل كان بإمكان نظام سني أن ينجح أكثر في «إصلاح» التراث الديني؟ من الواضح والمنطقي أن الجواب عن السؤال الثاني سيكون بالإيجاب. ولكن بعد أعوام 1980 و1990 والرياح العنيفة التي هبّت على العالم الإسلامي فإنه من الأحسن التزام الحذر أمام المجهول وغير المجرَّب وكما لو كانت تريد التعويض عن خطر الطائفية، نرى أن المعارضة تصرّ الآن على شموليتها كتعويذة ضد الخطر. عندما أعلن تشكيل المجلس الوطني السوري في اسطنبول بتاريخ 2 تشرين الأول/ أكتوبر، كان أعضاؤه حريصين على إظهار تنوع هذه الجمعية المشكّلة. عندما أُعلن عن قيادة هذا المجلس، كانت تتكون من خمسة أعضاء من الإخوان المسلمين والقبائل، وأربعة من الأكراد، ومسيحي، وخمسة

«مستقلين»، وستة من بين اللجان التنسيقية وأربعة من «التيار الليبرالي» بقيادة أكاديمي منفي في باريس، البروفسور برهان غليون، كما كان هناك مقعد للجماعة الآشورية الصغيرة. ولإرضاء الأكراد، تمّ التأكيد على أن الاجتماع التالي سيُعقد في مكان آخر غير تركيا. كانت الأخبار من اسطنبول صامتة حول شأن العضوية العلوية في المجلس. ومن الممكن الافتراض أن أي مشاركة كهذه كانت ستحظى بتميُّز لو كان هناك علويون بارزون اجتُذبوا إلى المعارضة.

كانت المشاعر في اسطنبول شيئًا، وملامح الحرب الطائفية على أرض الواقع أمرًا مختلفًا تمامًا. لقد مرَّ السوريون بالطبع بتلك التجربة مرة قبل ذلك عندما اندلعت الحرب الطائفية بين الإخوان المسلمين والعلويين في نهاية السبعينيات وبداية الثمانينيات. لقد كانت أيامًا وحشية وشرسة من الاغتيالات المتعمدة وتصفية الحسابات وكانت المدن الرئيسة مسرحًا لحرب قائمة على أساس طائفي. إن القادة السياسيين لتلك المظاهرات من برلمانيين وصحفيين وناشطين من كافة أطياف الحياة السياسية الذين جربوا السجن والوحشية الرسمية ـ عرفوا ذلك التاريخ والصفحات ويخاطرون بكل شيء في حياتهم، كانوا خالين من هموم ذلك الماضي. المراقب الثاقب النظر، الصحفي الأميركي أنتوني شديد، والذي غطى هذه القصة من سوريا نفسها عندما كان بإمكانه ومن بيروت أن يرى عن كثب خط ذلك الصدع الأجيالي، لقد سمّى هذا الصنف من الشباب الذين لا يخافون والذين يهاجمون قوى النظام بـ «أبناء لا أحد». كان هناك صواب في هذه الملاحظة، لقد أُجبر الجيل السابق على

الخضوع أمّا الجيل الجديد فهو أكثر جرأة. ولكن الكبار كما لوحظ أعطوا الضوء الأخضر لهذه الثورة. كانت هذه ثورتهم بالنيابة مارسوها من خلال أطفالهم اللامبالين.

30
مد
الإ

الس
فلك

تش
الك
التي
العف

بـ (
وكغ
متكا

## الفصل الثامن

# ساريبفو على الأورونتس (نهر العاصي)

إذا أضفت حماة اسمها - والصدمة - إلى أحداث أعوام 1980 فسيكون هذا عهد حمص، صُنِّفت هذه المدينة بفخر كونها مدينة تقوى وجدية ومكان مقر خالد بن الوليد الفاتح الذي هزم الإمبراطورية البيزنطية.

وكانت منشأ ثلاثة رؤساء للبلاد وعدد لا يُحصى من الطبقة السياسية، وزراء وسفراء وغيرهم. كانت حمص والمدن التي في فلكها مكانًا يثير الشكوك حول فائدة التظاهرات السلمية.

لقَّب مغترب من حمص في «تعليق سوري» بتاريخ 18 تشرين الأول/أكتوبر2011م، حمص «عاصمة الثورة»، قدَّم الكاتب المجهول مقدمة مختصرة عن المدينة وسكانها والتغيرات التي مرّت في السنوات الأخيرة. كانت مدينة سنية في غالبيتها العظمى مع أقلية مسيحية مزدهرة عددها 15% تقريبًا من السكان.

قدَّر إحصاء عثماني سكان حمص في العام 1903 بـ 51000 نسمة (حمص الآن عدد سكانها 5.1 مليون نسمة) وكغيرها من مدن سوريا الكبرى كان يدير حمص مجموعة أعيان متكاتفة من العوائل التجارية والدينية.

وكان عدد قليل من هذه العوائل يملك معظم الأراضي الخصبة، وأدّت التغيرات الشاملة ـ التي أعادت تشكيل سوريا بكاملها ـ إلى تجنيد الأقليات في القوات المسلحة وصعود جيل شاب مدفوع أيديولوجيًّا من خلال حزب البعث والجيش - كل هذا حطَّم حمص ونظامها القديم. تزعزعت مكانة الأعيان وتغيّرت تركيبة المدينة السكانية، وسعى أهل الريف إلى إثبات وجودهم واستجابت جغرافية المدينة لهذا السيل، المسيحيون الحديثو القدوم سكنوا مناطق كبيرة من المدينة القديمة واستقر السُّنة في غرب وشمال وشرق أسوار المدينة القديمة وأصبح العلويون الآن ربع السكان متقوقعين مع بعضهم في الربع الجنوبي الشرقي، لم يكن هناك أي شيء غريب في انفصال الجماعات. كل المدن العثمانية كانت مقسّمة حسب المذاهب والأديان، وانغلقت حمص على نفسها في آخر أعوام 1970 وبداية أعوام 1980 عندما هزَّت هزيمة توأمها، مدينة حماة، ثقة السُّنة في حمص كذلك.

كان العلويون أهل النظام ولم يندمجوا بشكل جيد حيث تخبرنا أحداث الماضي، كان لهم الأفضلية في الرعاية الحكومية وتولوا المخابرات وقوى الأمن. لم تكن الأوضاع ساكنة في حمص ولكن الجماعات استطاعت أن تتعايش مع بعضها. في برقية دبلوماسية أميركية من عام 2010 تجد بناء على ما أدلى به الأسقف الملكاني الكاثوليكي إزيدور بطيخة ونائب البطريرك الأب عفرام، كانت جماعتهما مزدهرة كما قال قادتها الدينيون، تمتعت كنائسها بعلاقة «ممتازة» مع نظرائها المسلمين. كان الأسقف بطيخة قد خدم لمدة خمسة عشر عامًا في دمشق قبل أن

يتمّ تحويله إلى أبرشية حمص. قال إن الوضع في حمص كان أفضل بين المسلمين والمسيحيين لأن الجماعتين عاشا قريبين جدًّا مع بعضهما.

لم تكن المسيحية في خطر هنا. كان في أبرشيته 45000 كاثوليكي، الثانية في الحجم بعد دمشق، وقال الأب عفرام كنيسته الروم أرثوذكسية بقيت على عددها الـ 150000 بعد سنوات من الهجرة إلى الخارج.

خُرق سلام المدينة بسبب الثورة. لقد تبع ذلك النمط المألوف لدى المتابعين لحرب لبنان في السبعينيات والثمانينيات ومحنة ساريفو في التسعينيات. انفصلت أحياء حمص على طول خطوط الصدوع المذهبية كان السُّنة والعلويون في حالة حرب مع بعضهما (لم يكن المسيحيون على مسافة وسطية بين المجتمعين كانوا حلفاء للعلويين وبصورة أقل أو أكثر متضامنين مع النظام). لقد قيل لنا بأنه لم يكن هناك ما يدفع السُّنة إلى التطرف السلفي، بل امتعاضهم من عدم المساواة في الحصول على الفرص الاقتصادية ورعاية الدولة. وفوق ذلك فإن مثل هذا الافتراض يمكن تصديقه. ولكن الامتعاض كان قديمًا في تطوره، السُّنة كانوا يتربّصون من أجل الخلاص والانتقام.

كانت مدينة الرستن، في مدار حمص، على وشك السقوط بأيدي الثوار في أواخر أيام آب/أغسطس، وكان المنشقون قد أعلنوا موقفهم هناك بمساعدة السكان المحليين.

تسمَّت مجموعة من المنشقين باسم بطولي ذا معنى وهي كتيبة خالد بن الوليد. لعب الاسم دورًا في إبطال شرعية النظام العلوي بأنه حكم زنادقة دخلاء.

تمتد الرستن على الطريق الرئيس إلى حلب، وبدأت حمص تظهر تحديًا متزايدًا وكانت أحياؤها المتنوعة في حرب مع بعضها البعض. بدأ الثوار في استهداف المسؤولين المحليين التابعين للنظام وكذلك المعروف عنهم تعاطفهم مع النظام. وكردٍّ على ذلك انطلق الشبيحة في هياج مدمِّر. كان على النظام استعادة الرستن وإلّا سينتهي بها الأمر لأن تصبح مدينة محرَّرة وقاعدة للمزيد من المقاومة. جاء هجوم النظام في نهاية أيلول/ سبتمبر.

أرسلت قوات الأمن إلى الرستن مدعومة بالدبابات وطائرات الهليكوبتر. استمرت المعركة للاستيلاء على المدينة أربعة أيام. كان المنشقون قد انسحبوا وتراجعت كتيبتهم لإنقاذ المدينة، المزيد من القتل كما أعلنوا. استولت الشبيحة والميليشيا المحلية على المستشفيات والمستوصفات وحوَّلوا المدارس إلى مراكز اعتقال، وكعادة النظام، فقد أعلنت وسائل إعلامه عن وقوع خسائر كبيرة على الجماعات الإرهابية المسلحة.

لم ينتصر الثوار ولكن النظام لم يكن قادرًا على الإطلاق على إخماد الاضطرابات، قد يكون أن نقطة تحول حدثت في الرستن وحمص. وكانت المعارضة تتطور شيئًا فشيئًا نحو تحولها إلى عصيان مسلح. بدأ الصراع بأخذ صبغة مسلحة حيث كانت الأسلحة تأخذ طريقها إلى حمص وتهرَّب عبر الحدود السورية المسامتة. كانت بعض عناصر النظام نفسها تبيع الأسلحة في السوق السوداء. ووسط هذا العنف أصبح أهل حمص أكثر شجاعة ويسخرون من الدكتاتور ـ ويتنبأون بسقوطه ـ كان الأمر كما لو كانت حمص فخورة بتحدّي دمشق وحلب وتتفوق على

حماة. ظهر بعض الشعور بالذنب بين غالبية السكان حول استسلامهم للنظام وأنهم كانوا جبناء في وجه الإرهاب الرسمي، وأنهم يدفعون ثمنًا باهظًا لنفورهم القديم من الخدمة العسكرية وثقافة البنادق والأساليب العسكرية. والآن تقوم حمص بالتعويض عن كل ذلك وتمّ التخلص من الحذر، لقد سئم ورثة خالد بن الوليد من الانصياع للملاحدة.

في وسط آلام حمص، انتشرت قصة في بداية تشرين الأول/أكتوبر بأن ستيف جوبز، ذلك الرجل الذي سيطر على عصرنا التكنولوجي، كان الابن الحقيقي لرجل من حمص. يعود عبد الفتاح «جون» جندلي إلى عائلة حمصية ميسورة الحال. وقد اتجه إلى أميركا في بداية الخمسينيات عن طريق الجامعة الأميركية في بيروت.

وحصل على دكتوراه في العلوم السياسية من جامعة ويسكنسن. أصبح أبًا لطفل خارج إطار الزوجية وتخلى عنه للمتبني. كان ذلك مستقبل ستيف جوبز الذي نشأ في منطقة الخليج (Bay Area). وعلى طريقة أناس متعطشين لإثبات نجاحهم أينما يمكن الحصول عليه، أصبح جوبز الآن «حفيد حمص». انهال على الجريدة العربية الإلكترونية «إيلاف» سيْل من الرسائل من أهل حمص وغيرهم يجهدون في إثبات صلة بالعبقري. جاء في إحدى الرسائل: «إلى «إيلاف» إذا أردتم ستيف جوبز آخر، فتوقفوا عن قتل الأطفال السوريين». وجاء في رسالة أخرى مجردة: «لو كان جوبز في حمص لكان يتظاهر في الشوارع أو لكان والده يبحث عنه في غرفة الموتى أو السجن كما يفعل الكثير من الأهالي في حمص».

تواجد النظام هناك بأكمله آنذاك: كان أسلوبه هو العنف المتواصل. لم يكن لدى بشار غصن زيتون يقدِّمه. تحدث ثلاث مرات إلى بلاده في المرحلة الأولى من النزاع ثم اختار الصمت. كانت المظاهرات تزحف ببطء نحو العاصمة، وبحلول تشرين الأول/أكتوبر كانت هناك مظاهرات قرب قصر بشار الرئاسي، كانت أفكار الرجل من خلال «الضيوف» والوسطاء من لبنان والذين تمّ استدعاؤهم للاجتماع به. كان هناك شخصان مرموقان من السُّنة، رئيس الوزراء السابق سليم الحص من بيروت وعمر كرامي من طرابلس واللذين استُعملا بشكل ساخر. خرجا من مخبأ بشار المحصَّن ليقولا إنّ الحاكم مرتاح لأوضاع البلاد وإنّ سوريا تخطَّت مرحلة الخطر ووضعت الأمور خلفها وإن الإصلاحات التي يفكِّر بها الرئيس سوف تقود سوريا إلى مرفأ الأمان. (كان عمر كرامي رجلًا لا وزن له، أما سليم الحص فكان بالمقارنة شخصًا متنورًا ذا مكانة مرموقة وكانت رحلته إلى دمشق متناقضة مع سجله في الحياة العامة).

كان من المهم لهذا النظام المحاصر أن يظهر بأنه مسيطر. ذاع خبر بأن بشارًا أخبر وزير الخارجية التركي بأنه قادر على تحطيم سلام المنطقة «خلال ست ساعات لا أكثر». سيطلق صواريخ عبر مرتفعات الجولان إلى إسرائيل ويطلب من حزب الله إطلاق صواريخه على تل أبيب. وأبعد من ذلك، حتى سلام الخليج الفارسي سوف يتمزّق لو حوصرت سوريا ووقعت تحت الغزو الأجنبي.

أضاف بشار بأن سوريا ليست ليبيا (كان ذلك صيغة جديدة لموضوع قديم حول تفرُّد سوريا عند بداية الربيع العربي وهو أن

سوريا ليست تونس أو مصر ولذا فلديها مناعة ضد الثورة الشعبية).

حظي النظام بفرصة في بداية تشرين الأول/أكتوبر من قبل مجلس الأمن في الأمم المتحدة. ثم تقدم مقترح ضعيف لمجلس الأمن فيه إشارة باهتة حول إمكانية فرض عقوبات اقتصادية على دمشق. لقي المقترح دعمًا من الديموقراطيات الليبرالية ـ الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا ـ وإذا كان المتظاهرون في سوريا بحاجة للتنوير حول أساليب العالم القاسية فقد برهنت المداولات في مجلس الأمن على ذلك. واجه القرار اعتراضين من روسيا والصين. كانت هاتان الدولتان الاستبداديتان غارقتين في الطغيان ولم يكن بصوتيهما مفاجأة. الطغيان ملة واحدة والتظاهرات الشعبية خطر على هاتين المستبدتين وما هي مكرّسة له.

(روسيا لديها قاعدة بحرية في طرطوس الساحلية حيث لم تخبو الآمال الإمبراطورية بعد لدى سوريا). كانت قمة السخرية أن روسيا والصين استخدمتا تصرف النيتو في ليبيا كعُذر مسبق لمقاومة إعطاء القوى الغربية أي موافقة لحسم الموقف السوري المتأزم. أخذت النيتو، والحق يقال، قرار مجلس الأمن لحماية المدنيين الليبيين وإلى حق الإطاحة بحكم القذافي. وقد صمدت روسيا والصين عندما وصل الأمر لسوريا.

كان التصويت الدنيء في مجلس الأمن حول سوريا إدانة للقوى الثلاث الصاعدة والتي امتنعت عن التصويت حول ذلك القرار البسيط الهند والبرازيل وجنوب أفريقيا. لو كانت تلك القوى تسعى إلى تحقيق دور أكثر مكانة في العالم، ولو كان

سلوكها يعبِّر عن طموحها في تأمين دور دائم لها في مجلس الأمن، فإن تخليها اللاأخلاقي دليلًا على أنها ليست مهيّأة لتحمّل عبء المحافظة على نظام عالمي مهذب، كان عار الهند أكبر ديمقراطية في العالم، كله عليها. الهند تفكر دائمًا بكشمير ومبدأ السيادة الوطنية الكاملة التي يجب المحافظة عليه بأي ثمن. ليس هناك الكثير ممّا يمكن أن يُقال عن البرازيل وجنوب أفريقيا إن نظرتهم المتسامية إلى أنفسهم مجرّد تباهٍ ووهم. قيل إن البرازيل صدَّقت ادّعاء النظام السوري. دخلت جنوب أفريقيا إلى المسرح وخلفها الأداء المشين فيما يتعلق بأحداث ليبيا. لم يزعج بريتوريا طغيان معمر القذافي ولا ما فعله «ملك ملوك أفريقيا» الذي أضاع ثروات مواطنيه يمينًا وشمالًا ليشتري رضا وموافقة الكثير من الدول الأفريقية.

وبالحكم على سلوكه بعد قرار مجلس الأمن، نجد أنّ النظام اعتبر النتيجة كضوء أخضر للقيام بالمزيد من القمع، ففي 7 تشرين الأول/أكتوبر اغتيل زعيم المعارضة الكردي مشعل تمو في بلدته الأم القامشلي في الشمال الشرقي. كان تمو الذي ترأّس حزبًا كرديًّا صغيرًا قد قضى في السجن ثلاثة أعوام بسبب نشاطه. وعلى مقياس المشاعر الكردية كان تمو من دعاة الاندماجية. سعى حزبه إلى دمج الكرد في الحياة السياسية الوطنية العامة. كان عضوًا في المجلس الوطني السوري الحديث التكوين. كان الكرد والذين لا تقلّ نسبتهم عن 15% من المواطنين السوريين، حذرين من المظاهرات. كانوا قلقين من التعصب العربي القومي ولم يكونوا سعداء بالتأثير الذي تمارسه تركيا على الثورة السورية. عرفت القامشلي المدينة الرئيسة الكردية في البلاد،

مظاهرات منقطعة وجميعها كانت صغيرة الحجم. والآن دفع النظام الكرد بهذه الحركة إلى المعارضة.

انطلقت حشود لا تقل عن 50,000 في شوارع القامشلي متحدية الحكومة. أطلقت قوات الأمن النار على مسيرة الجنازة وقُتل اثنان من المشيعين.

كان النظام مشغولًا في كسب المزيد من أعدائه وطبقًا لطبيعته أعلن الإعلام الرسمي أن أربعة مسلحين في سيارة سوداء أطلقت النار على تمو فقتلته وجرحت ابنه. البلطجية والمتسلطون يفعلون ما يفعلون، لقد أعطى النظام للعصابات تصريحًا لإخافة رموز المعارضة المعروفين. تعرَّض علي فرزات، الذي هو وبلا جدال أشهر وأنجح رسامّي الكرتون السياسي في العالم العربي، للضرب المبرح. كُسرت يداه وتُرك ينزف على قارعة الطريق المتّجه إلى مطار دمشق. قبل الاعتداء عليه، كان آخر رسم كرتوني له يمثِّل القذافي في سيارة جيب يلتقط بشار الأسد الذي كان ينتظر من ينقله. وفي حمص، تعرَّض والدا عازف البيانو الشهير مالك جندلي المسنَّين للاعتداء داخل منزلهم. كان ابنهم قد شارك في مناسبة في الولايات المتحدة ضد النظام وقد عوقب الوالدين، الطبيب العجوز المشهور وزوجته المشهورة أيضًا على ذنب ابنهما.

رياض سيف أحد الأعضاء البرلمانيين السابقين وأحد الناشطين والذي جرب سجون النظام تعرض للاعتداء في وضح النهار بينما كان يغادر مسجدًا في قلب دمشق. لم يكن رياض في حالة صحية جيدة كان يعاني من السرطان ولم يكن هذا الإذلال والعنف ليردعه. كانت عضويته في المجلس الوطني السوري علنية

وحيث إنه كان داخل البلاد بينما الكثير من المعارضين خارجها فقد كان لقمة سائغة.

إضافة إلى ذلك كان هناك ناقد آخر للنظام، البرلماني السابق مأمون الحمصي، الذي عوقب حيث اختطف ابنه وأخذ بعيدًا من قبل قوات الأمن. انطلق حكام سوريا الآن ليبيِّنوا أنهم فوق الرقابة وبلا حدود.

إن هذا الازدراء العلني للتحذيرات والإدانات التي وجّهت ضدّ النظام أخفت الحالة العصبية لدى الحكام. فمع كل هذا الاستعراض التافة للقوة، فإنّ سوريا ليست روسيا أو الصين وليست حتى إيران حليفها الإقليمي وحاميها. إن بشار والعصابة الحاكمة حوله ليس لديهم ثروة تعتمد عليها الدكتاتورية، فقد وفرت صادرات البترول للنظام ثلث دخله والآن تقع هذه الصادرات تحت طائلة العقوبات الفعالة. وبشار مثل أبيه من قبل ضمن ودعم طبقات التجار ورجال الأعمال في دمشق وحلب عن طريق اقتصاد سياسي يتسم بالمحسوبية والأفضليات البيروقراطية ـ رأسمالية المقربين في أعلى مستوياته. والآن بدأ القلق يساور المستفيدين من النظام حول إمكانية بقائه. كان هناك أخبار ظهرت بأن الطبقات الغنية ـ المؤسسات السنية والمسيحية ـ بدأت تحمي مصالحها بالاستثمار في الثورة. لقد تصدَّعت ثقة العصابة الحاكمة. ففي 22 أيلول/ سبتمبر تمّ اتخاذ قرار حظر استيراد السلع التي عليها أكثر ضريبة جمركية أكثر من 5% وهي في الواقع معظم المستوردات إلى البلاد. قد وصل الاقتصاد إلى درجة الجمود الكامل وخرجت طبقة الأعمال التي غضَّت طرفها عن القمع بكاملها ضد ذلك الخطر. وبعد اثني

عشر يومًا استسلمت الحكومة. تلاشت تلك العنجهية التي رأت أنّ خطر الاستيراد سوف يساعد على التغلب على العقوبات التي فرضتها الولايات المتحدة والاتحاد الأوروبي.

واستمر الضغط للتخلص من الثورة وإخضاع السكان قبل أن يبدأ الانهيار الاقتصادي. حتى الشبيحة المرعبين هم أدوات النظام غير الرسمية الفاعلة للقتل والأعمال البربرية، لا بدّ من الدفع لها وقد زاد عنفهم حيث انهالوا على الناس العاديين لابتزازهم والحصول منهم على ما تستطيع الحكومة إعطائهم بعد الآن.

بدأت عجرفة حكام سوريا في التلاشي فقد كانت روسيا تقوم بتغطية النظام في مجلس الأمن بالأمم المتحدة، ولكن بعد أيام أعلن الرئيس الروسي ديمتري ميدفيديف أن هناك حدودًا لدعم روسيا وأشار إلى أن سوريا بحاجة إلى إصلاحات وإذا لم تكن القيادة السورية قادرة على القيام بتلك الإصلاحات فعليها أن تتنحى. ولكن هذا القرار يجب أن يُتَّخذ ليس في النيتو أو عن طريق بعض الدول الأوروبية، بل أن يقوم به الشعب السوري والقيادة السورية.

❋ ❋ ❋

ظهر هذا النظام من خارج الجيش وجنّد قوات الأمن والميليشيا من خارج الجيش. ولعقود ظلَّ الجيش محط الإجلال والثناء. كان من المنطق أن يأمل المتظاهرون بأن ينشقّ الجيش وأن تؤدي الانشقاقات إلى القضاء على النظام. وتفاؤلًا وتحت تسمية يوم الجمعة 14 تشرين الأول/أكتوبر «جمعة الجيش الحر». وذلك بعد سبعة أشهر كاملة من بدء التمرد، استمرت

آلة القتل بلا هوادة وقتل 21 شخصًا في ذلك اليوم. والجدير بالذكر أنه كان هناك انشقاقات لمجموعات من الجنود مع ضباطهم، سُنّة بدون شك، انفصلوا عن النظام. كانت هناك أفلام فيديو يلوحون بها بشارات هويتهم ويتحدثون بانفعال عن أسباب انشقاقهم. كان هناك صِدام بين المنشقين وقوات النظام، ولكن العصيان الكامل المأمول لم يحدث. ربما لم يستطع نظام الأسد إتقان مهارات تنمية مجتمع مزدهر ومحترم، ولكن يجوز القول بأن رجال النظام عرفوا كيف يؤسِّسون نظام قمع فعال، وبالطبع كان باستطاعتهم الاعتماد على ولاء العلويين، ولكنه لم يكن الولاء الطائفي فقط هو مَن أبقى على النظام بشكلٍ متماسك. كان هناك الكثير من الوحشية والمهارة في أسلوب استخدام وحدات الجيش، وعن كيفية عمل هذا النظام، تحدث منشقون تسللوا إلى لبنان إلى صحيفة «أجانس ـ فرانس» في الجيش اقتُل أو تُقتل. تقدَّم ملازم عمره 25 عامًا من محافظة حمص الوسطى بتفاصيل عن عمليات الجيش. قبل أربعة أشهر مضت كان يقضي إجازة في قريته عندما داهمها الجيش، لم يستطِع أن يتحمل ما رأى. دخل جنود منزل أحد المشكوك في نشاطهم، أطلقوا النيران على أرجل زوجته وبناته لإجبارهم على الإدلاء بمكانه. قال جندي عمره 20 عامًا وأيضًا من حمص إن فرقته غالبًا ما تلقّت أوامر بإطلاق النار على المارة الأبرياء. «رأيت مارًّا على دراجته وطُلب منّا إطلاق النار على ظهره». تمّ تكوين جيش سياسي فعال ـ مجندون من السُّنة، وقادة علويون وألوية من كتائب مختلفة تمّ دمجها ببعضها البعض. هؤلاء الجنود لا يعرفون بعضهم البعض وليس لهم تاريخ ألفة أو رفقة ولم يشك الجنود أبدًا أنهم أنفسهم سيُقتلون إذا لم ينفِّذوا

الأوامر. وأضاف الملازم الشاب قائلًا «فرحت لأني بحاجة أن أحيا بضمير نظيف، التحقت بالجيش لأحمي شعبي وأرضي وأحرِّر الجولان وليس حمص ودرعا».

أعطيت أوامر إلى الوحدات العسكرية بأن يَقتلوا أو يُقتلوا - اقتُلوا المتظاهرين أو اقتلوا أولئك الجنود الذين يرفضون الأوامر. منع الجنود من استخدام الهواتف الجوالة، ويمكنهم التفرج فقط على تلفزيون الدولة، وتمّ إعطاؤهم غذاءً مستمرًّا من المحاضرات حول طيبة عائلة الأسد وعطف القائد. يرسل الجنود إلى الجبهة ووراءهم عملاء المخابرات. القنّاصة فوق أسطح المباني يطلقون النار على الجنود الذين أشار إليهم ضبّاط قوات المخابرات. الجنود الذين لا يريدون المشاركة في القتل وأوقفوا إطلاق النار قد يعدَمون في الحال. لم تحمهم بذلاتهم العسكرية، فالنظام وأجهزة مخابراته كانوا قد تهيّأوا لهذه اللحظة.

أحمد، من حلب، بعث برسالة إلى قناة الجزيرة في 20 تشرين الأول/أكتوبر عندما علم بمقتل القذافي: «مبروك» قال لشعب ليبيا، أرجو أن يحصل هذا هنا في سوريا.

تلك الحالة من «حسد ليبيا» كان ظاهرًا، تخلص الليبيون من طاغيتهم والسوريون لا يزالون في وسط كفاحهم. لقد بدأ للتو الشهر الثامن من حربهم ضد النظام. ما زال الحكام مصرّون على «خصوصية» سوريا ومناعتها ضد المصير الذي آل إليه حكم زيد العابدين في تونس ومبارك في مصر والقذافي في ليبيا، عندما تخلّت عنهما قواتهما المسلّحة رحل رجلَي تونس ومصر المستبدين. ليس لدى بشار والعصابة الحاكمة أي نية

للرحيل، فوحدات القمع التي تحمي النظام استُثمرت فيه، فسلامتها نفسها تنبع من بقاء النظام. أما بالنسبة إلى الحالة الليبية، فالحكام السوريون واثقون بأنْ لا دلالة في ذلك تنطبق عليهم. وبالفعل، ومن منطلق السخرية، استخدم إنقاذ ليبيا من قِبل الروس والصينيين كحالة عملية النيتو التي تعدّت حدود ما أوكل إليها واعتبرت الضوء الأخضر في مجلس الأمن بالأمم المتحدة كإذن لها بالإطاحة بالدكتاتور القذافي. فبالنسبة إلى الروس والصينيين لن يكون هناك مرّة أخرى من التدخل من النوع الليبي، ومن جانبه فقد أعلم النظام السوري شعبه والعرب أن مكانته في منظومة القوة العربية تفوق بكثير مكانة الحاكم الليبي الغريب الأطوار. تفتخر سوريا في كونها عضوًا مؤسسًا في الجامعة العربية بكل حقوقها وصلاحياتها في تلك المنظمة أعلى بكثير من ادِّعاءات القذافي.

ليس هناك احتمال بأن تعمد الجامعة العربية، والتي أذنت لعمليات النيتو بحجة حماية سكان ليبيا المدنيين، إلى تكرار الشيء نفسه في الحالة السورية. وللحق، فإن الجامعة العربية لم تبرهن على خطأ نظام دمشق، وفي تشرين الأول/أكتوبر منحت سوريا مهلة خمسة عشر يومًا لكي يُنهي النظام العنف ضد المتظاهرين. كان لدى الثورة دائمًا الكثير من الرموز ذات المعاني القوية على لوحات تلوح بها أمام آلات التصوير. ذكرت إحدى تلك اللوحات من حمص أن الشعب السوري يذبح الآن «بإذن من الجامعة العربية». اعترف نبيل العربي أمين عام الجامعة العربية والمحامي الدولي الصدوق بضعف منظمته. لم تكن في متناوله قوات وليس سوى مجلس الأمن بالأمم المتحدة

الذي لديه السلطة لإجبار الدول الأعضاء على تغيير أساليبهم. خيمّ الصبر المطلق على المتظاهرين، كان هناك بيان محمولًا مؤثرًا يلوح أمام الكاميرا يقول ببساطة «معنا الله».

لم يتمّ الفصل في الصراع بين القوة التي لا تقاوم والهدف الذي لا يمكن تحريكه. كان بشار و«آلة القتل» حوله يبذلون قصارى جهدهم لتحطيم إرادة السكان، وإفهامهم بأنهم وحيدون في هذا العالم وأن لدى الدولة وسائل هائلة للقمع داخل الوطن وإمكانات دبلوماسية في الخارج. كان هناك معارضون هربوا من حنق النظام إلى لبنان وكانوا على الخصوص معرضين للأذى. لقد عبروا الحدود إلى محمية سورية، وباستطاعة النظام الوصول إلى داخل لبنان مباشرة واختطاف خصومه والتخلص منهم بسهولة وتنفيذ ما يريد من خلال أتباعه اللبنانيين المدنيين، كان هناك أصدقاء حرية سوريا في لبنان، شخصيات عامة مهمة ومثقفين يفقهون الرابط بين حرية سوريا وحريتهم، ولكن الانفجار السوري حدث عندما كانت هناك حكومة بقيادة حزب الله في بيروت متحالفة مع نظام دمشق، «لا أمان في لبنان» قال ذلك رجل في البلدة الحدودية تل كلخ من ملجئه في وادي خالد في أقصى شمال لبنان، ذلك الوادي الذي يصبّ من سوريا «الحكومة في لبنان متحالفة مع النظام السوري وهذا ليس سرًّا».

وعد مجلس وزراء حكومة نجيب ميقاتي الخانعة بحماية اللاجئين السوريين - كان هناك 3000 منهم - ولكن ليس هناك ما يثبت إمكانية تصديق ذلك الوعد. لم يحمِ الحكام اللبنانيون مواطنيهم ضد الجبروت السوري ولن يخاطروا بوقوع بطش

دمشق عليهم نيابة عن السوريين الهاربين من النار. ليس هناك معارض سوري للنظام آمن في لبنان. لقد طالت يد الرعب عالي المقام والبسيط على حدٍّ سواء. اختطف عامل كان يوزِّع منشورات ضد النظام هو وأخواه وأعيدوا إلى سوريا، شكَّت السلطات في بيروت أن ضابط أمن لبناني كان شريكًا في عملية الاختطاف، وكانت هناك حال اختطاف أكثر ذيوعًا في أواخر أيار/مايو، خرج شبلي العيسمي ذو الـ 89 عامًا من العمر وأحد القادة الأوائل في حزب البعث والذي خسر في نزاعات الجزب الدموية، لنزهته اليومية في إحدى المدن التي كانت ذات يوم مطمئنة في جبل لبنان ولم يعد بعدها. عاد العيسمي من الولايات المتحدة حيث كان يعيش لزيارة ابنته وربما للإشراف على نشر مذكراته. هذا الرجل الدرزي الذي لم يكن له أي دور منذ عام 1966 عندما تمّت الإطاحة به وبميشال عفلق و«الآباء المؤسسين» للحزب من قبل جيل شاب من الضباط، ولكن النظام لم يكن ليخاطر في أدنى أمر، واكتشف ضباط الأمن اللبنانيون دليلًا على اختطاف مرتبط بالسفارة السورية في بيروت. لم تفارق الشجاعة اللبنانيين. كتبت نائلة التويني ناشرة «النهار» وحاملة مشعل والدها عمودًا لاذعًا في 31 تشرين الأول/أكتوبر بعنوان: «لا تحولوا لبنان إلى سجن سوري» لبنان الذي كان دائمًا ملجأ لكل المضطهدين في العالم العربي وخصوصًا أولئك الذي سعوا وراء حرية الرأي والانتماء. إنه يتحول الآن إلى سجن وأداة في يد القمع السوري ذلك النظام الذي مارس كل أنواع الطغيان والتعذيب ضد اللبنانيين قبل أن يصوِّب بطشه ضد شعبه نفسه.

لم تتغير قواعد اللعبة في سوريا، كانت سباقًا من أجل الزمن بين النظام والمتظاهرين، فهم الحكام اقتصاديات الطغيان. كانوا يفرِّغون احتياطاتهم المالية، فالعقوبات التي فرضت على بيع البترول ظهر أثرها، وصبر طبقة التجار في حلب ودمشق والتمهل تجاه النظام، كان لها حدودها. ومن ناحية أخرى فالجماهير التي تخاطر بكل شيء في محاولتها للإطاحة بالنظام كانت تواجه حدود التحمل. الناس لا يستطيعون أن يعيشوا على أعصابهم يومًا بعد يوم ويواجهون النظام المسلَّح ومأجوريه. الحرمان دائمًا عامل في تحديات الإرادة - نقص الغذاء والدواء وعبء توفير ضرورات الحياة اليومية. لقد تلاشت وتيرة الحياة العادية. تقطعت دراسة الصغار «اليوم مدرسة وغدًا مركز اعتقال» كما تقول لائحة أحد طلاب المدارس خلال هذه الأيام. لا معنى للدراسة بدون حرية كما هتف أطفال المدارس المتمردين. النظام لن ينصرف والمتظاهرون لن يتوقّفوا عن العصيان.

* * *

كان هناك ولد يافع في الخامسة عشرة أو السادسة عشرة من العمر يلبس نظارة أنيقة ويحمل لافتة عليها «لو لم أكن سوريًّا لتمنيت أن أكون ليبيًّا» كان ذلك آخر تشرين الأول/ أكتوبر وقد شهد ذلك الشاب وآخرون من المتظاهرين مقتل الدكتاتور الليبي، وقد سرَّهم ذلك. كانوا يرون في عقاب القذافي كمقدمة لما يريدون لدكتاتورهم. كانت السلطة تجردت من سحرها: صدام حسين أخرج من جحر العنكبوت في عام 2003 وحسني مبارك يحضر على نقالة إلى المحكمة والآن القذافي يسحب من أنبوب تصريف المياه. أطلق على الجمعة

28 تشرين الأول/أكتوبر جمعة الحظر الجوي. كان التكتم حول المساعدة الأجنبية يتبدد والكبرياء بدأت تنحني للضرورة. سمير نشار، أحد أعضاء مجموعة مظلة المعارضة، المجلس الوطني السوري، قدم تعتيمًا صريحًا حول الجمود في الصراع مع النظام. قال إن التدخل الأجنبي والحرب الأهلية خيارات سيئة ومعظم السوريين يرفضون هذه الخيارات ولكن أسوأ النتائج الممكنة هو بقاء النظام. إن آخر الممكن ليس لها فترة حياة محددة لأن بشار ورث السلطة من أبيه ومع ذلك يمكن له أن يورثها لابنه. نحن لا نعيش في عصر الاستعمار وهذه أمامنا السابقة الليبية، لو لم يكن هناك تدخل عسكري لكان القذافي قد قضى على أهل بنغازي.

كانت وحشية النظام تهزأ من «الخط الأحمر» الذي طرحته المعارضة ومن عواطف القومية. حمص الآن مدينة تحت الحصار، ينقصها الخبز والماء والمؤن. الدكاكين التي دعم مالكوها النظام كانت تبيع الأشياء بأغلى الأثمان والتي دعم مالكوها الاحتجاجات تعرضت للسرقة والحرائق المتعمدة.

كانت تلك الجمعة قائمة بشكل خاص، استهدفت مدينتي حمص وحماة وقتل 40 شخصًا واعتقل المئات. كان ذلك أكثر يوم دموي منذ أكثر من خمسة أشهر. كان البلطجية على دراجات نارية يطلقون النار عشوائيًّا على الناس في حمص. وقُصف الجزء القديم من المدينة وهو حي سني. فهم النظام معنى هذا اليوم فبالتأكيد لم تكن هناك طائرات النيتو على المدرج في طريقها إلى سوريا. ولكن النظام لم يكن متأكدًا تمامًا من أن العالم الخارجي يستطيع تحمُّل القتل إلى ما لا

نهاية في سوريا. كان السناتور الأميركي المتقلب والذي لعب دورًا ليس بالصغير في الحوار حول ليبيا، بدأ يدعو إلى التدخل في سوريا. إن نظامًا تعوَّد على الشكوك المرضية لا يستطيع التأكد ممّا يجري داخل الديمقراطيات الغربية. وبالفعل تأكد النظام من إجراء جامعة الدول العربية. في 16 تشرين الأول/ أكتوبر رفضت الجامعة العربية في اجتماعها في القاهرة التدخل الأجنبي والعقوبات التجارية ورفضت حتى تعليق عضوية سوريا في الجامعة ولكن النيتو والدولة التركية المجاورة لا يمكن التأكد من موقفهما.

كان تغيُّر الموقف التركي مصدر قلق فالأتراك الآن يأوون ويمنحون اللجوء للمنشقين عن الجيش السوري ولا بدّ من النظر في منطقة حظر جوي ومنطقة محمية على الحدود قد تكون جاذبة للمنشقين عن الجيش والثوار، لم تتغير الخطة، كانت غارات النظام هي سياسة الحكام المستعجلين للفوز. ومرة بعد مرة أحبطت المظاهرات وحجمها وحدَّتها توقعات النظام بأنه قد اجتاز أسوأ مراحلها. ومن جهته كان النظام قد مسح «الخطوط الحمراء» التي يراعيها الحكام إذا كانوا يريدون الإبقاء على أبسط عناصر العقد الاجتماعي. لم تعد المساجد خارج نطاق الانتهاك وأصبحت المستشفيات والعيادات تتعرض للعنف. وثّقت منظمة العفو الدولية سلوكًا مستمرًّا من الإساءة والأذى والوحشية. أطلقت يد رجال قوى الأمن التحكم في المستشفيات، وكان الطاقم الطبي يشارك في الإساءة إلى المرضى وفي تعذيبهم. كانت المستشفيات الوطنية في بانياس وحمص وتل كلخ في غاية السوء. وبما أن الدم يمكن الحصول

عليه فقط من بنك الدم المركزي - والذي تسيطر عليه وزارة الدفاع - واجه الأطباء معضلة مؤلمة. فطلبات الدم قد يؤدي إلى تعريض المرضى لخطر الاعتقال والتعذيب أو الموت تحت الاعتقال. هناك شبكة علاقات اجتماعية ناتجة عن عصرية الحياة وأحيانًا تكتسب من مواجهة الصعاب، وكان نظام العناية الصحية هذا جزء منه - الأطباء والممرضات ومقدمو الرعاية نشأوا في بيئة من المعايير النبيلة. والآن أصبح هذا التراث من الماضي، حيث دمر النظام آخر أثر لنظام عام آمن. يستيقظ المرضى من الصدمات ليجدوا ممرضات في لباس أبيض مسلحات بهراوات وبنادق، وكان العاملون في المستشفى والأطباء الذين يُشك في تعاطفهم مع الجرحى يتعرضون للضرب المبرح من قبل قوى الأمن.

لم تركع المعارضة ولكن قادتها اعترفوا بأن النظام كان له اليد العليا في نهاية الأسبوع الذي تلا «جمعة الحظر الجوي» فقد قتل 60 شخصًا على الأقل وتعرَّضت حمص إلى عاصفة أخرى من العنف. لم يكن هناك خلاص في الأفق وأبدى بشار الأسد شجاعة مصطنعة. عاد للحديث عن مكانة سوريا في إقليم مضطرب وحساس خلال مقابلة مع جريدة «صنداي تلغراف» في 30 تشرين الأول/أكتوبر، سوريا هي محور المنطقة الآن، وهي خط الانكسار وإذا عبثت بالأرض فسوف تتسبب في زلزال - هل تريد أن ترى أفغانستان أخرى؟ أو عشرات أفغانستان؟ أي مشكلة في سوريا ستحرق كل المنطقة. قال إن نظامه فعل أخطاء في البداية ولم يكن مستعدًّا للانفجار ولكن الأمور تحسَّنت وقوات الأمن تلاحق الإرهابيين فقط. الدبلوماسية كانت تُحتضر

والتهديدات (الخفيفة) من الجامعة العربية كانت جوفاء وجهود الوساطة التي تقوم بها هذه الجامعة دعت «الطرفين» إلى وقف العنف الأمر الذي نتج عنه تعزيز إرادة الأسد. حذَّر وزير الخارجية القطري حمد بن جاسم آل ثاني، والذي لعب دورًا أساسيًّا في الصراع للإطاحة بنظام القذافي، أن المنطقة بأكملها في خطر التعرض لعاصفة هائلة. وحثّت الجامعة سوريا على سحب دباباتها من الشوارع ولكن كان ذلك من دون جدوى.

لم تنضب إمكانات النظام بعد، كان هناك الجيش السوري الحر المكوّن من المنشقين ولكنهم لم يكونوا ندًّا لقوات الأمن. تحدّث قائدهم الكولونيل من تركيا، وقد ظهر كما قيل في بذلة أعطيت له من قبل المعنيين به من الأتراك. بدأت تركيا علنًا بمهاجمة بشار ولكن لم تتجه للإطاحة به. كان ممثلو النيتو منتشين بسبب فعاليتهم في سماء ليبيا ـ وقد أعلنوا أن مهمتهم كُلّلت بنجاح باهر.

ولكن تلك الهدية التي قُدِّمت إلى ليبيا لم تكن في متناول السوريين، اشترك طيارون عرب وطائرات من قطر والإمارات العربية المتحدة والأردن في الحملة الليبية. وكانت قطر فعّالة على وجه الخصوص حتى أنها أرسلت قواتها إلى ليبيا. ولكن المعارضين السوريين كانوا وحيدين.

لم تتبنّ واشنطن قضية هذه الثورة، فالرئيس أوباما حامل راية القوة الأميركية مشى إلى منتصف الطريق في المهمة الليبية. كانت سوريا مهمة صعبة. كانت عينا أوباما على فترة رئاسية ثانية. سوف يستخدم في حملته ادعاؤه الذي يفخر به بأنه وفى بوعده لإنهاء الحرب في العراق ولن يحمِّل نفسه عبء حرب أخرى في

الهلال الخصيب. كانت هناك تلك الآمال التي علّقت على بشار والتي أكدتها البرقيات من دمشق.

سبق ذلك قراءات متحفِّظة حول توازن القوات بين النظام والمعارضة. وقد طرأ على الموقف الأميركي تغير بطيء ومؤلم، الأمر الذي لم يكن مصدرًا للتفاؤل بين الثوار. في 22 نيسان/ أبريل دعا البيت الأبيض الأسد «لتغيير سياسته الآن والإنصات لمطالب شعبه»، «الإصلاحات المجدية» كانت متأخرة ولكن الحكام «قدموا مصلحتهم الشخصية على مصلحة الشعب السوري».

في تموز/يوليو جاء تصريح أقوى وكان هذه المرة من وزيرة الخارجية «الرئيس الأسد ليس من لا يُستغنى عنه وليس لديه ما يعوّل عليه لبقائه في السلطة. إذا كان هناك من يعتقد بمن فيهم الرئيس الأسد الولايات المتحدة تأمل سرًّا بأن النظام سوف ينجو من هذا الاضطراب للاستمرار في وحشيته وقمعه فهم مخطئون». وفي 12 آب/أغسطس بيَّنت وزيرة الخارجية تذبذب السياسة الأميركية. وحتى ذلك الوقت كان القمع في شهره الخامس ومستمرًّا. هناك شخصيات معارضة خارج سوريا وداخلها ولكن ليس هناك عنوان للمعارضة. ليس هناك مكان لنا، فالذين يرغبون في المساعدة تذهب إليه. هناك عدة عناوين للتواصل آنذاك ـ في درعا وحماة وبانياس وجسر الشغور ـ ولكن التصريحات الأميركية كانت تعكس صدق عدم الإرادة في اتخاذ دور قيادي بخصوص الشؤون السورية. ولم يحصل ذلك إلّا في كلمة للرئيس أوباما في 18 آب/أغسطس حيث طلب من الحكم السوري أن يتنحّى. «لقد قلنا باستمرار إن على الرئيس

الأسد أن يتقدم بتحول ديمقراطي أو أن يتنحى جانبًا». ولم يفعل ذلك. ومن أجل مصلحة الشعب السوري فقد حان الوقت لكي يتنحى هذا الرئيس.

إن الردّ في مناداة الرئيس الأسد لكي يتنحى أمر مفهوم. كان النقّاد يضحون من أجل هذا النداء وكان يفعلون ذلك بخصوص هذا الوضع السوري. لقد حصل النداء واستهلكت الخيارات غير الجبرية، والآن إمّا التخاذل أو اللجوء إلى القوة. كان الرئيس أوباما واضحًا من كل جهة بأنه ليس هناك رغبة في الإطاحة بنظام الأسد عن طريق القوة العسكرية.

بعد هذا الظهور على التلفزيون، لم يُر ولم يسمَع عنه أبدًا: ستستخلص المعارضة أحكامها: السلطات التركية سلمته لدمشق. حاول الأتراك أقصى الجهود، ولم يستطيعوا الحصول على جواب لما حصل حول هذا الموضوع. حاول تحاشي رئيس الوزراء أردوغان التساؤلات وقال إن الأمر سوف يتمّ توضيحه وسوف يتم تبرئة الأمن التركي من الشكوك حول التواطؤ في هذا الأمر. وفي معسكر اللاجئين الذي كان ملاذه الآمن، قالت زوجته غفران حجازي إنها لا تعرف هل هي زوجة أم أرملة. تحدثت عن إحباطاته في الجيش وقالت رؤساءه الكبار، وكلهم علويين، سدّوا باب ترقيته. قالت إنها تعرف قواعد هذه الحرب المخيفة. لا تعتقد أن الناس يخرجون أحياء من غرف تعذيب النظام. احتسبته مفقودًا وتمسكت بالعزاء بأن الجنة مأواه.

كانت الاتصالات بين الحكام في أنقرة والآخرين في دمشق غامضة للمعارضة السورية. تستطيع تركيا استضافة مؤتمرات

المعارضة. ولكن قصة حسين حمروش كانت تذكيرًا للمعارضين أنهم في مواجهة صعبة أمام نظام متعمق في الحيل القذرة التي تلعبها الدول.

تعتبر العراق أكثر المناظر غرابة بين جيران سوريا. خلال سنوات القلاقل المريرة (2003-2008) كانت سوريا تمثل خطرًا على النظام الجديد في بغداد. في عام 2003 طلب النظام من أعلى سلطة دينية لديه المفتي أحمد كفتارو أن يعلن الجهاد ضد الأميركان في العراق والذي هو واجب على جميع المسلمين. كانت حدود سوريا ـ العراق الممر المفضل للجهاديين العرب الحريصين على الحرب ضد الأميركان والشيعة. كانت سوريا هي حيث استقرت بقايا حزب البعث العراقي والأعداء الألداء للنظام العراقي الجديد.

مارس أشهر نواب صدام حسين، عزت إبراهيم الدوري (ملك الشرية في قائمة أكثر المطلوبين للعدالة من المسؤولية العراقيين)، عملياته من سوريا بعد سقوط سيده صدام حسين. كانت لديه كميات هائلة من النقود وأكثر من ثلاثة عقود من التواصل مع آل الأسد وعملائهم. كان يعمل في التجارة غير المشروعة مع أفراد عائلة الأسد نفسها.

والآن يعمل قائدًا للمقاومة البعثية مع أصدقائه ومقامه السياسي يهيىء له النفاذ والغطاء، وبالنسبة للمطاردين وبقايا البعث الذي يحاربون ضد المشروع الأميركي، كان الدوري حلقة الوصل للنظام القديم. وكقائده كان الدوري عدوًا للإسلاميين. ولكن عندما كان ملاحقًا تحالف مع الجهاديين وكانت تصريحاته خليطًا نموذجيًا من الدين والسياسة والحرب ضد «الكفار»

والمتعاونين معهم. ولم يكن الهارب الوحيد الذي كان على العراقيين أن يقلقوا منهم. كان هناك ميشان جبوري العضو السابق للبرلمان العراقي الجديد والذي جُرِّد من حصانته بتهمة الفساد ثم هرب إلى دمشق حيث افتتح محطة تلفزيون تمجد حرب الجهاديين في العراق.

كان لجبوري زوجة عراقية وأموال كثيرة، وتعرض المحطة التلفزيونية خاصّته أفلام فيديو عن هجوم المقاومة ضد القوات الأميركية وتركه السوريون يعمل ما يشاء، محطته الجديد «الرأي» كانت لا تزال ناشطة في عام 2011. وكانت آخر الوسائل التي استخدمها معمر القذافي لنداءاته للحرب ضد ليبيا الجديدة وتهديداته العنترية بتحويل البلاد إلى حمم بركانية ونيران».

خلف هذه الشخصيات المعروفة والبعثيين الحالمين بالعودة والانتقام، كانت هناك فرص تجارة أمام الوسطاء السوريين الذين يحرسون الجهادين وينقلونهم من مطار دمشق إلى حدود العراق. وكانت هناك سياسة متعمدة لتثبيط الحرب الأميركية وجعل الأميركيين والعراقيين منشغلين مع المقاومة الدامية. كان الحكام الجدد في العراق يعانون في محاولة تثبت أقدامهم ويتميزون غيظًا ضد نظام دمشق. وفوق ذلك كان من المفترض أن تكون الديموقراطية الناشئة في بغداد مع المعارضة السورية ولكن كانت هناك سياسة مختلفة على المسرح: كانت حكومة رئيس الوزراء نوري المالكي بقيادة الشيعة تقف علنًا بجانب الحكام السوريين، وفي استعراض للعناد المذهل الفاضح دعا نوري المالكي المعارضة السورية إلى سلوك نهج الديموقراطية والاشتراك في انتخابات بلادهم، لقد قضى المالكي سبعة عشر

عامًا في سوريا كمنفي هارب من نظام صدام حسين. كان عميلًا لحركة شيعية سرية ناشطة «حزب الدعوة» لقد اختار سوريا لأنه لم يتأقلم مع إيران التي غادرها بعد عدة سنوات من التجوال.

إن سنوات المالكي في سوريا تفسِّر لغز سلوك العراق تجاه الثورة السورية. عندما كانت الدول العربية الأخرى تخفض من مستوى علاقتها مع سوريا ـ السعودية والكويت والبحرين كانت قد سحبت سفراءها من دمشق. بحلول آب/ أغسطس كانت العراق تأخذ الاتجاه المعاكس كانت تقدم لدمشق الدعم المعنوي وتوقع اتفاقات تجارية مع النظام المحاصر.

قدم نزار كاظمي، الكاتب والباحث العراقي القدير تحليلًا لوجهة نظر المالكي حول الصراع في سوريا. فبداية، إن السنوات الطويلة في سوريا كانت تتطلب حماية وتمويلًا من مضيفي المالكي. وهذه لا يمكن أنها كانت سنوات جيدة لعراقيين معارضين لنظام صدام حسين، لم يكن هناك أمل بسيط بأن طغيان صدام حسين يمكن الإحاطة به.

يشير كاظمي إلى أنه عندما كان نوري المالكي في سوريا فقد سكن في حي شيعي متواضع في دمشق. كان هناك خلال فترة الصراع الدموي بين الأقلية العلوية والإخوان المسلمين. لقد شاهد مقتل المهنيين العلويين بدون أي سبب سوى تبعيتهم الدينية. كان طائفيًّا، وهذا لا يمكن إنكاره وكان اندماجه الشخصي الشيعي عميقًا وقد عزت سنوات سوريا اعتقاده في قوة الانشقاق السُّني الشيعي. إن القول بأن العراق يميل نحو سوريا بتأثير من إيران على أعلى تقدير، حقيقة جزئية، لقد كانت تلك سياسة عراقية متعمدة اعتمدت في قوتها على نظرة رئيس الوزراء المالكي والذين حوله.

في عالم مثالي، سيقدَّم إلى المتظاهرين السوريين أندر الهدايا سيطيح الأميركان بهذا الطاغية ثم يجدونه في جحر عنكبوت أو أنبوبة تصريف مياه بدون طلب المعارضين السوريين المساعدة العسكرية علانية. ولكن العالم الذي نعرفه لا يحقق أماني كهذه.

لأكثر من أربعة أشهر بقي بشار الأسد بعيدًا عن الأضواء فقد منعت وسائل الإعلام الأجنبية من التواجد في سوريا. ولكن بنهاية تشرين الأول/أكتوبر جهّز هو وموجهيه أنفسهم للتواصل ولم يكن ذلك متاحًا لجميع وسائل الإعلام، ولكن النظام كان حريصًا على أن يبدو صادقًا ويدلي بالجانب الخاص به من القصة. إن هذا الانفتاح البسيط ربما كان من أجل الإيماء برسالة فحواها أن النظام قد انتصر وليس لديه الآن ما يخبئه وفي تتابع سريع، أجرى بشار مقابلة مع قناة «1» الروسية ومقابلتين مع «صنداي تلغراف» وجعلت بثنية شعبان، إحدى مساعديه المقربين وأستاذة الأدب، نفسها في متناول جريدة «الإندبيندنت» وسمح لصحفي من جريدة «واشنطن بوست» بالدخول إلى دمشق مصحوبًا بضباط الأمن والصحفي البريطاني أندرو جيليجان أجرى مقابلة مع الحاكم خاصة لـ «صنداي تلغراف» وسمح له الدخول إلى حماة.

ظهر رجل العصرنة، والذي قضى عامين في لندن، من أجل المقابلات. قوبل أندرو جيليجان في منزل متواضع من قبل الحاكم الذي كان مرتديًا جينز. كان ذلك هو الدكتور بشار الأسد مرة أخرى رجل السياسة الجاد. قال «إن المظاهرات تتلاشى، وإن جذورها أساسًا ليست سياسية: إنها حول المجتمع ككل،

تنمية المجتمع. مشاكل مختلفة انبعثت كأزمة واحدة. لقد تبنينا اقتصادًا ليبراليًّا. إذا فتحت اقتصادك بدون إعداد لذلك فإنك تفتح الفجوات بين الطبقات الاجتماعية. إذا لم تتبع النموذج الاقتصادي المناسب فلن تستطيع حلّ المشكلة، كانت هناك قيادة لجمعية الكمبيوتر السورية. وكانت معرفته الكمبيوترية ظاهرة كذلك. مقارنة القيادة السورية بنظيرتها في بلد عربي شبيه بمقارنة ماك بـ بي سي. «كلاهما يؤديان المهمة نفسها ولكنهما لا يفهمان بعضهما. أنت بحاجة إلى الترجمة. إذا أردت أن تحللني على أنني من الشرق، لا يمكن أن تحللني من خلال نظام تشغيل غربي. عليك أن تترجم بناءً على نظامي التشغيلي أو ثقافتي». عندما قال له الصحفي إن ذلك هو «النيرد الداخلي» لديه هو الذي يتحدث، ضحك بصوت مرتفع، وسُرَّ الصحفي لمرور هذه الدعابة بسلام. الحاكم رجل محبوب، هكذا تحدث عن نفسه: «أعيش حياة عادية، ولدينا جيران، آخذ أولادي إلى المدرسة ولهذا أنا محبوب. من المهم جدًّا أن أعيش بهذه الطريقة، إنه الأسلوب السوري» بعد يومين كان الصحفي نفسه في حماة برفقة «حرّاسه» بالطبع وجد «مدينة الخوف والأشباح» كان هناك قناصة في القلعة البيزنطية على أهبة الاستعداد لإطلاق النار على الشوارع كيفما شاؤوا، وكان الناس الذين قابلهم الصحفي في غاية الخوف. لم يكونوا على استعداد للإدلاء بأي شيء. أشار الحاكم أن المدينة في سلام على الأقل 90 في المائة أو ما يقاربها «أهم شيء هو أننا نشرنا الحضارة والمحبة والتعاون مع الناس» في داخل مكتب الحاكم كانت هناك شاشات تعرض صور تلفزيون دائرة مغلقة من مختلف أنحاء المدينة «فقط تحسبًا لحدوث المزيد من انعدام المحبة والتعاون».

كان الوضع هكذا في مملكة بشار الأسد: تناوب النور والظلام، وجد النظام الشبيه بجانوس يظهر للعالم الخارجي والقمع المخيف. وعلى الطريقة نفسها حدث ذلك في 3 تشرين الثاني/نوفمبر عندما أعلن النظام عن قبوله مبادرة من الجامعة العربية لإنهاء القتال بينما قتل 34 شخصًا بسبب العنف. وفي حمص، لخَّصت لافتة رأي المتظاهرين: «الجامعة العربية والنظام السوري وجهان لعملة واحدة» ظهرت القطيعة بين النظام والجماهير في فعل لا بدّ أنه مستوحى من ليبيا، عندما طرح علم القذافي الأخضر جانبًا ورُفع علم الملكية.

نُشر علم استقلال سوريا القديم لأول مرة على مشارف دمشق. كانت البلاد تبحث عن استقلالها الثاني ـ وفي هذه المرة استقلالها من الطغيان.

## الفصل التاسع

# الطريق مسدود

بالرغم من كل الاحتمالات السلبية الثقيلة التي يواجهونها كان خصوم النظام يحاولون طرح شبه بديل. في 6 تشرين الثاني/ نوفمبر عشية عيد الأضحى ظهر برهان غليون رئيس المجلس الوطني السوري على هواء قناة الجزيرة ليوجِّه خطابًا إلى «الشعب السوري العظيم». كان يحيط به من جهة رف كتب والعلم السوري على الجانب الآخر، ظهر برهان غليون بمظهر قائد وطني آخذ في الصعود بعكس أسلوب بشار. سوريا لن تكون مزرعة أحد، كما قال غليون وإنما دولة حقوق وقوانين، وقال «أثارت شجاعتكم إعجاب العالم، وبمرور كل يوم وكل قطرة دم تُراق فنحن نتقدم خطوة أقرب إلى الحرية» تحدّث عن الأكراد «الكرد الذين سينالون حقوقهم التي حُرموا منها لزمن طويل. في النظام السوري الجديد لن يكون هناك حديث عن الأغلبية والأقليات وسيصبح الوطن الذي أحاله النظام إلى «سجن كبير» وطنًا للجميع». وتقدم بالشكر إلى الجنود الذين رفضوا تنفيذ الأوامر غير العادلة وحذّر أولئك الذين ينتهكون حقوق الناس بأنهم لن يتمكنوا من تبرئة أنفسهم على أساس أنهم كانوا فقط يتبعون الأوامر. وتحدث عن «الخائفين أو المترددين وأخبرهم بأن

تلك هي ثورتهم وأن المجلس المؤسس حديثًا هو لهم وهو السبيل لجعل صوتهم مسموعًا».

كانت الكلمة خالية من الضجيج وكان الرجل الذي يلقيها عالم اجتماع سياسي فرنسي التعليم. كانت كتبه دائمًا تجريدية وأحيانًا لا يمكن التعمُّق فيها، وبها مسحة يسارية. كان بدون شك يعلم أنه كان يتحدث من قاعدة منفاه الآمنة في باريس، من بلاد منظمة وغياب طويل عن سوريا. ولد غليون في حمص عام 1945 وكان قد غادر في عام 1970 عندما كانت البلاد تنزلق تحت سيطرة حافظ الأسد. تذكر صباه عندما كانت سوريا متماسكة. كان والده مربي خيول، وكان الابن يمارس ركوب الخيل «عبر المساحات الشاسعة المفتوحة شرق حمص، مناطق جميلة قد اختفت الآن» وعلى طريق المنفيين الذين يتوقون إلى أماكن تزيّنت وتحجّرت بالذاكرة. كان يتذكر القفز على الحجارة ليعبر إلى نهر العاصي. أحبّ مقام الخليفة عمر بن عبد العزيز «ذلك المبنى البسيط على تل صغير» حيث كان يقرأ كتبه في الظل. ابتهج بذكرى الغوطة تلك الحدائق والبساتين على مشارف دمشق، أماكن صارخة الجمال ومنعشة للروح في آن واحد. بالنسبة إلى أمور السياسة، كان شابًّا مؤيدًا للزعيم المصري جمال عبد الناصر، والآن وبعد نصف قرن لا يزال يعتقد بأن انحلال الوحدة القصيرة العمر بين سوريا ومصر كانت غلطة.

كانت هناك آنذاك جلبة في كل مكان ولم تكن كلها مفهومة ومرتبة ومتناسقة، ولكن كل ذلك تمّ نسفه كما قال عندما جاء الأسد إلى السلطة «ذلك الحكم التي تحول إلى الفاشية» وكان نهاية لـ«الحياة السياسية في سوريا». حمص

الأمس تلاشت سياسيًا وطبيعيًا، ومدينة مولد غليون اليوم أصبحت مسرحًا لحرب مريعة. كان هناك حديث عن المبادرة العربية لوضع حدٍّ للعنف، ولكن في غضون خمسة أيام قدَّرت اللجان المحلية المنسِّقة والتي تنظم وتوثق المظاهرات، إن 111 شخصًا في حمص قد قتلوا. كان هناك تقرير مروع عن حافلة صغيرة هوجمت وقتل فيها أحد عشر علويًّا. بابا عمرو، الحي السني، كانت تُطلق عليه القذائف يوميًّا. تعدى أهل حمص اعتبارات القومية فأحياء العلويين أصبحت الآن أرض الأعداء، والمسيحيون الذين يتربصون منتظرين انتهاء العنف اعتُبروا متواطئين مع النظام.

كان الحكّام حريصين على محو الفرق بين المقاتلين والناس العاديين الذين وجدوا أنفسهم وسط النزاع. كان العلويون يُدفعون للقتال، كان المتظاهرون من مدينة تل كلخ السُّنية قد تمّ فصلهم بالحاملات إلى قرية علوية. يذكر أحد المتظاهرين تلك الحادثة. «طلب من أهل القرية أن يخرجوا ويضربوا هؤلاء الخونة، وإذا مات أحد من هؤلاء الخنازير ارموه بعيدًا. ثم بدأ القريون يضربوننا بأيديهم وأقدامهم وبعصي المجارف قائلين «تريدون حرية، ها هي حريتكم»».

كان هناك حالة واحدة معزية من النوع الذي أشار إليها أهل حمص وغيرهم في سوريا كدليل على وحدة بلادهم وعلمانيتها.

الممثلة المشهورة فدوى سليمان تلك العلوية المولودة في حلب والتي كانت في المظاهرات خلال الثمانية أشهر السابقة، ظهرت في حمص دعمًا للمدينة المحاصرة، وصرَّحت بأنها سورية وأنها ليست تابعة للنظام. أشارت إلى أن النظام خدع

الأقليات وأن ليس لديها ما تعتذر عنه، وبعد أيام تبرأت منها عائلتها. أعلنوا على التلفزيون الوطني بأنها خائنة أغرتها الشهرة والثروة، كان النظام قد حدَّد أتباعه وكان خطيرًا أن يتخطى علوي ذلك الحد، واختفت فدوى سليمان حيث كان المنتقمون يبحثون عنها.

تفاجأ حكام سوريا، من صبر وتمهُّل الجامعة العربية الذي لم يكن غير محدود، ففي 16 تشرين الثاني/نوفمبر ألغت الجامعة العربية عضوية سوريا في تلك المنظمة. كان القرار بالإجماع تقريبًا، وكان اليمن ولبنان هما الوحيدان اللذان وقفا مع نظام دمشق. وامتنع العراق عن التصويت، أمّا الثمانية عشر عضوًا الأخرين فقد ضاقوا ذرعًا بالحكام السوريين، كانوا منفصلين إلى «الشارع» في بلادهم، لقد تركت وحشية النظام وغرابته الأكثر ترددًا بينهم لقَطع الصلة مع دمشق. هل كان ذلك حالة تعاطف سني مع التمرد؟ إذا كان الأمر كذلك فهو خاطئ، إن ذلك لعب دورًا ثانويًّا كما أعتقد.

كان هناك تعليل مباشرًا وصريحًا: إحساس بالغضب الشديد تجاه الوحشية. كان النزاع في سوريا يدور تزامنًا مع مواجهة اضطرابات عربية كبيرة. تخلى الحكام في تونس ومصر عن مناصبهم ولاقى الليبي جزاءه، وقد صمد بشار وبدا كأنه يتحدى الاحتمالات وقوانين الجاذبية نفسها.

لم تتحقق توقعات سقوط حجر دومينو آخر، دكتاتور آخر اقتلع من السلطة بثورة شعبية. استلهم أوصياء السلطة في العواصم العربية وفي مقرّ الجامعة العربية الإشارة من العاطفة الشعبية. لم يكن هناك حاكم في سوء القذافي وغرابته وعدم ترويضه. ولكن

بشار خرج طوعًا من نادي الحكام المقبولين. وها هو الآن يتخذ رفاقًا له على الطريق الحماسي العراقي، مقتدى الصدر وحزب الله في بيروت. وصل الحكام إلى قناعتهم: لا يُحتمل أن يجد ذلك الرجل في دمشق طريق عودته إلى صفوفهم.

وكما أصبح شائعًا ومعتادًا أعطى المتظاهرون يوم الجمعة 25 تشرين الثاني/نوفمبر اسمًا: الجيش الحر يحميني. بدأ المنشقون عن الجيش في إظهار وجودهم، وأصبح الإحساس بأن التمرد يلزمه أن يجد طريقه الأكثر انتشارًا الآن.

تمكَّن كمين قام به الجيش الحر للثورة من قتل ستة طيارين متميزين وأربعة من مساعديهم. لم يتحول توازن القوى الوحشي بصورة جذرية بعد ولكن المنشقين زادوا من تمردهم. أعطت الحكومات العربية النظام تمديدًا إضافيًّا قبل أن يفرضوا عقوباتهم الاقتصادية وتململت دمشق. لم يكن لديها أي اهتمام بالسماح للمراقبين العرب الدخول إلى البلاد. وأصرَّت على أن العقوبات المعلنة من قبل الحكومات العربية ما هي إلّا تهديدات فارغة. أبدت الدبلوماسية العربية التهديد «بتدويل» وحشية النظام. ولكن هنا أيضًا وجد الحكام السوريون في الروس والصينيين سندًا لإنقاذهم «ممرات إنسانية» من خلالها تقدّم الأغذية والأدوية إلى المراكز السكانية التي بحاجتها. وبدون تردّد رفض الروس تلك الفكرة قائلين إن الطريق الأوحد هو من خلال الحوار الداخلي السوري.

وفي الأعمال فَهِمَ أولئك الذين تمردوا على النظام شروط المبارزة: إمّا الرضا بطغيان آل الأسد أو الثمن المريع للتمرّد.

في 27 تشرين الثاني/نوفمبر راهنت الجامعة العربية بآخر

سهم في جقيبتها: وافقت على فرض العقوبات الاقتصادية على دمشق. تضمنت الإجراءات حظر السفر على ثمانية عشر من أقوى رموز النظام (بمن فيهم ستة من عائلة الأسد). إيقاف التعامل مع البنك المركزي السوري وإنهاء المشاريع الاقتصادية العربية في سوريا. كان لدى الدول الثلاث شكوكًا حول تلك الإجراءات. تنصّل لبنان من التصويت ووافق الأردن ولكنه أعرب عن امتعاضه حول العقوبات وامتنع العراق عن التصويت.

كان لبنان محمية سورية ومغفور له خوفه، وكانت تجارة الأردن معتمدة إلى حدٍّ كبير على موانئ طرطوس واللاذقية فقد كانت 40% من استيرادات الأردن تأتي عبر ميناءي تلك المدينتين. كان هناك عدد كبير من اللاجئين العراقيين في سوريا وصرَّحت السلطات في بغداد بأن مصالحهم سوف تتعرض للأذى في سوريا نتيجة إجراءات العقوبة تلك.

(كانت قمة السخرية والتناقض ملاحظة تفوَّه بها الرئيس العراقي جلال طالباني، والذي كان المستفيد من الحرب الأميركية التي أطاحت بنظام صدام وأتت به إلى قمة سدة السلطة، صرَّح بأنه يعارض التدخل الغربي العسكري في الشؤون الداخلية لدول المنطقة. لم يشكّ في حقوق السوريين في الديمقراطية والحرية، كما قال، ولكنه كان ضدّ أي تدخل عسكري تركي أو غربي في سوريا).

اعتبر الحكام السوريون العقوبات العربية «حربًا اقتصادية» على سوريا في الوقت الذي كانوا يستخفون بتلك الإجراءات نفسها. فقدت الليرة السورية 25% من قيمتها منذ بداية التمرد ولكن النظام أبدى عدم اكتراثه، وأصر على أن بلاده لديها

اكتفاء ذاتيًا وأنها سوف تطعم نفسها وأنها محصنة ضد الضغوط الخارجية. وبنهاية تشرين الثاني/نوفمبر وجد النظام لنفسه متنفسًا غريبًا: لقد أصبح دولة مارقة محاصرة ومعزولة. لقد قطعت أواصر الصلة مع العالم العربي - وهذا هو ذلك النظام البعثي الذي تشدَّق بخصوصية سوريا «كقلب العروبة النابض» أظهرت تقارير أن إمارة قطر الصغيرة جدًّا لعبت دورًا أكبر من حجمها في تحطيم نظام القذافي، وأنها مصمِّمة على بذل كل ما تستطيعه للتخلُّص من نظام الأسد. وكانت هناك شائعات أن القطريين تعهّدوا بتمويل هجوم تركي على الحكام السوريين. ولإضفاء المزيد من التضخيم لانعزال سوريا فإن مجلس حقوق الإنسان في الأمم المتحدة يناقش فكرة إدانة النظام بتهمة ارتكاب «جرائم ضد الإنسانية» لم تتعاون الحكومة السورية، وقد بذل المحققون أقصى جهودهم حيث تقدم حوالي 220 ضحية أو شهود بِمَن فيهم المنشقون عن الجيش، وجاؤوا بأدلّة حول ممارسات لا قانونية صارخة. مثَّلت لغة الوثيقة فضحًا لوحشية ممارسات النظام. كان لدى المتظاهرين كل المعلومات الكافية حول الأعمال السيئة التي قامت بها قوات الأمن ولكنهم الآن مدعومون من قبل سلطة هيئة دولية ذات سمعة أخلاقية. أعطى الجنود الحرية المطلقة للقتل العشوائي وأصبحت المستشفيات أماكن للتعذيب والقتل، وقد حدثت اعتقالات عشوائية في حمص وحماة ودرعا وبانياس وغيرها.

كان الجنود الذين يُشتبه في تعاطفهم مع المتظاهرين يُلقى القبض عليهم وكثيرون منهم تعرضوا للتعذيب. كما تمّ تعذيب الأطفال أيضًا بعضهم حتى الموت كما أكّد التقرير. أحد

المنشقين عن الجيش، والذي صوَّب بندقية إلى الأعلى تجاه الجمهور لكي لا يجرح أحدًا، قبض عليه واتُّهم بأنه «عميل سري» وقد ضُرب وعذِّب بصعق كهرباء. كان التعذيب الجنسي والإذلال جزءًا من أسلحة قوات الأمن. كان هناك طفلة في اللاذقية عمرها سنتان أطلق النار عليها ضابط وقتلها قائلًا إنه لا يريدها أن تكبر وتصبح متظاهرة، ما كشف تظاهر النظام بأنه كغيره من الدول. ليس هناك أحد متأكد من عدد الضحايا. أشار رئيس هيئة حقوق الإنسان بالأمم المتحدة إلى أنه قد بلغ السيل الزبى. بنهاية تشرين الثاني/نوفمبر كان تقدير من قُتل قد وصل إلى 4000 ضحية وهذا العدد إلى ارتفاع.

كان شهر تشرين الثاني/نوفمبر أكثر الأشهر وحشية حيث قتل 950 شخصًا ويمكن القول بأن توقعات النظام والذين تمردوا عليه وتحدّوه لم يتحقق. لم يتمّ سحق التمرد ولم يسقط النظام. كان للإخلاء تأثير ولكنه لم يكن حاسمًا حتى الآن. كانت قنوات الإعلام العربية وخصوصًا قنوات تلفزيون الجزيرة والعربية قد جعلت من الاضطراب السوري شغلها الشاغل. كان الصراع في سوريا هو الصراع من أجل سوريا. كان هناك تنافس إقليمي حادّ على الساحة وكانت سوريا الجائزة والمسرح. ففي إحدى الجوانب اصطفّت تركيا والسعودية ودول الخليج الصغيرة، بينما الولايات المتحدة وفرنسا في خلفية المسرح، وفي الجانب الآخر كان النظام الدمشقي، وحليفه حزب الله في بيروت، وشراكة خفيفة في بغداد، وإيران كزعيمة لهذه المجموعة (يمكن القول إن روسيا والصين كانتا في الخلفية البعيدة داعمَين لسوريا ولكن هاتين الدولتين المستفيدتين كانتا

تغشّان ولم تكن سوريا ذات أولوية لهما). في إحدى المقولات المستهلكة من زمن الأسد الرجل العجوز كان مَن يدّعي بفخر، وعلى حق، أنه غيَّر سوريا من ألعوبة إلى لاعبة في المنطقة. وهذه إشارة إلى نهاية الأربعينيات والخمسينيات عندما كانت سوريا ضعيفة في موازين القوى عندما كان يتنازع عليها من قبل مصر والعراق والسعودية. ومرة أخرى تحت حكم بشار، أصبحت سوريا هدفًا تنافسيًّا أوسع. سوريا هيّأت لإيران منفذًا على البحر المتوسط وأعطت الدولة الفارسية دورًا في الشؤون العربية. تأسَّست العلاقة السورية ـ الإيرانية من قبل حافظ الأسد في بداية عام 1980 ولكن المؤرخ إيتمار رابينوفيتش أشار بحق إلى أن العلاقة تغيّرت تحت حكم بشار وأصبحت خضوعًا لإيران. كانت حرية المناورة التي حظي بها الأب قد فُقدت وأصبحت دمشق الآن إحدى أقاليم دولة إيران الثيوقراطية. لقد علم أبطال هذا الصراع تمامًا أن وجود سوريا تحت حكم أغلبية سنية ستبتعد عن إيران وحزب الله. كانت هناك مذهبية في الصراع ستقوّي حلف الدول السّنية وسيتلقى المحور الذي تقوده إيران ضربة خطيرة. كانت الحركة الفلسطينية حماس، السنية المتشددة، وسط النزاع، لقد خفّفوا بهدوء تواجدهم في دمشق بينما كانت فرص النظام تتآكل، ثم غادروا دمشق إلى غزة والقاهرة. لم تُرِد حماس أن تقطع علاقتها مع العالم العربي الأكبر وبحسابات منطق القوة الفطري تكوَّن حلف صارم ضد قوى الوضع الراهن. لقد تنبأ برهان غليون، رئيس المجلس الوطني السوري، بالتحول في مقاومة سوريا في شؤون المنطقة «لن تكون هناك علاقة خاصة مع إيران. فقطع تلك الصلة غير العادية يعني تحطيم التحالف الاستراتيجي ـ العسكري». لقد

تطور الحلف إلى علاقة تبعية وخضوع من جانب نظام بشار الأسد وهدف التمرد في درعا وحمص وحماه هو العودة إلى الصف العربي.

في 6 كانون الأول/ديسمبر تمّ ترتيب موعد لقاء لبرهان غليون وستة من زملائه في المجلس الوطني السوري مع وزيرة الخارجية الأميركية هيلاري كلينتون، كانت حركة الدبلوماسية الأميركية شديدة البطء إذا نظرنا إلى العنف الذي عمَّ في سوريا. ولم يكن ذلك اعترافًا صريحًا بالمعارضة ولكن معارض النظام كان فرحًا بذلك اللقاء. كانت الأخبار من حمص، التي هي الآن مركز الصراع في غاية السوء: خمسون شخصًا على الأقل قُتلوا وذكر مراقبو سوريا لحقوق الإنسان أن 365 شخصية خطفوا من الأحياء المعارضة للنظام وعُذِّبوا ثم تمّ رميهم على الخط الفاصل بين الأحياء السنية والعلوية. تمكَّن المُراسل البريطاني المخضرم ستيورات رمزي (Stuart Ramsay) من «سكاي نيوز» من تقديم تقاريره سرًّا من حمص. تمّ تهريبه إلى المدينة من قبل الناشطين وعدد من أعضاء الجيش السوري الحر. وجد رمزي سابقة لما رآه من قبل في سارييفو تحت الحصار. عمل أفلامًا من حمص تقطِّع نياط القلب لنساء وأطفال يهربون في رعب طلبًا للنجاة بحياتهم. عكست صلاة الجمعة يأس حمص: الدعاء إلى الله ازداد حرقة ونحيبًا بينما الناس يصلون من أجل الخلاص وهم في ريبة من أنه قد لا يتحقَّق. كان هناك صبيان في سن البلوغ وكان في صلواتهم كما اعتقدت خليطًا من الاعتقاد والإحساس بأنهما متروكان لقدرهما. «ليسوا قواتي» قال ذلك بشار الأسد عندما سُئل عن

وحشية القمع ضد المتظاهرين في مقابلة في 7 كانون الأول/ ديسمبر مع الصحفية الأميركية باربرا والترز (Barbara Walters) إنهم قوات عسكرية تابعة للحكومة لا أملكهم. أنا رئيس لا أملك البلاد. ليس هناك حكومة تقتل شعبها إلّا إذا كانت بقيادة شخص مجنون». كان الحاكم الذي ظهر في المقابلة متعلمًا بليغ الكلام لم يُصدر أيّ أمر بالقمع. كانت هناك أخطاء حدثت ولكن لم تكن هناك سياسة متعمّدة من ذلك النوع. لم يشعر بأي ذنب كما قال لأنه لم يرتكب خطأ. كان ذلك بشار الحقيقي ذا التقلب بين النور والظلام. وأصبحت تلك علامته المميزة. كان سيد النظام ولكن لم يكن النظام له. كتب المعارض ميشيل كيلو في عمود عنوانه «ماذا يعرف الرئيس؟» وصفًا لاذعًا لتلك البراءة المصطنعة، قال «إن الأسد هو رجل النظام الأوحد وقائد القوات المسلحة ورئيس اللجان الشعبية، الحرفي الأول، العامل الأول، الصحفي الأول، الطبيب الأول، المهندس الأول، الفلاح الأول، الفنان الأول ... إلخ. وأخيرًا هو أيضًا المخبر الأول الذي ينظر في الأمور وعليم بكل الأمور صغيرها وكبيرها... قيل عدة أشهر، ادعى أنه قابل 1180 وفدًا حملوا إليه أخبار المشاكل في البلاد. إنه لأمر غريب»، كما قال كيلو، «إن الرجل الذي يمسك في يديه كل خيوط السياسة والأمن والاقتصاد والإعلام يتظاهر الآن بالبراءة»، تذكر كيلو حدثًا عرضيًّا حدث قبل أسابيع فقط، سُئل الأسد عمّا إذا كان ينوي توريث الرئاسة لابنه، والذي عمره الآن عشر سنوات، قال إن ذلك عائد إلى الابن ولكنه سينصح ابنه بأن يبني علاقات وثيقة مع المجتمع السوري. كانت البلاد غارقة في العنف ولكن رجل النظام الأول لم يعترف بذلك.

بعد أيام من تلك المقابلة أوصى مجلس حقوق الإنسان بهيئة الأمم المتحدة بإحالة سوريا وحاكمها إلى محكمة الجنايات الدولية في لاهاي. إذا كان هدف المقابلة هو إطلاع المشاهدين الغربيين على رجل مهذب الأخلاق ممسكًا بعنان الحكم في دمشق فإنّ تلك المحاولة كانت فاشلة. إنّ الأخبار في حمص وبلاغ الأمم المتحدة تقول إن 5000 سوري قتلوا حتى ذلك الوقت والآلاف الذين ما زالوا مفقودين، كل ذلك قضى على تلك المحاولة المصطنعة في العلاقات العامة. كانت هناك تقديرات أكثر ترويعًا عن مستوى سفك الدماء. تقدِّر «أفاز «Avaaz» وهي مجموعة حقوقية بريطانية عدد المقتولين بـ6200. كان هناك 400 طفل من بين الموتى وأكثر من 600 ماتوا تحت التعذيب وضحايا قوات الأمن قاربوا الـ 1000. ضاقت خيارات الحاكم واتضحت: المنفى له ولعائلته أو مصير مشابه لمصير القذافي. انحسر الاقتصاد إلى 30% وانهارت الليرة السورية وبدأ وقود الزيت ينفد من البلاد. أدّت الاحتمالات المظلمة أمام النظام إلى قبوله فريقًا من الجامعة العربية، لكن العنف تصاعد كدليل على نظرة النظام إلى سلطة الجامعة العربية. في إحدى انفجارات العنف (20-22 كانون الأول/ ديسمبر). قتل أكثر من 22 شخصًا من بينهم منشقون عن الجيش وناشطون، ورجال ونساء عاديون قتلوا أثناء الصراع. تلقّت قرية كفر عويد في المناطق الداخلية لمدينة إدلب والمتاخمة للحدود التركية عقوبة مروعة بوجه خاص. قتل أكثر من 100 من أهلها في يوم واحد. قطع رأس إمام القرية وعلِّق رأسه على باب مسجده. لم يكن ذلك النظام ينوي «التحاور» مع سكانه المتمردين.

إلى الآن. ودمشق نفسها التي تميّزت عن ضواحيها المضطربة ما زالت سالمة، ولكن في 23 كانون الأول/ ديسمبر وبينما بدأ مراقبو الجامعة العربية في الانتشار، انفجرت سيارتان مفخختان خارج مكاتب حكومية في الجزء الشديد الحراسة من المدينة. أكثر من 40 شخصًا قتلوا وسارعت السلطات إلى إعلان أن التفجير كان عليه بصمات القاعدة. كان التوقيت غريبًا، مدينة تحت شبكة حراسة غاية في الشدة ضربت عندما وصل المراقبون العرب، وبالنسبة إلى النظام كان ذلك دليلًا صارخًا على أن الإرهابيين والجماعات المسلحة ناشطون في سوريا. وسارع أحد مسؤولي النظام «نائب وزير الخارجية» إلى التصريح: «قلنا منذ البداية هذا إرهاب إنهم يقتلون الجيش والمدنيين». ولم تنطلِ اللعبة على المعارضين كانوا متأكدين أن الزمرة السرية الحاكمة ذات التاريخ الوحشي والألاعيب القذرة نظَّمت تلك العملية لتُربك المراقبين العرب. نعلم أن بغداد وبيروت كان لهما نصيبهما من التجارب المريرة مع السيارات المفخخة والعمليات الانتحارية، لم يَعلم أحد بالتأكيد من كان وراء ذلك العمل المرعب. كان الدليل دائمًا غير قاطع ودائمًا خاضعًا للتخمين. لم يكن هذا النظام ليتورع عن مثل ذلك ومقارنة بقائمة جرائمه يُعتبر ذلك أمرًا بسيطًا. لم تستهدف القاعدة سوريا، بل إن إرهابيي القاعدة تسلَّلوا إلى العراق بمساعدة النظام في دمشق. انحسر «الجهاد» في العراق وعاد الإرهابيون أدراجهم. لقد صادق حكام سوريا أولئك المتطرفين والانتحاريين الذين لم يكن في قلوبهم سوى البغض الشديد للنظام وسادَته العلويين.

وُضِع غطاء ديني من قبل النظام على التفجيرات. لقد قال الشيخ محمد سعيد البوطي من على منبره في الجامع الأموي في دمشق وبدون مواربة: «هذه هدية برهان غليون ورفاقه إلى سوريا» وكان يُشير إلى رئيس المجلس الوطني السوري وزملائه «هل رفعت الأغطية الآن عن عيون ممثلي الجامعة العربية ليروا مَن هو القاتل ومَن هو الضحية؟».

لقد اتّضح الأمر وتمّ بالطبع زرع الفرقة في الطبقة الدينية. ومن الناحية الأخرى للشيخ البوطي كان هناك كريم الراجح من مسجد الحسن في حي الميدان بدمشق القديمة. كان هذا الشيخ ذو الشعبية والاحترام شيخًا لمرتلي القرآن وفي الثمانينات من عمره، نظر في عِلَل البلاد، ناشد الرئيس الأسد، في تصريح له انتشر كثيرًا على اليوتيوب، بالعودة إلى التعقُّل وإيقاف القتل والتعذيب الذي لحق بالشعب السوري. وقال «إن البلاد قد حادت عن طريق «تحكيم العقل» وأضاف بأن دمشق أصبحت «مأوى المجانين»، سوريا أكبر من أي أحد يدّعي بأنه يحكمها، دم المسلم أنفس من كل الرئاسات والمناصب العليا. إذًا عندما تكون عبدًا لله سوف يُدعى الجميع إلى طاعتك ولكن عندما تخرق أمر الله فكل من خضعوا لك من قبل سوف يدعون للتمرد عليك. أريد أن أقول للنظام إن التعذيب والجرائم الأخرى لن تُخرس الناس وبهذا السلوك فنحن إنّما نصبّ الزيت على النار وستنتشر هذه النار وتلتهم كل البلاد. الشعب أقوى من الدولة». وقد تمّ منع الشيخ من الوعظ من مسجده ولكنه وجد طرقًا أخرى ليتمّ سماعه.

تصلّب النظام وأصبح يناور من أجل الوقت. وبالرغم من

أنه كان لديه غطاء من مجلس الأمن بالأمم المتحدة ـ دعم روسيا والصين ـ إلّا أنه خائف من «تدويل» هذا الصراع وعندما يقول الحكام السوريون إن ليبيا كانت حالة منفردة، كانوا مصمِّمين على إبقاء النزاع محصورًا في مجالس القوى العربية. هذا مسرح عرفوه بالتمام وكما يظهر على السطح لم تكن دمشق، إن النظام السياسي العربي قد تغيَّر في مخاض سنة من الأحداث التي عصفت بطرقها المتجذِّرة. حقًّا أصبحت هناك حكومات جديدة في تونس وليبيا تتعاطف مع التمرد السوري، ولكن دمشق استمرت في طريقتها. وسيمرّ عليها الوقت على أمل أن قوى المعارضه ستُنهك من رمي نفسها ضد نظام متمرّس وعلى استعداد لاستخدام كل الوسائل الضرورية للبقاء على قيد الحياة. يكتسب الناس حريات جديدة وجرأة عندما يطرحون جانبًا الأساطير القديمة التي تقيدهم. والآن تمّ تجريد النظام وقادته من الأساطير القديمة. يعلم بشار الأسد أن المسرحية التي صاغها هو وزوجته المتحذلقة ـ ذلك الوعد ببداية جديدة يقوم بها زوجان عصريان قد تحطَّمت. لم يعد هناك مشاهير أجانب يتوافدون إليه وحتى الروس والصينيون بدأوا بصوت خفيف يطالبون بإصلاح نظام حكمه وعلى الجانب الآخر لنظام الأمم المحترمة اكتشف هو وزمرته الوحشية التي تلحق بالدول المارقة التي تتنصّل من قيود الطبيعة، أنها لعبة تقوم بها، قال ذلك بشار الأسد لـ«باربرا والترز» عندما سألته عن الأمم المتحدة والتوبيخ الذي لقيه من مجلس حقوق الإنسان فيها. قال الحاكم إن سوريا عضوًا في المنظمة ولكن الأمر كله خداع ولعبة ـ سخرية تجعل الرجل العجوز الأسد يتميز من الخجل. لعبة القط والفأر كانت تمارَس لدرجة الكمال. كل المراقبين

العرب ـ كل الخمسين ـ كانوا يشاهدون عندما كانت حمص تعاني من القصف المتواصل. كانت المدينة محاصرة، أحياء بكاملها بدون أكل أو كهرباء أو ماء. ولم يكن ذلك نذير خير لبعثة الجامعة العربية التي كان يرأسها الجنرال محمد الدابي، الرجل العسكري السوداني وضابط الأمن الذي كان يتمتع بحماية الرئيس السوداني عمر البشير، كان الرئيس السوداني موعودًا بالقبض عليه من قبل المحكمة الجنائية الدولية. لم يكن الدابي والذي كان أحد رجال جهاز أمن البشير ملاكًا. كان قد نفَّذ عمليات عديدة في دارفور بأمر سيده السياسي. لم تكن لديه المؤهلات لمثل هذه المهمة ـ لا بدّ أن الاختيار وقع عليه لأن السوريين أصرّوا أن يكون رئيس المراقبين من نظام صديق لهم.

لم يخيِّب الدابي ظنون السلطات في دمشق. كان قد ذهب إلى حمص ولكنه لم ير شيئًا يثير «الخوف» في تلك المدينة، كما قال. بالمقارنة بدارفور كان تصريحه صادقًا. ولكن كانت هناك مآسٍ كثيرة في حمص. كان اليوتيوب مليئًا بالكثير من الوحشية الهائلة. كانت هناك دبابات روسية قديمة T72 تقصف حي بابا عمرو. وكان هناك رجال واقفون وسط الأنقاض في أزقتهم يشيرون إلى أفراد عوائلهم وجيرانهم الذين سقطوا موتى. كانوا يتوسلون إلى القوى الدولية والله العظيم من أجل الخلاص. كان الغضب المستعر ضد الجامعة العربية يصحبه نداء إلى المساعدة. كان جثمان طفل ذي خمسة أعوام يُعرض على المراقبين كشهيد. وفي فيديو على اليوتيوب نرى المراقبين يدعون إلى الهدوء بينما كان أحدهم يلمس رأس الطفل ويغلق عينيه. وعندما توجّه المراقبون إلى درعا ومشارف دمشق، خرج الآلاف

للتظاهر وأطلقت عليهم قوات الأمن النيران. ولم يلق المراقبون أي اعتبار، لم يكن غريبًا بأن يوصفوا بالمتفرجين العرب. كان من العبث أن يكون هناك أمل في الجامعة العربية لتقديم أي شيء لهذا التمرد المحاصر. ومرة أخرى أظهرت البديهة العامة البسيطة وغير المنمقة، حقيقة هذا الصراع. كان هناك لوح تحمله عاليًا مجموعة من نساء حمص تضاءل معه الخطاب الدبلوماسي «كل الأبواب موصدة، إلّا أبوابك، يا إلهنا». لم ترسل أنقرة قوات عبر الحدود، ولم تظهر طائرات «النيتو» في سماء حمص وهؤلاء المراقبون العرب لا قيمة لهم، استمر القتل تحت أنظارهم. استسلم الطاغيتان التونسي والمصري بعد أسبوعين من الاضطرابات. قاوم القذافي ولكن جنونه وأساليبه الغريبة أودت به. صراحة القذافي الوحشية دمّرته في النهاية. كان صريحًا حول الإرهاب الذي كان ينويه ضد الثوار في بنغازي الذين تجرأُوا على تحدي حكمه. لقد لفت انتباه العالم بالكامل عندما قال إن قواته في طريقها إلى بنغازي لتعقّب أعدائه «بيت بيت، حارة حارة، زنقة زنقة» لقد مزّق كل الغموض، وكانت هناك راوندا مصغرة على الأبواب. واستنفرت القوى في باريس ولندن وواشنطن إلى التحرك. كان الحاكم الوحشي في دمشق، والذي كان طغيانه مبنيًّا على أقلية طائفية وجهاز أمن عديم الرحمة، حذرًا للغاية فيما يتعلق بالانطباع عنه وعن أقواله. كانت هناك أعمال وحشية قامت بها المتطوعة وقوات الأمن وحديث عن «الإصلاح» من قبل سيد النظام. ليس هناك ما يمكن الجزم به عمّا إذا كان التمرد سيبدأ لو أن قادته وجنوده كانوا يعلمون كم هو الكفاح الجهنمي الذي ينتظرهم. لقد خيّرهم النظام بين طغيان مخيف أو عذاب لا يمكن وصفه.

عندما كان هذا التمرد لا يزال في شهوره الأولى، شخّص «باتريك سيل» المؤرخ السياسي البريطاني والمعلق الذي كتب قصة حياة حافظ الأسد المعتمدة في عام 1988، توازن القوى المجرد الذي هو في صلب هذا النزاع: لم تثُر دمشق ولم ينشق الجيش ولم ينهر الاقتصاد، كان النظام ضعيفًا والمعارضة أضعف. وعندما قارب مرور عام على الصراع، ما زال معيار «سيل» ثابتًا.

كان هناك تململ في دمشق ولكنه ليس تمردًا شاملًا. كان هناك منشقون من الجيش مع قطعة جغرافية محررة في حمص ولكن آلة القمع استمرت تقريبًا متماسكة. أبقى الخوف الجيش مطيعًا للنظام وكان هناك انشقاق ملفت للنظر. ملازم شاب اسمه عبد الرازق طلاس، أعطى هويته عنوة إلى مراسل مجهول: كان ابن أخ الجنرال مصطفى طلاس، أحد الموالين لحافظ الأسد وأحد أعمدة النظام ووزيرًا للدفاع لأكثر من ثلاثة عقود. لم يبدِ الشاب أي ندم. قال إن شرف الجندية لا يسمح له بقتل المدنيين العزّل، وفي الواقع، كان الاقتصاد يتهاوى والنظام بدأ يدخل في هاوية عجز هائلة. لقد كان يتحدث حتى عن تمويل عملياته من خلال العودة إلى طبقات رجال الأعمال والتجار الذين استفادوا كثيرًا من السياسة الاقتصادية للعقد السابق والحصول على «استرداد» الأموال منهم من خلال تشريع جديد بالطبع. كان توازن القوى النسبي بين النظام والمعارضة يصعب تقديره. لقد فقد النظام هيبته، ذلك الخوف الذي أضفاه عليه السكان المطيعون حتى الآن ولكنه لا يزال متماسكًا. نما نطاق المعارضة وحجمها واكتسبت بعض التقدُّم على المسرح الإقليمي

والدولي، ولكن قادتها في المنفى يحاولون إزالة النظام من خلال قنوات في جنيف واسطنبول وبروكسل وتونس.

وبينما كان عام 2011 يشرف على الانتهاء لم يتحقق التدخل الأجنبي بعد. في كانون الأول/ ديسمبر وصف فريدريك هوف، المسؤول في وزارة الخارجية الأميركية في جملة حاذقة، نظام بشار بأنه «الميت الماشي». كان هناك تحليل سياسي في تلك العبارة ولكن فيها أيضًا اعتقاد مبني على التمني. كان المسؤولون الأميركيون يأملون بأن ينهار النظام تحت ثقله ولينقذهم من اتخاذ قرارات صعبة ومحرجة. كانت هناك أخبار بأن إدارة أوباما كانت تدرس «خياراتها» وتستعد بخطط لمساعدة معارضي بشار ولكن هذه الأخبار نفسها تحدَّثت عن خلاف داخل الإدارة وعن قلق حول وحدة وأهداف المعارضة السورية - تكرارًا للتردُّد الأميركي في مساعدة ليبيا. لقد أفصح الرئيس الأميركي قولًا وفعلًا عن نفوذه من التورّط العسكري الخارجي المكلف والمثير للشقاق. كان يتخلى عن فضاء استراتيجي ومصالح في العالم الإسلامي. كان بند سياسة حزبه الخارجية محدودًا. في 8 كانون الأول/ ديسمبر، ردّ على الاتهام بأنه كان يتبع سياسة المهادنة في الخارج قائلًا «اسألوا أسامة بن لادن والـ22 من بين 30 من رؤساء القاعدة الذين تمّ إزالتهم من الساحة، فيما إذا كنت أمارس المهادنة، أو من بقي منهم هناك، اسألوهم عن ذلك». هذا الرئيس سوف يمارس ما هو ضد الإرهاب ولكن التوغل في مغامرات كبيرة في مناطق معقّدة ليس من شأنه. وبكل صدق، لم يقدم وعودًا إلى السوريين إلّا ووفى بها. وبطبيعة الحال اعتبرت المعارضة السورية بداية عام 2012

كنقطة تحوّل مهمة. لقد نذرت أن هذا العام سيشهد سقوط النظام. ولكن حاجز الجمود لم يتمّ كسره في عام 2011. كانت المعارضة، كما تمّت الإشارة مرارًا وتكرارًا أثناء السرد، قد أعطت لكل جمعة اسمًا وموضوعًا.

كل الجمع الاثنين وأربعين جاءت وذهبت أثناء التمرد في عام 2011. لم يتجه بشار إلى المنفى في روسيا أو إيران ولم تكن المعارضة لتستسلم وتعود إلى الطاعة كالأيام الماضية. افترضت المعارضة أن النظام سيسقط خلال شهر رمضان الموافق لشهر آب/أغسطس 2011. وذهب الأمل سدى. استعد النظام والمعارضة لصراع طويل، وأظهر كل جانب للآخر مدى تصميمه على الفوز. نادرًا ما تكون البلدان محطّ تنافس ولكن سوريا بأكملها كانت محط التنافس. وقد يكون من باب تبسيط الأمور القول بأن هذا النزاع هو الكفاح المحتوم للغالبية السُّنية لاستعادة كيانها من سيطرة الأقلية. ولكن تلك كانت هي الحقيقة التي صاغت وشكّلت هذا النزاع.

كانت وحشية النظام وصموده قد بلغت مبلغًا بعيدًا في نحو تغيير رؤية العالم لمعارضيه. كانت هناك صراحة ملفتة حول ضرورة التدخل الغربي في تصريحاتهم. في الأيام الأولى من كانون الثاني/يناير 2012 اضطلع سمير نشار، العضو التنفيذي في المجلس الوطني السوري بالإفصاح عمّا كان في أذهان الكثيرين الذي زُجّ بهم في هذا الصراع.

أشار إلى أن أغلبية رفاقه في المعارضة متفقون على الحاجة إلى تدخل عسكري دولي. ولكنهم لم تكن لديهم الشجاعة الكافية للتعبير عن ذلك علنًا، «لقد بدأ قلق الناس يتصاعد وأصبحوا

يائسين». كانت المعارضة تأمل في أن يحدث انقلاب عسكري ضد النظام، «ولكن ليس هناك ما يشير إلى احتمالية ضمان حدوث ذلك». لقد أحرق النشار خرافة أن الرأي السوري كان معارضًا للمساعدة الغربية مشيرًا إلى أن «الأغلبية الساحقة من السوريين الذين أعرفهم يدعمون ما قامت به النيتو في ليبيا». كان هناك عدة أجيال من السوريين قد تشربوا الوطنية الكفاحية. علّمتهم الثورة الملتهبة أن التراث السياسي هو خداع وأداة للدكتاتوريين وعذرًا لكل الدمار الذي وقع ببلادهم. مساكين أولئك السوريين، لقد نشّئوا على خرافة أن بلادهم هي «قلب العروبة النابض». لقد استيقظوا وسط الركام وكان نظام اللصوصية هو كل ما حصلوا عليه من رهانهم، وأصبح المعارضون القائلون بأن صفوفهم كانت مليئة بمن يتمنون التدخل الأجنبي، من الصادقين. وأعطي يوم الجمعة 6 كانون الثاني/يناير اسمًا ملائمًا: «الحماية الدولية هو مطلبنا». ومن منطلق التحدي كان يمكن للمتظاهرين أن يهتفوا بأن الزمن لصالحهم، وللحقيقة، فإن الزمن لم يكن بجانب أحد في هذا النزاع، فالمعارضة خضعت للامتحان أيضًا بمرور الزمن.

عبَّر منصف المرزوقي، الرئيس التونسي المنتخب حديثًا والمدير البارع ذو المصداقية لحملة حقوق الإنسان الذي أيّد تلك الثورة السورية كليًّا، عن قلق مبرَّر حول اتجاهها. قال إن الثورة قد أصبحت مذهبية ومسلَّحة ومشتتة داخليًّا. كانت هذه شهادة متعاطف والذين انخرطوا في هذه الثورة يعلمون صدق حكمه.

كشفت شهادة جان كليمنت جانبارت، رئيس كنيسة حلب للروم الكاثوليك عن خطوط التماس الدينية الخطيرة في بلد

منقسم على نفسه بشكل عميق. لقد أدلى بذلك في مقابلة مع الجريدة الفرنسية اليومية «لو فيغارو» وتمّ تضخيم عباراته من قبل أجهزة النظام. «المسيحيون لا يثقون بسلطة السُّنة المتطرفين. إننا نخاف من الإخوان المسلمين المتعصبين». ثقته كانت بالحاكم. «بالرغم من الاضطرابات، لا بدّ من إعطاء الأسد فرصة. النظام يحظى بدعم الأقليات». بالنسبة إلى هذا القسيس، كما كان الأمر بالنسبة إلى رجال الدين المسيحيين والعاديين، كان النذير ما حدث في العراق ـ هروب أعداد كبيرة جدًّا من المسيحيين بعد سقوط صدام. ولم يكن هناك ما يطمئن الأسقف فيما حصل بعد ثورات الربيع العربي. «إن سقوط الأنظمة التي كانت تُعتبر دكتاتورية قد يقود إلى حرب أهلية يكون ضحاياها الرئيسيين هم المسيحيون».

كان الأسقف جانبارت واثقًا من أرقامه: قال «إن النظام يحظى بدعم الأقليات، العلويون، المسيحيون، الدروز، الأكراد، الإسماعيليون، أعضاء حزب البعث والتجار السُّنة في دمشق وحلب». قد يكون هناك أكثر من 50 في المائة يقفون مع بشار. كان الدفاع عن الأقليات و«العلمانية» في هذا البلد المتصدع البند الرئيس للنظام. والآن يتمّ تطوير الجدال من قبل القسيس الفطين والمتسيِّس إلى أقصى درجة. كان لدى جانبارت تجارب سابقة، وتحدث من هذا المنطلق من قبل، ولم يكن صديقًا للحركات الشعبية، ولكنه كان صريحًا أكثر من أي وقت مضى.

لا يهم إذا كانت تلك التصريحات قُبلت اختياريًا أم أن النظام أجبر على إعلان صريح حول الولاء. كانت مسألة وحدة البلاد في أحسن الحالات مجرّد تظاهر. وإذا كانت المعارضة

مقسّمة أولئك الذين في الداخل ضد أولئك الذين هم في المنفى، والآملون في حماية دولية والمعارضون لها على الإطلاق، وأولئك المصرِّون على إزالة النظام وأولئك الذين يتمسكون بأمل الخلاص خلال المفاوضات مع الحكام ـ كان النظام على الأقل في مركزه ويتمتع بوضوح وحشيٍّ. في 10 كانون الثاني/يناير، بعد أكثر من ستة أشهر من آخر خطاب وجّهه إلى البلاد، ظهر الأسد في جامعة دمشق ليلقي خطابًا لم يكن به أي غموض حول موقفه. كان ذلك رابع خطاب له منذ اندلاع الاضطرابات، وكان خطابًا مسترسلًا دام لساعة ونصف، أطول بخمس وعشرين دقيقة كما لوحظ، من نمط خطابات الدكتاتور الليبي معمر القذافي. قال إنه لن يذهب إلى مكان، أتى إلى السلطة «بإرادة الشعب» وسيتخلى عنها فقط بإرادة الشعب. لم يكن بحاجة إلى نصيحة الدول العربية التي نصَّبت نفسها حكمًا على نظامه. «تلك الدول التي تنصحنا بالإصلاح ليس لديها أي معرفة على الإطلاق بالديمقراطية، إنهم يشبهون طبيبًا ينصح الآخرين بالإقلاع عن التدخين بينما هناك سيجارة تتدلى من بين شفتيه». الجامعة العربية لا حقّ لها في تعليق عضوية سوريا، لأنه إذا فعل أعضاؤها ذلك فإنما يلغون عروبة الجامعة العربية نفسها. وأضاف بأن هذه الجامعة العربية إنما هي تعكس أحوال العرب المنحطَّة، حيث إن هناك أنظمة تدعم سوريا باطنًا ولكنها ظاهرًا وقفت ضدها، وذلك لأنهم فقدوا سيادتهم وإرادتهم المستقلة. كال الاحتقار لبلدان عربية مبهَمة ـ من الواضح أنها دول الخليج وعلى رأسها قطر بدون شك ـ التي ليس لها تاريخ عظيم ولكنها تحاول شراءه بالمال. قال إنه على استعداد للتفاوض مع المقاومة وحتى مع الذين ارتكبوا «جرائم إرهابية في السبعينيات

والثمانينيات» ـ إشارة واضحة إلى الإخوان المسلمين «لقد انقشع الضباب. لم يعد من الممكن تزييف الأحداث»، حيث أصبح واضحًا الآن أن سوريا بدأت تغمرها المؤامرات.

كان هناك متآمرون أجانب وأيضًا متآمرون عرب، يشنّون حملة لم يسبق لها مثيل من خلال قنوات تلفزيونية لا تحصى وعشرات المواقع على الإنترنت والصحف.

يشير علم النفس العام إلى أن الرجل الذي يجد نفسه في عين العاصفة تتولد لديه رغبة عارمة ليبرهن عن قوته. كان ابن أبيه الهادئ المطيع والجيد في دراسته. كان لديه أخوان أكثر «رجولة» وكلاهما عسكريين: باسل الأخ الأكبر والذي مات في حادث سيارة وأخوه الأصغر ماهر قائد قوات النظام الخاصة. لقد أتاحت له الثورة فرصته واستغلها. سيحارب للمحافظة على ميراث أبيه. كانت والدته أنيسة مخلوف ذات السمعة الفولاذية لا تزال على قيد الحياة. كانت بجانب حافظ الأسد لأربعة عقود وكانت مستودع أسراره. كانت نصيحتها لبشار أن يلتزم بقواعد والده ويدافع عن الأسرة الحاكمة.

لم يكن خطاب التحدي كافيًا، فقد ظهر بشار الأسد في اليوم التالي وسط حشد عام في ميدان الأمويين بدمشق. كانت زوجته واثنان من أطفاله بصحبته، ولم يفعل ذلك من قبل. وكانت المناسبة الاحتفالية والجماهير المنتشية قد تمّ تصميمها مسبقًا بشكل مبهرج، وصفت المعارضة ذلك الاحتفال بالتافه المصطنع الذي كان الحضور فيه مزورًا بالإضافة إلى موظفي الحكومة والشبيحة الذين كان حضورهم إلزاميًا. ولكن القصد كان واضحًا: إنه مهيئ لصراع طويل ووعد بأن النصر على الإرهابيين

والمشككين قريب. بدأ المنشقون يكشفون تفاصيل أكثر عن عمل النظام، لكن الشيخ عبد الجليل السعيد، رجل الدين الشاب ورئيس مكتب الإعلام للشيخ أحمد حسون خارج سوريا، وصل إلى اسطنبول في منتصف كانون الثاني/يناير. تحدّث عن المؤسسة الدينية السنية المضطربة والمنقسمة على نفسها. كان هناك رجال دين لا يثقون بالحكومة ولا بعلمائها الخانعين. لقد عمل مباشرة مع المفتي ووصفه بالمتلهف على النظام وأنه شارك في التشاور مع أجهزة الأمن وبأنه مصرّ على أن حكم الأسد باقٍ لا محالة. قال إن المفتي متعطش للسلطة وإنه ليس برجل دين، بل إنه طموح للغاية ودنيوي غارق في الفساد والتواطؤ. وأشار الشيخ إلى أن المؤسسة الدينية خاضعة للمراقبة المستمرة. كانت خطب الجمعة دائمًا مراقبة بشدّة وكلّ مَن يحيد عن تعليمات النظام يرسَل إلى بيته «دون عودة أبدًا». هناك مجموعة من ما يقرب من اثني عشر شيخًا من المناصب العالية يشرِفون على المؤسسة الدينية وجمعياتها الخيرية والمساجد الرئيسة. ولكن سلطة ذلك الهرم الديني لا تمتد إلى العلويين وقادتهم الدينيين. فمفتي العلويين سلطة بحدٍّ ذاته ولا يرجع إلى المفتي حسون ولا إلى وزير الأوقاف الدينية. لقد انشق الشيخ سعيد عن النقابة الدينية الرسمية أملًا في أن يتشجّع الآخرون على اتخاذ المسار نفسه. أراد أن يبرئ نفسه «أمام الله والأمة التي لن تبدي أي رحمة تجاه أولئك الذين يقفون في صف المجرمين» ولم يتوانَ النظام في الردّ عليه. فبعد فترة وجيزة من انشقاقه تمّ القبض على والده وأخيه الأكبر.

* * *

أثارت هذه الثورة القضية الأساسية عن مصير العلويين وربما أيضًا وحدة دولة الأمة السورية. من بين الثورات العربية لعام 2011 كان ذلك خاصًا بسوريا: كانت تونس ومصر مجتمعات وطنية قديمة ذات شعور بالانتماء. كان هناك في ليبيا فجوة بين بنغازي وطرابلس ولم تكن هناك طبقة مذهبية حاكمة متميزة في ليبيا أو جماعة متغلبة. سوريا التي كانت فخورة بكيانها كدولة وقوتها في محيط دول المنطقة كانت ممزقة ومبتلاة بتصدعات كانت بدون شك عاملًا في اتجاهاتها العدوانية فيما يتعلق بكبريائها وكيانها. أدى تمرد عام 2011 إلى النكوص إلى تأسيس الدولة وبزوغها في أعوام 1930 و1940. لعب القدر الاستعماري دورًا في رسم حدود الدولة وتغذية فرنسا لطموح الجماعات العلوية والدرزية ثم التخلي عنها. شنّ الفرنسيون حربًا ضد صفوة سكان المدن وشلّت مدن السُّنة في أعوام 1920 ثم استسلمت لمطالبها بعد جيل. حاز الاتحاديون على دولة ساقت العلويين والدروز والأكراد ليكونوا ضمن كيان محكوم من دمشق مع مكانة متميزة لحلب وحماة وحمص. انتكست الوحدة عندما قلب العلويون النظام القديم رأسًا على عقب وادّعوا لأنفسهم بعضًا من المطالب العزيزة على النظام القديم: الكفاح ضد إسرائيل، المطالبه بضمّ لبنان والإصرار على أن هؤلاء الجنود العلويين سوف يستردون الإسكندرون من الأتراك ومرتفعات الجولان من إسرائيل. وهكذا أظهروا أنفسهم كحماة للعروبة. رأى هنري كيسنجر، ذو النظرة الثاقبة لتعقيدات التاريخ، في غليان الوحدة العربية ما تقمصّه واستغله سيد النظام السوري، حافظ الأسد ببراعة بالغة. «دمشق هي كل وقت ينبوع القومية العربية الحديثة ومسرح إحباطاتها. يتراوح تاريخ سوريا بين الإنجاز

والكارثة. وظلم الأجانب مغروس في عمق النفس السورية. إذا كان قوميّو دمشق ظُلموا ممّا فعله الغرب بمجدهم المتخيَّل، فسوف يقوم الأسد ابن الجبل بالتفوق عليهم من منطلق الحزن الثائر والإحساس بالخذلان». ويضيف كيسنجر: «قال لي الأسد إن سوريا خذلت قبل الحرب العالمية الأولى من قبل تركيا وبعد ذلك من قبل بريطانيا وفرنسا وحديثًا من قبل الولايات المتحدة التي خلقت دولة إسرائيل».

وبالنظر إلى الماضي نرى أن حافظ الأسد قد أجَّل ولم يحسم ثارات مجتمعات سوريا. تلك الثارات والهوايات المتنازعة تمّ تجميدها كما كانت عليه. كان الأسد بالنسبة إلى سوريا مثل جوسب بروز تيتو (Josep Broz Tito) ليوغوسلافيا. تيتو كان لاعبًا سياسيًّا هائلًا. لقد استطاع من خلال شخصيته ومهارته فقط، أن يبقي على كيان بلد مستحيل. كان ثمرة زواج كرواتي - سلوفيني واستطاع أن يخلق توازنًا بين القوميات المتنافسة في أكثر الدول القومية المتأرجحة. قام بإرضاء وضبط القومية الصربية، وخلق نوعًا من التوازن بين الصرب والكروات وحمى القوميات الصغيرة. كانت وفاته في عام 1980 إيذانًا بالانجراف إلى صراع سياسي، ولم يمضِ سوى وقت قصير عندما بدأت مكونات يوغوسلافيا في قتال لضمان استقلالها كدول. وعلى نمط تيتو، أعطى الأسد بلاده ثلاثة عقود من الوحدة والتلاحم الذي كان مقدَّرًا له أن لا يدوم. كان الأسد في غاية المهارة في استخدام العلويين: كانوا قلب نظامه وآخر ملاذه، ولكنه كان سيد البلاد وليس سيد جماعة العلويين. كان على يقين بأنه يستطيع استدعاءهم في لحظة الخطر خلال الزمن المضطرب

(1979 ـ 1982). ولكنه طمح إلى مطلب أكبر مجدًا ولعب نفسه دورًا كزعيم للوحدة العربية في مدينة ذات شأن.

أدّت دبلوماسية أنور السادات (رحلته إلى القدس عام 1977، وسلام كامب ديفيد، واختيار القاهرة ضمان مكان لمصر في منظومة السلام الأميركي) إلى جعل الأسد حامل راية القومية العربية المناضلة، الذي تسلّمها بنشوة غامرة واستمرت معه إلى نهاية حكمه. وأوصى بها إلى وريثه السياسي.

أثار تمرد 2011 مرة أخرى المسألة الشائكة لهوية العلويين و«ملكية» العلويين للنظام. وبعد عام تقريبًا من المذابح تناول علي أسعد وطفة، الباحث العلوي وأستاذ الثقافة في جامعة الكويت لأكثر من عشر سنوات، هذه المسألة بالدراسة المتعمقة في مقالة ملائمة عنوانها «المجتمع العلوي في قفص الاتهام: قراءة اجتماعية». وطفة هو أكاديمي ذو تعليم فرنسي ومتحرر الفكر وعلماني في منطلقه وحريص على الابتعاد عن الثارات في وطنه الأم، كان اعتذاريًا بخصوص الطائفية، مستهلًّا بذلك تحليله. «لست من النظام ولا من المعارضة. أنا بعيد عن وطني وأحجمت عن مثل تلك المناقشات».

ولكن قضية العنف في سوريا لم يعد من الممكن تحاشيها. يطرح وطفة الأسئلة الملائمة: لماذا لم ينضم العلويون إلى الثورة؟ ما سبب رفضهم لذلك؟ هل هم، جماعة، يتحملون مسؤولية ذلك النظام المجرم؟ وسلّم بأن تلك الأسئلة ذات صلة لأن رئيس النظام وعائلته علويون ولأن نسبة عالية من كوادر الضباط وألوية القمع تعود إلى جماعة الحاكم.

يؤكد وطفة أن رأي العلويين تشوبه الريبة فيما يتعلق بتولي

الأسد للرئاسة، ولكونهم على وعي بمنزلتهم كأقلية، لم يرد معظم العلويين أن تُنسب آثام النظام إلى جماعتهم ككل. وإضافة إلى ذلك، وإلى الحد الذي يمكن فيه تقدير عواطف العلويين في ذلك الوقت، كان تفضيلهم أثناء الصراع على السلطة في عام 1970 بالتأكيد مائلًا إلى منافس الأسد الجنرال صلاح جديد. ويصف وطفة أنّ نظام الأسد اختار الموالين من بين العلويين، كما فعل مع الجماعات الأخرى بناء على استعدادهم لقبول وحماية مصالح النظام كشرط أساس مسبق للتجنيد. وفي مجتمع بائس اقتصاديًا، لم يكن من الصعب التجنيد من بين العلويين الذين التحقوا بالقوات المسلحة بدافع الضرورة. بالنسبة إلى وطفة فإن النظام الحاكم لم يكن يمثّل سيادة جماعة واحدة على الجماعات الأخرى. لقد كان مشروعًا متعدِّد الطوائف وكيانًا عسكريًّا تجاريًّا مترابطًا أداؤه موجّه لمصلحة الطبقات المميزة. لقد تخلى النظام عن بداية الاقتصادية الشعبوية وأصبح المستفيدين من هذا النظام الجديد أصحاب المصالح من المسيحيين والمسلمين. وكان العلويون والدروز والأكراد خارج تلك الدائرة الجذابة. كانت طبقة هؤلاء اللصوص عدوة الفقراء. وفي صياغة وطفة، رزح العلويون تحت عوائق لم يتمكنوا أبدًا من التخلص منها، فهم الجماعة الوحيدة في البلاد التي ليس لديها محاكمها الخاصة وقوانينها المتعلقة بالأحوال الشخصية. فكل شؤون الزواج والملكية والميراث يتمّ البت فيها بحسب الفقه السُّني. وبحسب خرافة دكتاتورية الأسد فإن النظام هو حامي الأقليات ولكنه لم يفعل شيئًا لدعم مصالح الفقراء المنسيين.

لقد «عسكر» آل الأسد العلويين وحوّلوهم إلى حرس لهم. وهذا، كما يذكر وطفة، كان له ثمن مريع. لقد تهاوت معايير التعليم بين شباب العلويين، وخلت المدارس في وقت كان شباب العلويين يجندون في فرق عسكرية خاصة. وتمثِّل الأحياء البائسة عند مداخل المدن الكبيرة مأوى لأولئك الجنود الفقراء المحبَطين، كشاهد على النصيب التعيس لأولئك الجنود. لم يكن هناك نصيب من الغنى ليعمّ العلويين كافة. ظهرت طبقة إقطاعية جديدة بين العلويين، كانت بيوتهم الفارهة منتشرة على فضاء قرى أجدادهم. ولكن الفقر الواسع النطاق لم يطرأ عليه تغيير. فالشبيحة في ترقُّب. «العقاب داخل الطائفة هو أسوأ بألف مرة من العقاب الواقع على الجماعات الأخرى». في المدن الساحلية العلوية تمثل الشبيحة عصابات إجرامية تُرهب العلويين الذين لا موارد لديهم ولا نصير لهم من الدولة. يعرف وطفة أهل الساحل. لم يكونوا طائفيين وكانوا دائمًا يتوقون إلى حياة عادية مع جيرانهم.

قام وطفة بمحاولة عظيمة بخصوص قضية الملكية العلوية للنظام. وبأسلوب المدافِع المتحمِّس الجيد، بذل أقصى جهده لتبرئة جماعته. هناك الكثير من الحقيقة في شروحاته. كان على حق في تأكيده أن الصفوة السنية استفادوا الكثير من النظام وخصوصًا في الاقتصاد «المفتوح» الذي اتجه إليه بشار. وبدون شك كان على حق في التذكير بأن العلويين كجماعة لم يزدهروا تحت الدكتاتورية، ولكن الدفاع المُلحّ في دعواه واضح. في سوريا آل الأسد كان للعلويين مكاسب جيدة في التوظيف الرسمي في القطاع العام من خلال التفضيل للحصول على الماء

في المناطق الزراعية وفي الفرص المعتادة للنهب والابتزاز والتي تُمنح للرجال ذوي البذلات الرسمية العسكرية. أعطت النفقة العامة لعلويي الساحل خلال سنوات الأسد ميزة لم يحصلوا عليها أبدًا من قبل. في مصفاة الزيت ببانياس، كان للعلويين أفضلية هائلة في التوظيف وهذا أشعل إحباط وغضب السُّنة في تلك المدينة. فتحت جامعة في اللاذقية تحت رعاية الدولة كانت رحيمة بالعلويين. ومع كل المميزات لتجار حلب ودمشق فإن القول بأن ذلك في الواقع كان نظامًا سنيًّا إنما هو زيف خالص. إن البراعة التي أبداها وطفة كانت لا تزال هناك فرصة لاستخداماتها. عندما تتمّ تصفية الحسابات بين الغالبية السنية والعلويين، فالفرضية بأن العلويين لم يحكموا سوريا وأن أسرة الأسد هي الفريق المذنب قد يكون طريقًا لتفادي سفك دماء ترعب النظام المسيطر لفترة طويلة يورط الجميع. فبعد أربعة عقود من الطغيان، لا أحد يستطيع ادّعاء نظافة يديه. الطغيان حاذق بهذا الأسلوب حيث يضمن بأن كل مَن في فلكه يتلوّث.

يحوم حول النقاش عن سيطرة العلويين وتفككه مسألة تماسك كيان أرض الدولة السورية. انفصالية العلويين كانت دائمًا إحدى الاحتمالات الواردة في سوريا. ففي لحظة خطر، عندما تتلاشى سلطة العلويين، ستتراجع تلك الجماعة إلى موطنها في جبل أنصاريَّة والساحل، وهناك سيعتصمون ويتركون وراءهم أرضًا محترقة.

ولذا فدولة مصطنعة ستكون نهايتها كارثية. وهذا المستقبل ستؤدي إليه الظروف المهينة والمتوافقة. ولكن هذا في الحقيقة من غير المحتمل أن يصل إلى نهاية كارثية.

فالدولة الأكثر عدم احتمالية لتكوينها ـ مبتدعة ومخطط لها من قبل صانعي خرائط لا يعلمون شيئًا عن الأرض ولا أهلها والذين هم يقررون المصير ـ استطاعت أن تستمر في البقاء. فالنظام العالمي للدول يتواطأ لاستدامة دول كهذه بناء على مبدأ الملاءمة النفعية. فعلى حدود سوريا الغربية نجد لبنان الذي تمّ تصميمه من قبل الفرنسيين في العام 1920 والإطار لحروب متقطعة محلية وإقليمية منذ ذلك الوقت، كان وطنًا لعدة اجتماعات ذات تواريخ متصادقة. ولو أن أي دولة قومية تمّ تصحيح حدودها وألغيت عضويتها في مجتمع الدول فمن المفروض أن يكون لبنان قد وصل إلى هذه الخاتمة من زمن بعيد. ومع ذلك فذلك البلد ما زال مستمرًّا حتى وهو يتعرض لامتحان كيانه كدولة ولتلاعب القوى الخارجية به. وفي شرق سوريا هناك العراق أكثر الدول «اختراعية». لقد سلَّمت بغداد بالاستقلال الذاتي ـ الاستقلال الحقيقي ـ لكردستان، والفجوة بين السُّنة في الغرب والشيعة في بغداد والجنوب هي في عمقها أكثر ما يمكن تخيله. ومع ذلك لا يزال العراق مستمر كدولة قومية. يصل العراقيون إلى حافة الهاوية ثم يتراجعون. يقتتلون حول وطن قومي وحول البلاد وهويتها والبترول. واتخذت الملاءمة طبيعة الديمومة.

لننظر كذلك إلى آخر الدول العربية التي تحدّ سوريا، المملكة الأردنية الهاشمية. هذه هي الدولة التي ادّعى ونستون تشرشل أنه أسَّسها عصر ذات يوم، دولة حدودية محايدة أسِّست من أجل أمير هاشمي كان يبحث عن مملكة لنفسه: عبد الله بن الحسين. كان الأمير عبد الله يريد حكمًا في دمشق وتاق إلى

تلك المدينة معظم فترة حياته السياسية ولكنه تصالح مع الأردن كجائزة ترضية ووصف نفسه كصقر محبوس في قفص كناري. وهذه الإمارة غير المحتملة استمرت بعد اغتيال عبد الله عام 1951 وعاشت قرابة نصف قرن من الاستقرار تحت حكم حفيده البارز الملك حسين. اجتاحت الأردن موجات من اللاجئين الفلسطينيين في الأعوام 1948، 1967، وخلال عامي 1990 - 1991 من الكويت في امتحان لكيانه وولاءات سكّانه. كانت المنطقة بحاجة إلى الأردن مثل أولئك الذين يدعون أنفسهم أردنيين. لقد كُتب نعي هذه المملكة مرة تلو أخرى وقد ثبت أن كتّاب النعي مخطئون.

ليس من المحتمل إحياء دولة العلويين أو حكومة اللاذقية ـ هذين الاسمين اللذين سمّى الفرنسيون بها منطقة العلويين. إنّ تصور أن المنفذين العلويين وضباط الأمن قد يتركون دمشق ويمتهنون العمل الزراعي في قرى عفى الزمن على أراضيها منذ زمن بعيد، هو خيال محض. ترك العلويون الأراضي لسبب منطقي: إنها لن تكفي معيشتهم ولن ترضي احتياجاتهم المادية وطموحهم. دفن حافظ الأسد في القرداحة قرية أجداده علمًا بأنه درس في اللاذقية ثم في الأكاديمية العسكرية في حمص ثم انتقل إلى القصر الرئاسي في دمشق في نهاية مشواره. كانت أعظم هدية من قرداحة له هي المعرفة الجوهرية أن الحياة كانت غير ممكنة في أعطافها. ليس هناك مجال لدولة علوية حيث إن كيانًا كهذا لن يستطيع شقّ طريقه في الحياة. في موطن العلويين يلوح الساحل في ظهر الجبال والمدن الساحلية ظهرها نحو البحر. عندما بحث العلويون عن عالم أفضل انطلقوا نحو مدن

الداخل إلى حمص وفوق كل شيء دمشق. بحثوا عن سلطة ودعم الدولة بدلًا من فرص التجارة والبحر.

كانت الاختلافات بينهم وبين أهل الشواطئ في لبنان عميقة: فقد شكَّل البحر المتوسط فلسفة حياة اللبنانيين وولَّد حضور البحر لديهم قابلية للمخاطرة والتجارة. وقد لاحظ المفكِّر العظيم آرنولد توينبي (Arnold Tonybee) في عمله الضخم «دراسة للتاريخ» الاختلاف الكبير بين طبع أهل جبل لبنان وبين سكان مناطق العلويين. تحدث توينبي عن القوة الخفية وراء نشاط البشر وسماه حافز الضغط. كان أهل جبل لبنان والساحل اللبناني مقدامين، أمّا أولئك الذين في منطقة العلويين فهم أقل تحفيزًا، «ويبدو على ضوء السوابق المحلية كما لو كان اللبنانيون تمّ تحفيزهم لتقليد الفينيقيين بسبب جدب جبالهم، بينما أفضت لطافة جبل الأنصارية إلى بقاء النصيرية في حالة خمول».

لا يستطيع العلويون العيش من البحر أو اقتطاع جزء من سوريا ويتمترسون به. إن عادات الرأسمالية تستغرق قرونًا لتطويرها وتوريثها. لم يكتسب العلويون، خلال عقود من الدكتاتورية شيئًا يُذكر من القدرات الاجتماعية التي يستطيعون الاعتماد عليها. استخدمت سلطتهم العسكرية لتعزيز ثرائهم داخل البلاد والاعتماد على الإعانات التي أتيحت للدولة السورية من دول الجزيرة العربية والخليج.

إن كيانًا علويًا تعداده قرابة مليوني نسمة، يقذف نفسه في مواجهة سلطة دمشق والعرب الآخرين لا فرصة لبقائه. قد يكون من الممكن تأجير قاعدة عسكرية في طرطوس إلى الروس، هذا سيمكِّن روسيا من الظهور كقوة بحرية عظيمة، ولكن الأمر

يتطلب أكثر من قاعدة روسية مهترئة للحفاظ على وطن قومي. إن الحلّ الصحيح أكثر تعقيدًا من سيناريو التقسيم الواضح. إن العلويين الذين في حمص ودمشق يلزمهم السكون. وبما أن الحياة هي ما هي عليه، فإنه لا بدّ من دفع ثمن التجاوزات والتهور التي تُرتكب في مسار تكوين سيادة غير طبيعية. إن العلويين وأولئك الذين سيأتون لحكم كيان سوري جديد يجب أن يصيغوا اتفاقًا بينهم ولهم. أمّا العلويون فإن مصيرهم سيكون بين مسافتين متساويتين، بين الخضوع القديم والسلطة التي آلت إليهم خلال أربعة عقود من الدكتاتورية. إن الماضي المرعب لم يكن عادلًا تجاه العلويين، فالدكتاتورية الطائفية كانت وحشية وغير طبيعية تجاه الغالبية العظمى من السكان. لن يكون هينًا للسوريين أن يجدوا مخرجًا من آتون تاريخهم القريب.

* * *

لأكثر من عشرة أشهر استطاعت قوة النظام أن تبقي دمشق خارج الاضطرابات. وبنهاية كانون الثاني/ يناير 2012 غمر التمرد المدن الصغيرة حول العاصمة. على بعد ثلاثين ميلًا ثارت المدينة المنتجع رانكهاوس وهرب أهلها طالبين الأمان عندما اجتاحها قوات الأمن. كانت دوما، على بعد تسعة أميال من دمشق قد انبعثت فيها روح التمرد من قبل وكانت منطقة صِدام متقطِّع. وبدأت عربين، والتي هي على بعد أربعة أميال من المدينة القديمة، تتحرك. وكذلك الزبداني على حدود لبنان والتي تبعد عشرين ميلًا. كان ادّعاء الحكام بأنهم حماة الاستقرار والآن نجد أنّ الدولة التي كانت يومًا ما جبّارة قد فقدت سيطرتها.

حلب التي وبّخها الثوار على خنوعها أرادت أن تستعيد كرامتها، أراد الحلبيون أن يُعرف أنهم كانوا مشتركين في الثورة منذ البداية وأن جامعة حلب كانت «جامعة الثورة». كان هناك الطيب الفاضل إبراهيم السلقيني، مفتي حلب، والذي مات في بداية أيلول/سبتمبر، أصرّ الناشطون الحلبيون على أن تتحول مسيرة جنازته إلى مظاهرة ضدّ النظام وأحرقت صور الحاكم وطالب المشيعون بمحاكمة بشار على جرائمه ضد الشعب السوري، وقال المدافعون عنها بأن حلب قد أُسيء فهمها. لم تكن من قبل ركيزة للدكتاتورية، الأماكن التي دفعت ثمنًا غاليًا للتحدي لم تكن مقتنعة ولكنها وجدت بعض العزاء من أعمال التحدي الصغيرة التي قام بها الحلبيون، واعتبروها كإشارة بأن الماكرين الحلبيين بدأوا يشعرون باتجاه الأحداث.

صادف أن يكون شباط/فبراير2012 الذكرى الثالثة عشرة لمذابح حماة ولم يترك الأسى سوريا ولكن هذه الثورة تختلف عن السابقة بصفة مختلفة. كانت هناك كاميرات الهواتف وأفلام اليوتيوب. كان هناك فيديو يوتيوب لتأبين حماة وأحزانها. كان عرضًا مرئيًّا للدمار الذي حلّ بتلك المدينة المكلومة مصحوبًا بموسيقى الرثاء والفجيعة، وكان عرضًا مؤثرًا ـ مدينة مدمَّرة كما لو كان هناك جيش أجنبي دكّها بلا رحمة. وفيديو آخر استعرض ابتذالية الشر، يظهر فيه رفعت الأسد، الأخ الأصغر لحافظ الأسد، وهو الآن في المنفى، مزهوًّا وحائرًا سيئ الهندام. كان هو الذي قاد الهجوم على حماة، يتحدّث الآن عن ذلك الزمن كما لو أن كل شيء يجب أن يُغتفر ويُنسى. تكلم بصفة رجل دولة وأمن. وبَّخ أولئك الذين يتحدثون عن حماة بدون علم. رفعت

كان هناك، قال إن الإخوان (المسلمين) كانوا مخربين وعتاة وإن قادتهم أصدروا فتاوى أعلنوا فيها أن العلويين والدروز والإسماعيليين كفار. الإخوان المسلمون لم يتركوا «للثورة» البعثية أملًا في الاستمرار. هاجموها مبكرًا في العام 1964 بعد عام من استيلائها على السلطة. كان هناك استكبار وبلادة أخلاقية في عبارات الرجل وتعابير وجهه. أحلام السلطة لا تموت أبدًا. كان من المعلوم أن هذا الرجل، عمّ بشار، قدّم نفسه كخيار بديل لابن أخيه. في هذه الثورة الموثّقة والمصورة، كان هناك مناظر لها من المذابح والمآسي. من حمص، كان هناك فيديو من نهاية كانون الثاني/يناير لامرأة عجوز تتوسل لقدوم فرسان العرب للإنقاذ قائلة لهم: إنّ السُّنة يُذبحون. وفي فيديو بتاريخ 30 كانون الثاني/يناير، أيضًا من حمص عرض عن قتل عائلة بأكملها وعليها آثار تعذيب وحشي وطفل لا يزال متعلقًا بشعر أمه. هنا نجد أن الكاميرا متغلغلة تفضح كل شيء وتسبّب الغثيان. يقول أحد الشبان إن هذه ليست هوليود وهذا ليس فيلمًا بينما الكاميرا تقترب كثيرًا من الضحايا، وأضاف قائلًا: لقد تعبنا من أخذ الصور. سوف نلقي الكاميرا جانبًا ونحمل البندقية. كان هناك رجل عجوز يدعو الله بأن يحلّ الرعب الذي وقع على الأطفال السوريين على الروس والصينيين الذين ساندوا الدكتاتورية.

كانت هناك توقعات في دوائر الحكومات ودهاليز الدبلوماسية بأن هذا النظام لن يدوم. كان النظام وأولئك الذين قطعوا صلتهم به كلاهما يراهن أن الوقت معه ولكن الوقت لم يمِل بعد إلى أي جانب.

*** 

3 شباط/فبراير استرُجع أسى حماة العميق قبل ثلاثة عقود: «سامحينا يا حماة» كان الاسم الذي أعطِي لتلك الجمعة. كان هناك رابط دائمًا بين التوأمين حماة وحمص في السهول الوسطى. اشتهر الحمويون بورعهم الديني وعزلتهم بينما كان أهل حمص دائمًا مثارًا للتندر. مرة أخرى تكرس ذلك التنافس الحميم. تمّ استشهاد «حماة» على يد الأب، وحمص الآن على يد الابن. لقد انهال الابن على حمص بكامل جبروت نظامه.

إذا أعتقد أهل حمص أن مآسي حي بابا عمرو، من قصف بالقنابل وحرمان من الدواء والطعام والماء، سوف يجذب القوة الدولية إلى جانبهم، فقد جاءهم شباط/فبراير بخيبة أمل مضطردة. ففي 4 شباط/فبراير، أحبط مجلس الأمن في الأمم المتحدة قرارًا يدعو إلى استقالة بشار الأسد. من الواضح أن روسيا والصين اعترضتا على القرار. وظهر وزير خارجية روسيا، سيرغي لافروف، كمدافع عن دكتاتورية دمشق. كانت تلك فرصة لروسيا لتذكير الديمقراطيات الغربية بأن روسيا ما زالت قوة بين الأمم.

كان هناك عزم ومساعدة حقيقية تقدم بها أصدقاء النظام السوري - روسيا، وإيران، والصين، وحزب الله - وتذبذب في صف الديمقراطيات والأنظمة «المعتدلة» العربية. لقد أظهر الأخيرون تذبذبهم تجاه الثورة السورية في نهاية شباط/فبراير في تونس في اجتماع دبلوماسي لِما سمي أصدقاء سوريا ولم يقدِّم الاجتماع نجدة للبلد المحتضر. أعلن المضيفون التونسيون أنفسهم في مساء هذا الاجتماع أنّ التدخل العسكري الأجنبي في سوريا غير وارد.

توقف الإنقاذ على القيادة الأميركية ولم يكن ذلك في المستقبل القريب، فهناك الرئيس الأميركي الفخور بأنه أنهى حرب العراق وسحب الجنود الأميركيين من تلك البلاد، لم يكن على استعداد لدفع قوة أميركا للدخول إلى الجانب الآخر من الحدود العراقية ـ السورية.

لم يكن هناك شحّ في أعذار السلبية الأميركية: أميركا لا تعرف الأطراف في القضية ولا تستطيع أن تثق بالجيش السوري الحر، وليس هناك قرار من مجلس الأمن في الأمم المتحدة بإذن التدخل الأجنبي، وغير ذلك. ففي 26 شباط/فبراير بدّدت وزيرة خارجية الولايات المتحدة هيلاري كلينتون في مقابلة مع سي بي إس في الرباط عاصمة المغرب، كل أمر تقريبًا في أن يحدث إنقاذ للسوريين. كان حديثًا صاعقًا ودليلًا على قوة مقدرة لصرف نظرها عن أماكن الاضطرابات. تساءلت «لماذا لم يثُر أهل دمشق وحلب؟ ألا يعلمون بأن رفاقهم من الرجال والنساء والأطفال يُذبحون من قبل حكومتهم. ماذا سيفعلون حيال ذلك؟ متى سيبدأون في نزع الدعامات من تحت هذا النظام غير الشرعي؟ أضافت بأن سوريا ليست المكان الوحيد حيث الناس ضحايا الوحشية، ملايين من البشر قتلوا في شرق الكونغو ولم يجد ذلك الرعب طريقه إلى التلفزيون «لم يكن هناك استخدام لـ«سكايب» من الأدغال التي هي ساحات قتل. يجب أن تكونوا واضحين في رؤيتكم حول الممكن وحول عواقب أي شيء قد تتمنون أن يُفعل». الأوضاع غامضة أخلاقيًّا وسياسيًّا على ساحة الأرض السورية. شارك أيمن الظواهري بحديث مُذاع باسم المعارضة. قد تتورط أميركا كما قالت رئيسة دبلوماسية في صف

الشيطان وسألت الوزيرة كلينتون: «هل نحن ندعم القاعدة في سوريا؟ هل نحن حماس في سوريا؟» كانت المقارنة مع ليبيا جزءًا من إعلان ذلك التنصل. «ليس هناك بنغازي في سوريا ولا نرى تجردًا في سوريا كالذي رأيناه في ليبيا. هناك معاناة إنسانية رهيبة في سوريا. ولكن الإثم واقع على قوات الأمن الذين يقومون بذلك».

الصراع الكبير في سوريا استعاد الجدل حول البوسنة في بداية التسعينيات. لمدة ثلاثين شهرًا طوال قاسية بينما كان جورج هربرت ووكر بوش وبيل كلينتون بلا حراك، استمر القتل في البوسنة وكان البوسنيون يرزحون تحت رعب بلا هوادة وبالمقارنة بتلك المدة الزمنية ومقدار الرعب لم تصل سوريا إلى ذلك المستوى بعد. لم تحدث صربنة بعد في سوريا. كان هناك ولا يزال في عالمنا تساهل ولامبالاة عالية تجاه المعاناة البشرية العظيمة. صرّح ناشط مجهول على تويتر بتاريخ 15 آذار/مارس في ذكرى مرور عام على الثورة قائلًا «إنها ثورة من أجل التغيير والآن أصبحت معركة من أجل البقاء» ولو كانت الأمور سارت كما تونس ومصر لكان قد انطفأ منذ وقت طويل، تصاعدت الخسائر البشرية، وتشير الأعداد بأن النظام مصمِّم على الانتصار بأي ثمن. إن الأرقام في بلد غير مفتوح على العالم الخارجي كانت تقريبية فبينما لقي 700 إنسان حتفهم في نيسان/أبريل 2011، فقد قتل 1200 شخص في كانون الثاني/يناير 2012، و1800 شخص تقريبًا في شباط/فبراير، وفي ذلك الوقت كان النظام قد دمّر حمص وتحولت نقمته إلى إدلب، يقدِّر الإحصاء التقريبي عدد الذين قضي عليهم

8000 ضحية بينما كل التقديرات الأخرى كانت أعلى من ذلك بكثير.

قليل من السوريين يعتقدون بأنّ آلاف المفقودين سيظهرون مرة أخرى. حوَّل عنف النظام أي محاولة لتحديه سلميًّا إلى سخرية وهزء. تعرض فايز سارة الكاتب والصحفي للسجن مرتين عندما شارك في مظاهرة صغيرة في دمشق في 18 آذار/مارس. وقال سارة البالغ من العمر 62 عامًا إن النظام يريد معارضة تتّسم بطبيعته نفسها. لم يبق لدى السوريين أي وهم كان لديهم حول سهولة الإطاحة بالدكتاتورية. عندما بدأ كل ذلك نظر السوريون إلى العنف الذي حلّ بجيرانهم في لبنان والعراق وأرادوا أن يعتقدوا بأن بلادهم سوف تنجو من المذابح. والآن يعرفون الحقيقة.

وبينما كانت العصابة الحاكمة تسوم السوريين سوء العذاب كانت تعرض أمامهم شيئًا من «عادية الشر». وجد الهاكرز طريقهم إلى الرسائل الإلكترونية للرئيس وزوجته، كنز من حوالي 3000 رسالة ما بين حزيران/يونيو 2011 وشباط/فبراير 2012. أشارت جريدة «الغارديان البريطانية» أنها تسلمتها من مصدر في مكتب الحاكم. كانت الرسائل حقًّا مدهشة، لقد كان باستطاعة بشار الأسد أن يُصدر أوامر القمع ويسجِّل أغانيه المفضلة من «آلان تونز». كان هناك في حاشيته شابات يحومون حوله ويجدن متعة في قوته وحكمته وجاذبيته وبالطبع جماله. كان والد زوجته طبيب القلب المشهور ذو الخلفية الحمصية يسدي النصح حول كيفية إدارة حرب العلاقات العامة وهناك زوجة الحاكم تتسوق على الإنترنت بحثًا عن ثريات وأحذية

وطقم «فوندو» وآخر مسلسلات هاري بوتر. كان الزوج الحاكم والزوجة يعتقدان بأنهما يستطيعان تجاوز الأزمة. جاءت هذه الرسالة من السيدة الأولى «إذا كنّا أقوياء مع بعضنا البعض فستتجاوز هذا مع بعض. أحبك».

## الفصل العاشر

# الحلم بالأمان:
# ملاحظة عن المنسيين

وجدتُ الشيخ أنس العيروط على مشارف (أطراف) اسطنبول في ظلّ مسجد الحي. كانت منطقة الطبقة العاملة هذه بعيدة كثيرًا عن مركز المدينة. قرأت وكتبت عن هذا الشيخ الذي قاد شباب المدينة الساحلية بانياس ضد النظام. في شباط/فبراير 2012 جئت إلى تركيا لكي أرى بنفسي بعض المعارضين السوريين الذي اتخذوا من تركيا قاعدة لهم، وفوجئت على الحال بالصغر النسبي لسن ذلك الشيخ. رجل وسيم ذو أربعين ربيعًا، له لحية صغيرة ويرتدي سترة جلدية وليس هناك ما يدلّ على انتمائه. لقد فهمت لماذا انجذب نحوه شباب مدينته. كان خطيب مسجده وكان والده رجل دين معروف واتبع أنس خطاه. تخرج من كلية الشريعة في جامعة دمشق، كان من السهل أن تراه نجمًا بين أقرانه، كانت قوة ذاكرته وسلاسة لغته ومعرفته بالأوضاع السياسية في بلاده أمورًا ظاهرة للعيان.

فُقد الساحل السوري، الآن لديه في هذا الحي القاتم المحاط بالتلال الجرداء. لم يكن الشيخ أنس يريد أن ينغمس

في هذا التمرد، كان يعرف الظروف الخاصة لبانياس ذات السكان الخليط من السُّنة والعلويين، وقربها من الريف العلوي والتواجد الكثيف لقوات الأمن. ولكن بانياس بدأت تتحرك في بداية عام 2011. كان فخورًا بمدينته الأم وأكَّد بأن عصيانها تزامن مباشرة مع درعا. جاء إليه شاب ذو اثنين وعشرين ربيعًا وطلب منه أن يقود مظاهرة ضد النظام ولكنه تردَّد وأخبر الشاب بأنه لا يعتقد بأن بانياس يانعة بعد وأنه قد يحدث إحباط فيما لو نادوا بمظاهرة قد تنتهي بالفشل، لكن ذلك الشاب المحدود التعليم كان مصرًّا ويردد الآية القرآنية ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ﴾. بعد عدة أيام عاد الشاب ومعه مجموعة من أصدقائه لمناشدة الشيخ أنس. وافق الشيخ أخيرًا وكان موضوع خطبة الجمعة في ذلك الأسبوع هو دعوة الناس إلى تغيير أوضاعهم. لم ينادِ بالإطاحة بالنظام، تحدث عن «الإصلاح» وإنهاء حكم الطوارئ وإطلاق السجناء والمعاملة غير العادلة والتي تفضِّل العلويين. كانت مصفاة الزيت في بانياس توظف 4000 عامل، حفنة منهم كانوا من السُّنة. كان العلويون يؤتى بهم من مناطق بعيدة كحمص لملء تلك الوظائف المرغوبة في المصفاة بينما يُستبعد شباب بانياس من السُّنة. كان هناك أيضًا موضوع رسوم الكهرباء، كان السُّنة يدفعون ثمنًا باهظًا للكهرباء بينما كان العلويون يدفعون رسومًا رمزية. باعتراف الشيخ أنس كانت هناك قضية أغضبت مدينة بانياس المحافِظة: التعليم المختلط. كانت الحكومة قد أصدرت أوامر الاختلاط ولكن المدينة (كانت غاضبة) تذمّرت من التخلي عن التقاليد. وقد أدى اغتصاب طالبة من قبل زميلها إلى جعل المدينة في حالة هياج. في نظر المجتمع السُّني كان النظام مصرًّا على إبعاد

المؤمنين عن ثقافتهم ودينهم. لم يكن هناك شحٌّ في التظلم: فصلت الحكومة المدرِّسات لارتدائهم الحجاب، ووقعت الواقعة عندما ألقى هذا الخطيب موعظته. كانت قوات الأمن سريعة في مراقبة الشيخ أنس. طلب منه بأمر رسمي أن يقدِّم تسجيلًا لخطبته بحيث يسجل كل خطب الجمعة لتكون جاهزة عند الطلب. قدَّم تسجيلات الخطب ولكنه رفض الذهاب إلى مركز الأمن. كان يتوقع بالتأكيد أن يُلقى القبض عليه، جاء إليه رئيس الأمن المحلي ودافع الشيخ عن نفسه، أشار إلى أنه يؤدي واجباته الدينية، يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويدعو إلى الإصلاح، وقال إنه ليس فيما فعله فتنة. وانتشرت أخبار متاعب الشيخ أنس وتوافد الناس من القرى السُّنية المجاورة للصلاة في مسجده. كان ذلك في بداية التمرّد وتراجعت قوى الأمن. ولم يخرجوا من عقال ضبط النفس. لم تكن هناك في المدينة ثقافة سياسية عميقة كما أشار الشيخ أنس إلى ذلك. كان الهتاف (حرية) هذه المفردة التي عرفتها الجماهير. أرسل النظام مسؤولًا دينيًّا عالي المستوى للتعامل مع الشيخ أنس وكان ذلك هو مفتي طرطوس. قيل للشيخ الشاب بأنّ عليه أن يقتصر على الأمور الدينية ويتجنَّب المواضيع السياسية. لم ترهبه مرتبة الزائر، كان ذلك المنصب السُّني أداة للنظام وتمسَّك الشيخ أنس بموقفه. كانت المؤسسة الأمنية والمؤسسة الدينية توأمين كما قال لي الشيخ أنس. كانت وزارة الأوقاف الدينية أسوأ من أجهزة الدولة العلمانية. كان الوزير يتميَّز بالسخرية الحقّة ولم يكلف نفسه تغطية خضوعه للحاكم وولعه بالعطايا والجوائز الرسمية. قايضت المؤسسة الدينية روحها وإحساسها بالواجب لقاء الهدايا الرسمية. قبل يوم من لقائنا كان الشيخ أحمد صادق ذلك الشيخ

الطموح في دمشق وإمام مسجد أنس بن مالك قد اغتيل، كان أصغر من الشيخ أنس بعدة أعوام، وقد ترقّى بسرعة خارقة بما في ذلك تعيينه إمامًا لمسجد في العاصمة ومنحه عطايا مالية مقدمة من النظام. تحدث الشيخ عنه بدون انشراح، كان ذلك الرجل مقربًا من المخابرات ولم يكن عالمًا من رابطة دينية ولم يجذب إلّا القليل من الناس إلى مسجده. وكانت خطبه فاشلة تمامًا كما قال الشيخ أنس. كان تكيُّفه مع النظام اختيار رجل فاشل كما أضاف الشيخ نفسه. عمل الشيخ أنس ما استطاع فعله من أجل بانياس ولكن النظام كان يلاحقه. تمّ تهريبه خارج البلاد ثم تبعته زوجته وأولاده الأربعة إلى تركيا. كانت أول محطة له في مخيمات اللاجئين في أنطاكيا على حدود سوريا. ولكن السلطات السورية أحسَّت بالخطر وكان لنظام دمشق متعاطفون وعملاء من بين اللاجئين فتمّ نصحه بالذهاب إلى اسطنبول. كان المنفى مؤلمًا، كان يحاول تعلُّم اللغة التركية وأصابه القلق على أطفاله الذين كانوا آنذاك في مدرسة سودانية، كان يتواصل على «سكايب» مع أتباعه في الوطن، كان رجلًا من الساحل وبرغم كل مساوئ النظام إلّا أنه كان متمسكًا بالأمل من أجل وطنه. لم يكن يعتقد بأنه سيحدث انتظام كبير من العلويين. كان يعرف الساحل كما قال، فبعد الاضطراب ستأتي المصالحة. لقد تمّ فصل البلاد عن تراثها ولكنه يعتقد أن ذلك التمرُّد محتوم أن يُعيد لها الحياة من جديد.

* * *

خالد خوجه كان في قلب نشاط المجلس الوطني السوري

في تركيا. كان طبيبًا ورجل أعمال في مجال العناية الصحية حظي به التمرد في وقت الحاجة إليه، كان لديه جنسيتان، يُتقن اللغة التركية ويعرف مسالك اسطنبول وأنقرة. ولد في العام 1965 وقدِمَ إلى تركيا عندما كان يافعًا بعد أن قضى سنتين في السجن. أرسل إلى السجن عندما كان عمره 25 عامًا مع أمه وعوقب كلاهما على نشاط أبيه السياسي، كان الأب ناشطًا في نقابة الأطباء ومتعاطفًا مع الإخوان المسلمين وعانى من السجن لمدة ثلاثة عشر عامًا. بالنسبة إلى خالد حدث سجنه في فترتين. أطلق سراحه بشرط أن يكون مخبرًا ضد أقرانه أو «يكتب تقارير» كما هي لغة النظام. ولم يلتزم بما طُلب منه، فتمّ القبض عليه مرة أخرى. لا يعتقد أنه كان أصغر السجناء السياسيين حيث إن خطايا الآباء عادت على الأبناء في ظلّ الدكتاتورية البعثية.

في السجن، وجد أمله في الإسلام الذي أمدّه بالعزاء الذي مكّنه من احتمال الوحدة والقسوة. كان هناك شيء واحد أسوأ من التعذيب كما قال، وهو سماع الآخرين يعذَّبون. تذكر أحد جهابذة (زبانية) جهاز الأمن محمد ناصيف. كان ناصيف أحد أكثر المعاونين قربًا من حافظ الأسد، وكان لا يزال مركز بؤرة الاستخبارات عندما كان التمرد يتأجّج. كان هناك شيء ما غريب في ناصيف، كما ذكر خالد. كان يزور السجناء السياسيين ويدخل معهم في حوار يبدو أنه لطيف. ناصيف علوي وكان يعنِّف الإسلاميين بسخرية مهينة: كانوا يؤمنون بالجنة والنار بينما كان هو شخص (لا أدري) يستمتع بماديات الدنيا. كان ناصيف يقول إن الجنة هي دنياه ـ مسكن دافئ، وسلطة،

ونساء، وطعام جيد وحياة سهلة، أمّا الجحيم فهو ما خلقه هؤلاء السجناء لأنفسهم.

لم يثنِ ذلك عزيمة خالد الذي لجأ إلى الصلاة وحافظ على أدائها منذ ذلك الوقت. وصف نفسه بأنه مسلم عصري وكان ذلك ينطبق عليه بكل معنى الكلمة: حداثي المظهر، ونحيل وأنيق الملبس، وحقًّا حداثي في أسلوبه وتصرفاته. كان جدّه هو الذى اعتنى به ومكّنه من الذهاب إلى تركيا. كان في عائلته الكبرى أتراك. لقد تذكّر حادثة جعلته ينجذب إلى أساليب الديمقراطية التركية. جاء رئيس تركيا ترغت أوزال (Turgut Ozal) ذات مرة لزيارة مدرسة خالد. كان يقود سيارته بنفسه فاحتشد الطلاب حوله إعجابًا به. تقدَّم أحد الطلاب وأودع ورقة في جيب أوزال الذي سأل عن الذي أعطاه إياه الطالب، فأجاب الطالب إنها رسالة صغيرة تشرح نفسها، ولكن أوزال أصرّ، فهمس الطالب في أذن أوزال، ذلك الرجل الضخم الاجتماعي والمحب للمزاح مسح على رأس الطالب وأخبره بأن رغبته ستتحقق. ذات مرة رأى خالد حافظ الأسد المخيف عن بُعد، كان مشاركًا في استعراض عيد يوم أيار/مايو حيث مشى هو وزملاؤه أمام الطابور. كان معهم بنادق بدون ذخيرة، وكانت المسافة التي تفصل الدكتاتور عن الطلاب كبيرة جدًّا حتى أن خالد لا يستطيع التأكيد أنه رأى الحاكم.

عبَّر هذا اللقاء في تركيا عن أساليب المجتمع الأكثر إنسانية. ولد خالد في دمشق، التقيته مع زملائه السوريين والموظفين في المكاتب المتواضعة التي كانت مقرًّا للمجلس الوطني السوري. كان يتعامل معهم بصبر وشيء من التعاطف.

لقد قال بأن وطنه الأصلي قد تخلف وبأن أهله بحاجة إلى مهاراته وكان لا يكلّ. ففي الوقت الذي أمضيته معه والذي كان أكثر من أسبوع، لست متأكدًا إذا كان قد قضى وقتًا مع زوجته وأطفاله. كان الإرهاق مستمرًّا وكان أكثر حيوية من جميع الذين كانوا حوله. كانت لغته الإنكليزية ممتازة وكان يتابع التصريحات الأميركية حول سوريا باهتمام وفضول. كان في حيرة من سلبية القوة الأميركية. كان ينتظر إنقاذًا. كان لديه بعض التفاؤل المتحفّظ. كان يعتقد بأن النظام لا محالة زائل ولكنه لم يكن متأكدًا من التوقيت والتكاليف. لم يكن بحاجة لاسترجاع ذكرى عالمه القديم في دمشق: لديه بلد أكبر له الآن. ولكن واجبه نحو سوريا يجري في عروقه وكذلك ولعه بعالم السياسة. كان يريد أن يدرس العلوم السياسية - كما قال لي - ولكن أمه عارضت ذلك بشدة. كانت تريد له كلية الطب، عملٌ آمنٌ بعيد عن كل الشؤون السياسية. كان دائمًا الابن المطيع ثم جاء التمرُّد ليدق بابه. كان يتحدث عن والده العجوز بمحبة ظاهرة. كان الرجل خائفًا في البداية عندما اندلع التمرد، ولم يكن من السهل إقناعه بالاشتراك في المظاهرات أمام القنصلية السورية في اسطنبول. ولكن الشجاعة دبَّت فيه وأخبر ابنه بفخر بأنه اشترك في مظاهرة في دبي، استسلم الطبيب الشاب لمشواره: لم تكن لديه حياة طبيعية إلى أن يَقتلع التمرد الدكتاتورية. ولم تثنِه تجارته وأهله عن هدفه.

* * *

كان خالد خوجه هو الذي اقترح أن أقضي بعض الوقت مع «أبو حازم» أو رياض شقفا، أمين عام الإخوان المسلمين. تقابلنا

في مكتب المجلس الوطني السوري وجاء شقفا مع ابنه الذي كان هادئًا ومؤدبًا. بدا لي حالًا في شقفا أسلوب وتصرف الإخوان المسلمين «الجُدد». كان ذا لحية قصيرة ويرتدي فنيلة تحت سترته وطبعه متحفظًا وودودًا، ولد في حماة عام 1944، وأُثر تلك المدينة كما علمت منه ومن ابنه ميَّزته ومكثت معه طيلة سنين المنفى. كان مهندسًا مدنيًا، فقد كانت هذه المهنة الهندسية متواجدة أكثر من أي مهنة أخرى بين الإسلاميين. لقد هرب من سوريا في عام 1980 خلال الحرب بين الإخوان والنظام. كان على علم يقين بأعباء المنفى الطويل، وتحدث عن واقع سوريا بتواضع، لم يكن يتنبأ بمملكة سياسية إذا ومتى سقط النظام. أشار إلى أن الحكام غيّروا البلاد، وأنهم فرضوا إرادتهم عليهم وأفسدوا حياته السياسية والدينية لقد حكمت عائلة الأسد لأكثر من أربعة عقود وسيتطلب أكثر من أربعة عقود لإصلاح وعلاج تلك البلد.

لم تكن سنوات المنفى سهلة، ذهب إلى العراق وعاش في بغداد حتى عام 2006. والنظام السوري والمعروف بمهاجمة ناقديه في البلاد الأجنبية أرسل أحد قتلته إلى العراق فأصاب شقفا في ساقه. ولم يكن شفاؤه سهلًا، أخبرني بأنه سامح ذلك الشخص الذي كان سيغتاله، كان قاتلًا مأجورًا جنّدته قوى الأمن ثم تخلصت منه. بعد العراق اتجه إلى شمال لبنان إلى طرابلس المدينة السُّنية المحافظة ذات العلاقة القوية مع الإخوان، في طرابلس يُعتبر مولد الإنسان في حماة بركة وأحسّ بنعمة العطف الصادق. تحدّث شقفا بفخر عن ماضي سوريا ورواه بدون حماس مبالغ كمن يعطي درسًا في الواجب الوطني وفي نظره كانت سوريا بلد التعددية الدينية. عاد إلى الوراء إلى سنوات ما بين

الحربين عندما كان للمسيحيين دور بارز في السياسة السورية مسلِّمًا بأنه لن يكون من السهل إعادة الوفاق بين الطوائف. قال إنه «ابن حماة» ويعرف بأن الماضي لم يكن زمنًا سعيدًا. كانت هناك ثارات بين حماة والمنطقة العلوية الداخلة ولكن تلك كانت ثارات نشأت من الجهل ومن فخر المدنيين على الفلاحين. ولا يُعتقد بأن جرائم الحكّام وجنودهم ينبغي أن تكون جرائم علوية جماعية. تحدث عن مهارات النظام بأنها جرائم عبقري مجرم. ولم يكن وحيدًا في تعجبه من مكر حافظ الأسد. كان يتفكر في سلوك مجتمعه ـ الغالبية السنية ـ ببعض من الحيرة. خضعوا لحكم الأقلية وانحنوا لإدارة الدكتاتور. والآن هم في ثورة يعلمون أنفسهم أنهم هم الذين صنعوا أغلالهم بأنفسهم. أشار إلى أن الحكام كانوا على علم وبصيرة بضعف أولئك الذين أرادوا أن يوقعوهم في الفساد، أعطوهم ما كانوا يتوقون إليه ـ المال والسلطة وصحبة النساء. ولذا تمكنوا من عزل الأغلبية عن الحياة السياسية وجعلهم مجرد متفرجين على آمالهم. ولكن كل ذلك تغيّر الآن فلن يعود السوريون للطاعة وسلبية الماضي. لم تكن فعالية المعارضة السورية متميزة ولكن تضحيات الشعب السوري اكتسحت تلك المخاوف. ولن تعنّف دمشق أو حلب لركودها النسبي فقد عرف ثقل وعبء الإرهاب الرسمي.

تحاشى موضوع موقف الإخوان تجاه الأقليات الدينية. قال إن النظام قد سمّم البئر، يحتمي وراء مجتمعات الأقليات بينما يدّعي أنه حاميهم. الإخوان المسلمون دائمًا يتقرّبون من الأقليات. استشهد بمصر، مكان ولادة الإخوان المسلمون، في عهد مؤسس الإخوان، حسن البنا، كان الأقباط في سلام مع

الإخوان. عملوا في مكاتبهم واشتركوا في حزبهم الانتخابي للبرلمان. كان الوضع كذلك في سوريا قبل أن يمزق الجنود المتطرفون والمنظّرون السياسيون، الحياة السياسية. كان لدى شقفا إجلال خاص لشخصية سياسية من ماضي سوريا محامي بروتستنتي وسياسي يُدعى فارس الخوري. كان الخوري رئيسًا للبرلمان ووزيرًا ومارس نشاطه السياسي لفترة طويلة. كان رئيسًا للوزراء ثلاث مرات آخرها في عام 1954 عندما كان في أواخر السبعينيات من عمره وكان زعيمًا قديرًا، وأشار شقفا إلى أن سوريا لم تتطرق ولم تتحدث عن القوى العظمى كرجل مستسلم لممارساتها. فالولايات المتحدة وفرنسا وبريطانيا لم تلتزم بمبادئها. لقد وفروا العون والاطمئنان للطغيان العربي ولذلك خانوا مبادئهم أنفسهم وسهلوا أمور الدكتاتوريات. سمعت منه المعتاد بأنه لا يريد أن يرى التدخل العسكري الغربي في بلاده ولكن اتجاه المحادثة الطويلة يشير إلى خلاف ذلك. تحدث عن مساندة إيران للنظام وكذلك حزب الله بدقة وواقعية، فهما في هذا الصراع إلى النهاية وأشار إلى أنه لن يكون هناك مصالحة معهما. يفخر حزب الله بأنه حركة مقاومة، وأنه يتحدى القمع، وها هو يقف مع الطاغية ضد ضحيته.

قال إن سوريا الجديدة لن تُحكم من قبل الإخوان. لقد حظرها النظام في عام 1980، وكان الانخراط في عضويتها عقوبته الإعدام. لقد شاخت منظمة الإخوان، كما قال. وأشار إلى ابنه الجالس بجانبه قائلًا إن هذا الشاب المولود في العراق سيكون خاضعًا للمحاكمة في سوريا لأنه ابني. كان النظام دائمًا يتبع سياسة حرق الأرض تجاه الإخوان، وسيُدينهم القضاة حتى

لو أنكروا صلتهم بالإخوان.

كانت هناك موجة إسلامية في المنطقة، الأمر الذي أسعده بأن الفوز الانتخابي لرجال مثله في تونس ومصر وصعود الإسلاميين في تركيا يبشر بخير لسوريا. تركيا كانت قريبة من سوريا جغرافيًّا وثقافيًّا، كما أن الإنجاز الاقتصادي والسياسي في تركيا برعاية حزب العدالة والتنمية بقيادة رئيس الوزراء رجب طيب أردوغان هو دحض قوي ضد كل الذين أصرّوا على أن الإسلام السياسي يؤدي إلى الفشل والدمار. قال شقفا: إن حلمه الطوباوي هو «دولة مدنية» يستطيع فيها كافة السوريين العيش بكرامة واحترام في الحياة العادية.

تغلغلت ذكريات حماة في أفكاره، كان يعلم عن سمعتها في عدم التسامح الديني، ووضع ذلك جانبًا. كان هناك سياسي مسيحي في حماة كما يتذكر، إيلي نسور كان حليفًا للإخوان وسعى للوصول إلى البرلمان من خلال الإخوان. قال إن والده كان صديقًا حميمًا لمطران حماة. تبادل الاثنان الزيارات في المناسبات الدينية. لم تكن مدينة مولده في الداخل السوري تنعم بسلام مطلق. كان يعرف ذلك ورأى ذلك الماضي الدامي من منظور التجربة والمنفى. اختيرت حماة لتعاني بسبب التزامها الديني. لم يكن لديه أي اهتمام للعودة إلى الماضي. ليس لديه بيت في حماة، كان النظام قد صادر ممتلكات كل الذين وقفوا ضده، ولكنه الآن في تركيا، ابنه المولود في العراق بجانبه وكان واثقًا من أن مدينة صباه سيكون فيها مكانًا لكليهما.

* * *

ومن بعيد، تحدثت القوى التي كانت عازمة على أن تكون

بعيدة عن سوريا، عن غموض المعارضة السورية. كان ذلك تكرارًا لما قد قيل عن الليبيين حينما ثاروا ضد دكتاتورهم، ولكن لم يكن هناك ما هو معتم حول زعماء المعارضة الذين قابلتهم. كان السفير بسام عمادي نموذجًا لكل ما هو معروف عن البرجوازيين السوريين. كان دمشقيًّا صعد إلى أعلى مراتب العمل الدبلوماسي. كانت لغته الإنكليزية راقية ودقيقة. كان رجلًا اجتماعي الطبع وواثقًا من نفسه ولم يكن متلهفًا على إرضاء الآخرين. انشقّ قبل شهور عديدة فقط وذهب إلى اسطنبول. كان سفيرًا لدى السويد وكان ضجرًا من تمثيل ذلك النظام الملطخ.

ولد عماد في العام 1950 وكان ذا موهبة لازمته دائمًا. كان النظام غالبًا ما يمنح مراتب السفارة للموظفين العلويين. أتيحت له الفرصة وكان يبدي رأيه بأقصى حدود الحرية التي يسمح بها النظام. مارس عمله في تنقلات في المهام خارج البلاد وبعض الوقت داخلها. فتحت تلك الفترات المتكررة في الخارج عينه على تدهور بلاده المستمر. كانت المؤسسات العامة تتمزق وكان النظام التعليمي في وضع تعيس وأصبحت الرشوة والفساد هي نمط الحياة. ولم يكن الوضع أفضل في العمل الدبلوماسي. كانت السفارات مراكز تجسس في ذاتها. لم يكن يريد أن يشي بالسوريين في الخارج وفكر في خياراته وكان لجوؤه إلى تركيا طريقًا الخلاص. كان رجلًا قلقًا وكانت الحياة في فندق في اسطنبول ليست ما يريده لنفسه.

كان رجلًا ذا دهاء وكان يعلم أساليب النظام والقائمين عليه. كان له مداخل إلى دوائر السلطة. في اجتماعات عديدة

مع بشار كانت كافية لمعرفة عدم كفاءة الحاكم والتملُّق الذي يحيط به والغرور والتملق الذي نشأ عليه. فوراء الجلبة والجبروت رأى بسام عمادي جبن الطغمة الحاكمة. حقًّا، كان القادة العسكريون ورؤساء الاستخبارات وحشيين تجاه المدنيين العاديين ولكنه كان على ثقة أنهم سيهربون لو نزلت علهيم ضربة من الخارج. ليس فقط الجبن الذي ترك انطباعًا لديه عنهم، بل الإحساس العميق حول عدم كفاءة العلويين في التعامل مع دمشق والدمشقيين. كان هؤلاء العلويون في الدوائر المهمة للسلطة حريصين على تقليد أساليب الدمشقيين وعلى التزاوج معهم والتعلم من مهاراتهم. هناك طرفة أعجبته: وظف أحد العلويين المسؤولين الكبار أحد أقاربه البعيدين كسائق له وقد كاد هذا الرجل أن يدمر السيارة بالتمام، تلك السيارة التي يفضلها ذلك المسؤول الذي عاد مرة أخرى إلى سائقه الدمشقي.

كان الأمر كذلك في الأمور الصغيرة والكبيرة. لم يستخدم العلويون وقتهم في السلطة بطريقة جيدة.

لم يكن بسام عمادي معجبًا بالعجوز الأسد ولكنه كان منصفًا: كان الدكتاتور دقيقًا ومنهجيًّا. أشار إلى حادثة كانت تدلّ على أسلوب العجوز في فرض إرداته على من حوله. اختار شخصًا لملف استخباراتي رئيس. أعطاه إحدى الملفات المرعبة ليراجعه. كان الملف سجلًّا مفصلًا حول رجل الاستخبارات نفسه. كان سردًا استقصائيًّا حول معاملاته المالية ومغامراته الجنسية وتصرفات عائلته.

وصعق الرجل وأعلن ولاءه للحاكم وتسلَّم مهمة المنصب الذي أوكل إليه. عرف عمادي حافظ الأسد في العمل: كان

الانضباط. الذي أسسه قد فقد وأصبحت الجمهورية إقطاعيات شخصية متصارعة. حتى الزعماء والمنفذون كانوا على علم بعيوب النظام وليس من المحتمل أن يدافعوا عنه إلى النهاية.

خلال يومين سينطلق عمادي إلى تونس لحضور اجتماع أصدقاء سوريا - وهو اجتماع حكومات غربية وعربية ومنظمات دولية تبحث عن مخرج لمعاناة البلد وكرجل واقعي محنك في الأمور الدبلوماسية، لم يكن متفائلًا حول ذلك المسعى. كان قلقًا من أن تلك القوى ستترك الشعب السوري تحت رحمة النظام ولكنه سيذهب، على أي حال لم يكن قد ترك عمله ووطنه ليُضِع وقته في اسطنبول. لم يكن طعام الإفطار في فندقه ما كان يتوقعه. بعيدًا عن وطنه، فحياة الفندق أصابته بالغم وظهر عليه الضجر رغم أخلاقه المهذبة. كان قد راهن على تمرّده وتاق إلى وجود دولة فاعلة لا يخجل من خدمتها.

سمير نشار، متحدث باسم المجلس الوطني السوري كان من حلب. رجل أعمال ميسور الحال عمره 67 عامًا، أنيقًا وحسن الهندام. كانت تبدو عليه السمات العملية وطابع المدينة الأصلية العقلاني.

كان يتناول وجبة على البوسفور ويفكر في بلاء سوريا وهو متأمل في رخاء ونظام اسطنبول. تحسن الطقس وانحسرت موجة البرد، وبدت اسطنبول زاهية في الشمس، كان يتذكر تركيا في أيامها العصيبة وأصدقاءه الأتراك على الحدود السورية عندما كانوا يطلبون منه أن يحضر لهم قهوة وأمواس حلاقة وأجهزة بسيطة من سوريا، والآن أصبحت سوريا في حالة جمود وفشل تام بينما تركيا أصبحت مزدهرة وفي حالة سلام. لم يكن لدى

نشار أيديولوجية، بل كان علمانيًّا خالصًا. كان من جيلٍ وهب نفسه للقومية العربية ولم يجد سوى الخذلان وليكون شاهدًا على نظام وحشية ونهب. كان لديه موهبة إعلامية حيث كان متحدثًا جيدًا وذا مظهر لائق وحضور جميل، وقوطع غذاؤه بطلب مقابلة من قبل «الجزيرة» ولو كان لديه أي شك في مصير التمرد فإنه لم يظهره. كان أمامه مهمة هائلة لو أخفق النظام. كان مؤمنًا بالملكية والأسواق الحرة. لم يقلق حول تولي الإسلاميين النظام الجديد. لقد قوّت التجربة التركية إيمانه بأن السوريين أناس عمليون سيعيدون بناء وطنهم إذا أتيحت لهم الفرصة. كان لدى المجلس الوطني السوري زعيمًا مقرّه باريس وهو برهان غليون، ذلك القائد ذو الكتابات المثيرة والذي كان له ميل نحو القطاع العام وكان مثقفًا على الطريقة الفرنسية. ولم يقلق نشار بشأنه. هناك في سوريا مجال لغليون وللمهارات الذائعة الصيت لابن حلب المحنك.

## الفصل الحادي عشر

# شظايا ماضٍ حزين ومفزع

في كتاب «دمشق بين الديمقراطية والدكتاتورية» للمؤلف السوري سامي مبيض والذي نُشر عام 2000، رأيت صورة بالأبيض والأسود من عام 1955. اثنان من زعماء سوريا في تلك الفترة أنيقان في ملابس رسمية يتصافحان. كان أحدهما يتَّشح بوشاح الرئاسة: كان ذلك هو الرئيس المنتهية رئاسته هاشم الأتاسي. كان يقف أمام البرلمان يسلِّم مقاليد الحكم لخلفه شكري القوتلي. كلا الرجلين كانا من الوسط الاجتماعي والسياسي نفسه، من علية القوم ذوي أراضي وثراء. كلاهما درس في اسطنبول في الأكاديميات الإدارية العثمانية وترعرعا في تراث الخدمة العامة. كان القوتلي أصغر بعشرين عامًا. كان رئيسًا سابقًا بين عامي 1943 - 1949. والأهم من ذلك، كان بطلًا قوميًّا، كان قد نفاه الفرنسيون ثم عاد ليشرف على مغادرتهم إلى سوريا في أعوام، يتخلى القوتلي عن السلطة ويفسح المجال للاتحاد المحكوم عليه بالفشل مع مصر ـ الجمهورية العربية المتحدة ـ حيث تمكَّنت حمى جمال عبد الناصر من سوريا.

لم تكن هناك رئاسة لمدى الحياة آنذاك ولا جماهير آلية غافلة «تهتف» الأسد إلى الأبد، لم يكن هناك تماثيل للقوتلي

أو الأتاسي في ميدان كل مدينة. وليس من المحتمل أنّ الهتاف المذل «بالروح والدم نفديك» تجاه زعيم اللحظة قد سمعت في ذلك الزمن. كان القوتلي شخصًا مرموقًا ولكن لم يكن يدُر في خلده أبدًا أن يورِّث الرئاسة لابنه كممتلك عائلي يورَّث. لم يكن ذلك النظام السياسي يتّسم بالكمال وقد تقرر تعطيله من قبل صانعي الانقلابات بعد سنوات قليلة من الاستقلال، ثم جاء رجال الجيش يستعرضون وهنه في عام 1963 عندما دفعوا به إلى قبره. هناك من السوريين من لا يزال يتذكر ذلك التاريخ ويتحرقون له باعتزاز وشوق مقارنة بذلك الطغيان الكئيب الذي تكالب عليهم بعد ذلك. السوريون الأصغر سنًّا ليس لديهم ذلك التاريخ ولكنه حُفظ ليروى لهم من قبل شيوخهم. إن حنقهم على أوضاعهم الراهنة لا بدّ أنه يغذّى بصيغة أو أخرى بمعرفة أنه لم يكن الطغيان مصيرهم المحتوم بسبب عرقي.

في خضم هذه الآلام نادت أمل حنانو، مراسلة «الجدلية»، تلك النشرة المهمة على الإنترنت، بتقييم جديد للقوتلي. عثرت على ابنة ذلك القائد التاريخي وصاغت عنه سيرة مطلوبة. تلك الابنة هنا التي هي الآن امرأة في السبعينيات من العمر كانت تعيش في المنفى بباريس. مكثت في فرنسا عقودًا وقبل ذلك كانت في لبنان وكما هو حال أولئك الذين في المنفى، كانت تحمل معها ذكرى دمشق وتاريخًا عائليًّا ذائع الصيت لثمانية قرون في تلك المدينة. الذاكرة تنمّق وتزين ذلك الماضي. «ولدت في دمشق وعندما فتحت عينيها فتحتها في دمشق». «علمتنا دمشق كيف نرحّب بالجميع ونفتح قلوبنا لهم». كانت جالسة تحت صورة كبيرة لوالدها معتمرًا الطربوش الأحمر وبذلة

رسمية على الطريقة العثمانية الوقورة، تذكرته كرجل حازم وأن حياته كانت مرآة لمصير سوريا. في الواقع وطبقًا للأسطورة اللامعة فقد مات في عام 1967 في بيروت مباشرة بعد حادثة حرب الأيام الستة وخسارة مرتفعات الجولان، وبرغم أن ذلك الرجل كان أبًا لبلاده ورمزًا للكفاح في سبيل الاستقلال، إلّا أن الرئيس آنذاك كان بعثيًّا متطرفًا يدعى نور الدين الأتاسي لم يكن ليعطي عائلته الإذن بدفنه في دمشق ولم يضمن ذلك الإذن إلّا شفاعة الملك السعودي فيصل.

لم يَنْسه الشعب السوري كما تتذكر ابنته. «كان الطريق إلى دمشق مكتظًّا بصفوف الآلاف من الناس على جانبيه وأيديهم مفتوحة، يرتّلون القرآن ويبكون على زعيمهم». لم تُرِد الحكومة إظهار أي تعبير شعبي للحزن على ذلك الرجل ولم يعبأ الدمشقيون بالسلطات. «في محطة الحجاز اندفع الناس إلى سيارة الإسعاف وأخرجوا الكفن منها». «وطار جسد المتوفى فوق بحر من الأيادي راقصًا على أطراف أصابعه كما لو كان في عرس عام». وقد صلى عليه الناس ثلاث مرات في المسجد الأموي ومرتين في مساجد أخرى. أعلن النظام الحرب على «الإقطاع» و«التخلف» و«الماضي» ولكن المشيعين كانوا أعلم. ودُفن الميت في الشاغور في الحي القديم الذي ولد فيه، تلك المنطقة المشهورة التي لم تتخلَ عنها العائلة قط. ظهر تعليق بديع صغير في قسم تعليقات القراء عن الرئيس وأيامه. استخرج من «الجريدة الرسمية» لعام 1949. رفض مجلس النواب طلبًا مقدمًا من رئيس الجمهورية لشراء سيارة رسمية جديدة، وبدلًا من ذلك فقد منحه 75 جنيهًا سوريًّا لإصلاح السيارة القديمة

بناءً على تقدير الميكانيكي. لم تكن هناك امتيازات خاصة لعائلته. كانوا أناسًا ذوي نعمة ولكن الخزينة العامة محظورة عليهم. كان القوتلي يكنُّ احترامًا كبيرًا للروح الاستقلالية لدى السكان. وتذكر أنه قال لخلفه مقولة مشهورة: «أترك لك أناسًا كل واحد منهم يعتقد أنه رئيس». أمّا الآن فسوريا قد «حلّت عليها لعنة» هكذا قالت ودستورها ممزق. «حاربنا الفرنسيين وطردناهم ولكننا كنا خصومًا شرفاء وكانوا محتلين أجانب واليوم نحارب واحدًا من بيننا يهاجم الناس والأطفال، هذا هو الأمر المرعب».

تحدَّثَت عن دمشقٍ لم يرها المراسل الشاب من قبل. كانت قد زارت المدينة قبل سنتين من ذلك الوقت في 17 نيسان/ أبريل، عيد الاستقلال، مشت في حيِّها العتيق «في حالة خراب الآن»، صُعقت عندما رأت أنه لم تكن هناك احتفالات بيوم الاستقلال. هذه دمشق التي لم تعرفها. أقامت في فندق لأن عائلتها لا تملك أي شيء في سوريا. تحلم بامتلاك بيت صغير في دمشق القديمة، «معطرًا ببقايا دمشق»، «معطرًا بربيع دمشق ـ أفتقد زهور المشمش والأغنام في الغوطة»، تلك الحدائق والبساتين التي كانت ذات يوم تحيط بدمشق طغى عليها تمدُّد البناء. لقد عرفَت ذلك. كانت تتابع أخبار التمرد على «الفيسبوك» وحتى على «تويتر». لديها أمل في سوريا ولكنها تخاف أنها قد تعود للآلام وتسرق من هؤلاء الذين هزموا الخوف. كانت تنتسب إلى سلالة مرموقة ولكنها لم تكن تختلف كثيرًا في حنينها لبلاد غيَّر ملامحها العنف والدكتاتورية والنهب الرسمي والديموغرافية وانتشار العمران، تغيّرت كثيرًا

بحيث لم تعد تُعرف. وبتفصيل حول ماضي سوريا المفقود تقدَّمت هنا القوتلي للمراسلة بهدية خاصة: صورة لوالدها مع جدّ المراسلة، إبراهيم هنانو، كانوا رجالًا من الطبقة الاجتماعية نفسها، أحدهم من أعيان دمشق والآخر زعيم في حلب.

الحلقة الثانية قدمت من قبل أحد كبار كتّاب البلاد في هيئة رواية حياتية «شذرات من الذاكرة» نشرت عام 1975. ولد الروائي حنا مينا في عام 1924 في مدينة اللاذقية على البحر المتوسط، كان طفلًا في فقر مدقع، هاجر أهله إلى إقليم الإسكندرون والتي غادرها عندما وقعت في قبضة تركيا في عام 1939. لم يستطع مينا الحصول سوى على التعليم الابتدائي. كان رجلًا قد علَّم نفسه بنفسه وعمل في الميناء مصفِّف شعر قبل أن يستطيع الانتقال إلى دمشق ليبدأ مهمته في الكتابة والصحافة. كانت دمشق رفيقة به ولكنه كان دائمًا يحنّ إلى اللاذقية والبحر، كان يتمنى أن تتحرك دمشق نحو البحر أو أن يصلها البحر. لم يجامل حنا قط أو يبالغ. بيده يصور بؤس الفقراء السوريين، بمن فيهم عائلته، بأمانة تقطِّع نياط القلب. كان إنتاجه المذهل أكثر من ثلاثين رواية سجلًّا لحياة سوريا في عصرنا. دخل وخرج من السجن 9 مرات ـ تحت الفرنسيين في الحقبة الأولى بعد الاستقلال وخلال فترة الاتحاد القصير بين سوريا ومصر. لقد عانى حقبة من النفي في الصين وأوروبا. سُجن في بداية العهد الناصري، لكنه بكى وحزن كثيرًا لوفاة عبد الناصر عام 1970. تعود به الذاكرة ربما إلى نهاية الأربعينيات حيث فقد آنذاك أختيه الكبيرتين بسبب المرض والعمل الشاق. كان مع والدته في إحدى الأحياء الغنية في بيروت عندما التقوا «فلاحًا عجوزًا من ريف اللاذقية يتخلى عن ابنته الشابة

لتعمل خادمة في إحدى تلك البيوت. كان على وشك أن يتركها وهي متعلقة به تبكي مناشدة إياه: «أقبل يدك، خذني يا أبي، خذني معك» كانت أمه مصدومة من ذلك المنظر، كان منظرًا من ماضيها. «لا أعرف الفلاح أو ابنته ولكن ذلك المنظر أصابني بالحزن. لقد بكت أختك الكبرى كذلك عندما تركتها وهي طفلة لتعمل في منزل رئيس القرية. تمسّكت بثوبي مثلما تمسكت تلك الطفلة ببنطال والدها. وقد توسلت هي «لا أريد أن أمكث هنا، خذيني معك يا أمي، أقبّل يدك، خذيني معك».

كان ريف اللاذقية بلادًا علوية وكان الفلاح الذي أعطى ابنته، يعلم مسبقًا ومن الواقع أنه أعطاها لخدمة استعبادية، لقد كان فلاحًا علويًّا.

عندما كنت في بيروت في صباي، كان هناك عدد لا يحصى من الخدم العلويين، فتيات صغار يتمّ تسليمهن للعوائل الميسورة لأجل إطعام عوائل الفتيات في ديارهم. كان هناك ولا يزال كرب في سوريا فوق تلك التي سببتها الحياة السياسية. كانت مظالم الولد والطبقة، تلك الهوة التي تفصل - كما يقول العرب - أطفال السيدة عن أطفال الخادمة. إن الحياة السياسية المليئة بالمؤامرة والعنف - إضافة إلى شيء من التعطش إلى العدالة - أتت بالعلويين إلى السلطة وقد منحتهم البنادق والزي العسكري نوعًا من القصاص ضدّ أولئك الذين نعموا بحياة أسهل وأفضل. لم يكن لديهم أي ميل للعودة إلى العبودية ولم يتوقف البندول (رقّاص الساعة) في المنتصف.

# خاتمة

انتهت روايتي، ولكن النظام لا يزال قائمًا ولم تقترب معاناة الشعب السوري من نهايتها. الوضع ليس على ما يرام في ليبيا: لا تزال فصائل الثوار تتناحر حول اتجاه مصير البلاد بالرغم من أن فترة طغيان القذافي قد انتهت. وقد لا يعتقد المصريون أن ثورة ميدان التحرير الرائعة، تلك الثمانية عشر يومًا السحرية التي أسقطت حسني مبارك، قد حقَّقت كل آمالهم، ولكن الفرعون البغيض قد ولى. ولم يشغل التونسيون أنفسهم بالتفكير في الطاغية الذين أطاحوا به حيث إن منفاه في السعودية دفن سرقاته التافهة في عالم النسيان.

وعلى النمط نفسه، فإن علي عبدالله صالح، الذي حكم اليمن لثلاثة عقود، إذا كان من الممكن إطلاق تلك الكلمة على الفوضى على تلك البلاد البائسة، تنحى جانبًا وترك البلاد لأحزانها. السلام الاجتماعي لم يتحقق في البحرين، ومع ذلك لم يسع المتظاهرون هناك للإطاحة بالملكية ولا يزال العنف محدودًا نسبيًّا. ومن بين المجتمعات العربية التى هيّجتها اضطرابات 2010 - 2011 تظلّ سوريا فريدة في الثمن الذي دفعه شعبها وفي وحشية وصلابة نظامها.

وكما بدا للقارئ فلم أخفِ تعاطفي في هذا الكتاب، فليس

هناك كاتب يمكن أن يكون حكمًا أخلاقيًّا يميّز الخطأ من الصواب ولم يكن في نيتي أن أكون في هذا السرد. لم يساورني الشك في قدرة الشعب السوري على خلق نظام أكثر إنسانية من هذا النظام المرعب (البغيض). لا تؤرقني «عتمة» المقاومة أو احتمال تحوّل سوريا إلى كيان إسلامي قاتم، فقد جرّب الشعب السوري الجحيم، وإني على يقين من أن أي نظام قد يتوّصلوا إليه سيحترم التضحيات التي قدمها. الأنظمة قد تستمر في التماسك حتى بعد أن تكون قد أفرغت من شرعيتها الأخلاقية.

إن الدكتاتور الذي قام بزيارة خاطفة لحمص بعد أن أنزل بها أقسى درجات العذاب فضح خواءه الأخلاقي، لقد أتى ليسخر من المدينة المفجوعة. وحسب ما أعلمه، فإن أباه لم يقُم بزيارة كتلك لحماة قبل ثلاثة عقود مباشرة بعد المذبحة!

لا يمكن إنكار أن القوى القائمة على شؤون الدول قد خذلت الشعب السوري. وحتى هذه اللحظة من كتابة هذه السطور، تعتقد التصريحات بأن الوحشية ستُجبر القوى على المسارعة إلى الإنقاذ.

لقد تمّ الاستشهاد بسابقتَي ـ البوسنة وكوسوفو وبدافع العار تدخلت القوى. هناك أمر مؤكد وهو أن شعب سوريا أظهروا عن عزيمتهم في مواجهة إرهاب لا يرحم.

لقد انقطع حبل الصلة بينهم وبين حكامهم. وفي خضمّ المعاناة يتذكر السوريون بإباء وطنًا أفضل، عسى أن ينعموا قريبًا بالوضع الطبيعي الذي طالما كان عسير المنال.

# المصادر

## الفصل الأول: افتتاحية: التوريث

- **مقدمة ابن خلدون**: مقدمة في التاريخ، ترجمها من العربية فرانز روزنثال، برنستون، نيوجيرسي، مطبعة جامعة برنستون، 1969 ترسم صورة بليغة للتدهور المحتوم الذي يطرأ على عائلة مالكة.

يتذكر المنشق برهان غليون الحماس تجاه ربيع دمشق المبكر.

انظر شريف عبدالقدوس، «**عمر من المقاومة بسوريا**»، The Nation ، أيلول/ سبتمبر 2011، وأمل هنانو «صور الشعب»، **جدلية**، 31 تشرين الأول/ أكتوبر 2011.

## الفصل الثاني: ظهور أهل الجبل

- لخلفية عن الجهاديين، انظر الصحفي السياسي نبراس كاظمي في دراسة هوفر لعام 2010، **سوريا من منظار الجهاديين: العدو اللدود**، ستانفورد، كاليفورنيا، مطبعة مؤسسة هوفر.
- لدراسة شاملة عن الملل المنشقة عن مذهب الشيعة،

انظر منى موسى، **الشيعة المتطرفون: طوائف الغلاة**، سيراكيوز، نيويورك، مطبعة جامعة سيراكيوز، 1987.

- من منتصف القرن التاسع عشر الكاتب دبليو. إم. تومسون في كتابه القيم **البلاد والكتاب**، لندن، تي. نيلسون وأولاده، 1872، ثلاثون عامًا مبشرًا في سوريا وفلسطين.
- الاستقلال الذاتي والمميزات التي منحها الفرنسيون للعلويين يمكن معرفتها من كتاب ألبرت حوراني سوريا ولبنان: **مقالة سياسية**، لندن، مطبعة جامعة أكسفورد، 1946، ص 51.
- إيتامار رابينوفيتش، في كتابه وجهة **النظر في دمشق**، بورتلاند، أوريغون، فالنتين ميتشل، 2008، يرتِّب فيه التاريخ المعقد للعلويين، والفرنسيين، والدروز، والأكراد، والسّنة.
- يمكن الاطلاع على المعروض العلوي لعام 1936 في متي موسى، **الشيعة المتطرفون: طوائف الغلاة**، سيراكيوز، نيويورك، مطبعة جامعة سيراكيوز، 1987، وكذلك فيليب خوري، **سوريا تحت الانتداب الفرنسي**، برنستون، نيوجرسي، مطبعة جامعة برنستون، 1987، يروي قصة سليمان المرشد.
- للمزيد حول مفتي القدس، انظر غيتا يافي - شاكزمان، **«الانفصاليون والاتحاديون العلويون: أحداث 25 شباط/ فبراير 1936»**، دراسات شرق أوسطية، مجلد 31، العدد الأول، كانون الثاني/يناير، 1995.

- مارتين كريمر «علويو سوريا والتشيع» ، في مارتن كرايمر، محرر، **الشيعة والمقاومة والثورة**، مطبعة ويستفيو، بولدر، كولورادو، 1987، ص.ب 2454 - 237، يبيِّن القطيعة بين العلويين والسُّنة.

## الفصل الثالث: زمن المؤسس

- في كتابه المتميز، **فلاحو سوريا وسليلو أعيانها الريفيين الصغار وسياستهم**، برنستون، نيوجرسي، مطبعة جامعة برنستون، 1999، يصوِّر حنا بطاطو صعود حافظ الأسد إلى السلطة وتصفية أصدقائه وخصومة سوية.
- في مذكراته المؤثرة، **بوح اللغة والصمت**، بيروت، 2006، يروي لنا أحمد فرج بيرقدار الزيارات التي تقطع نياط القلب والتي قامت بها ابنته والشعر الذي يتبادلانه. ويظهر إدلاء بيرقدار بشهادته في المحكمة في ملحق بمذكراته.
- في كتابه «**العلويون: طائفة في السلطة**»، (Outre Terre (2، 12، 2006، ص73-96، صوَّر ببراعة مقدرة الأسد الأب في معالجة قضية الدين العلوي ومصداقيته بطريقة متألقة.
- لفهم روابط حافظ الأسد مع الفلاحين السوريين، انظر حنا بطاطو **فلاحو سوريا وسليلو أعيانها الريفيين الصغار وسياستهم**، برنستون، نيوجرسي، مطبعة جامعة برنستون، 1999.
- هناك وصف لتمرد حلب 1979 في رواية كتبها خالد خليفة، أحد أبناء حلب وهو روائي لامع. كان خليفة،

الذي ولد عام 1964 في العقد الثاني من عمره خلال الفترة القاسية والتي كان لها تأثير ساحر في سرد روايته، **مديح الكراهية** والتي ظهرت عام 2008 وترجمت إلى الفرنسية تحت العنوان نفسه.

- مايكل سيوارت، صور في كتابه **الوضع البربري**، باريس، طبعات دو سول، 1989، العصيان في حلب وردّ الفعل الوحشي من قبل شقيق حافظ الأسد رفعت، قائد فيالق الدفاع وكذلك الهجوم والمذبحة في سجن تدمر. سورات ولد في تونس عام 1947 كان باحثًا وكاتبًا من الطراز الأول. وقد قام بأبحاث في سوريا ولبنان ومعرفته بطرابلس لا تُضاهى. وقد اختُطف في بيروت من قبل «الجهاد الإسلامي» في العام 1985 ومات في الأسر وعمره 38 عامًا. وقد نشر كتابه الوضع البربري بعد وفاته، وتتميز المقالات الخاصة بسوريا فيه بمزيج من المستوى البحثي الرفيع وأسلوب الكتابة الجميل.

فيما يتعلق بتاريخ سوريا الاجتماعي، انظر مقالة الصحافي اللبناني جهاد الزين «اللغز الطائفي في التحول الديمقراطي لسوريا» ، **النهار**، 29 تموز/يوليو، 2011.

## الفصل الرابع: الفجر الكاذب

- للحصول على إدراك عميق لنضال لبنان ضد المناورات السورية، انظر جورج شولتز **الصراع والانتصار: الدبلوماسية والقوة وتفوق المثل الأعلى الأميركي**، نيويورك، سايمون وشوستر، 1993، ص 206.
- للحصول على سجل شامل للفترة الانتقالية من الأسد

الأب إلى بشار، انظر كتاب إيال زيسير، **السيطرة على سوريا، بشار الأسد والسنوات الأولى في السلطة**، لندن، آي. بي. أكاديمية تورس للصحافة، 2006.

- تسريب سجل تفاصيل محادثات الاجتماع بين رفيق الحريري وبشار الأسد وقد قامت صحيفة **الجمهورية اللبنانية** بنشر نصها الكامل بتاريخ 4 آب/ أغسطس، 2011.
- أنتوني شديد في مقالته «انفجار بيروت يقتل خصم سوريا»، **واشنطن بوست**، 13 كانون الأول/ ديسمبر، 2005، كتب عن اغتيال الصحافي اللبناني جبران تويني.
- هناك عدة إشارات نيّرة مستخلصة من البرقيات التي ثبتها ويكيليكس، إحداها عن جبران التويني أرسلتها السفارة الأميركية في دمشق «**مقتل جبران تويني**»، 19 كانون الأول/ ديسمبر، 2005.
- فيما يتعلق بدبلوماسية الحرية في إدارة بوش وثورة الأرز، انظر كتاب جورج دبليو بوش، **معالم القرار**، نيويورك، الناشرون كراون، 2010، ص412.
- تقرير مجموعة دراسة العراق: **الطريق إلى الأمام**، جيمس أ. بيكر الثالث و بي هـ. هاملتون (رئيسي المجموعة)، نيويورك، كتب فينتاج، 2006، يبين الدافع وراء استئناف الحوار مع سوريا وإيران عندما دعم حرب العراق ينسحب.
- رئيس الاستخبارات السورية يحضر الحوار (Ct) مع (S/ Ct) بنجامين». **السفارة الأميركية في دمشق**، 24 شباط/ فبراير، 2010.
- يمكن الاطّلاع على وجهة نظر السناتور جون كيري حول

سوريا في خطابه إلى المحرر، جريدة **وول ستريت جورنال**، 17 حزيران/يونيو 2011

- منظمة حقوق الإنسان لا تزال مصدرًا قيمًا للمعلومات في أثناء هذا الصراع، **حقوق مهدورة: حقوق الإنسان في سوريا خلال العشر سنوات الأولى من حكم بشار الأسد**، نيويورك، 2010

## الفصل الخامس: أولاد درعا

- قدّم جي سولومون وبل سبيندل على صفحتهما في جريدة **وول ستريت جورنال**، 31 كانون الثاني/يناير، 2011، للقارئ حوارًا صحفيًا متميزًا مع بشار الأسد، «رجل سوريا القوي: آن وقت الإصلاح».
- قدمت تقارير مجموعة من الأزمات الدولية قراءة واضحة حول التمرد. انظر: مجموعة الأزمات الدولية، الاحتجاجات العامة (الشعبية) في شمال أفريقيا والشرق الأوسط :(VI) ثورة الشعب السوري ذات الحركة البطيئة، تموز/يوليو 2011 ، **التقرير رقم 108**.
- هناك وصف للمظاهرات في بانياس بقلم محمد أبي سمرا «من يوميات الانتفاضة السورية»، **النهار**، 9 تشرين الأول/أكتوبر، 2011.

## الفصل السادس: أشباح حماة

- كتابات الرحالة والكاتب البريطاني روين فيدن عن حماة لها أهمية خاصة. انظر: روبن فيدن، **سوريا: تعتيم تاريخي**، لندن، روبرت هيل ليميتيد، 1946.

- فابريك بالانش، **إقليم العلويين والسلطة السورية**، مطابع كارثالا، باريس، 2006، وفي دراسته «جغرافية الثورة السورية»، نشرت في «**لا ريفو أوتر تير** (Outre Terre)»، عدد 29، أكتوبر/تشرين الأول - كانون الأول/ديسمبر 2011، حيث بلادهم بين الجغرافيا والاجتماع ويقدم تحليلًا فريدًا لسوريا ومجتمعاتها وأقاليمها.
- لأن البلاد مقفلة أمام العالم الخارجي، فقد استخدم **فيسبوك، وتويتر، ويوتيوب**، في بعث رسائل إلى العالم. انظر توماس بييري، «علماء المنفى السوريون يحاولون الرد على ديفو بروجوازي عبر يوتيوب»، ميديابارت، 21 تشرين الأول/أكتوبر، 2011.
- من بين الصحافيين القلائل الذي سمح لهم بزيارة دمشق وحضور اجتماع مع رجل أعمال وابن عم بشار الأسد من جهة الأم رامي مخلوف، كان الصحافي أنتوني شديد من الـ «نيويورك تايمز». انظر مقالته «النخبة السورية تحارب المظاهرات إلى النهاية» ، **نيويورك تايمز**، 10 أيار/ مايو، 2011.
- ظهرت تعليقات رئيس وزراء تركيا أردوغان في جريدة **النهار**، 2 تشرين الثاني/نوفمبر، 2011.
- المخاطرة الكبيرة التي قام بها المنشقون من الجيش تُصوِّرها قصة المقدم حسين هرموش، انظر إيفان واتسون، «الاختفاء الغامض لحسين هرموش»، **سي. إن. إن**، 14 تشرين الأول/أكتوبر، 2011.
- نبراس كاظمي باحث وشاب يعرف العراق وسوريا. انظر

«الوضع السوري وتأثيره على العراق»، في **عمارة وتجارة**، 19 نيسان/أبريل، 2011.

- شارلز غلاس، في كتابه **قبائل ذات إعلام (برايات): رحلة محفوفة بالمخاطر وسط فوضى الشرق الأوسط**، نيويورك، مطبعة أتلانتيك ماونثلي، 1990، يقود القارئ معه في رحلة من الإسكاندريتا إلى العقبة مع زيارة إلى حماة بعد سنوات قليلة من المذبحة هناك.

## الفصل السابع: حقيقة الطوائف

- الصحافي اللبناني مايكل يونج، في مقاله «قسيس لبنان السياسي المزعج»، **ديلي ستار**، 15 أيلول/سبتمبر، 2011، يفنِّد بلا رحمة دعم البطريرك الماروني لحكام سوريا.
- ميشيل كيلو «نداء إلى البطريرك الماروني»، **العربية**، 19 أيلول/سبتمبر، 2011 ، يعزز هذا الجدال بخصوص دعم الكنيسة المارونية للنظام في سوريا، كيلو، والذي هو في سبعينياته، محتجز صادق في سجون الأسد، مسيحي وقيادي في المعارضة.
- فريا ستارك (1893 - 1993) كانت مستكشفة وكاتبة رحلات متميزة وغزيرة. إدوارد عطية في كتابه عربي يسرد قصته: دراسة في الولاءات»، يبين مناطق الارتباك بين الطائفة والمجتمع في سوريا الكبرى. المقتطفات من إدوارد عطيه وفريا ستارك يمكن العثور عليها في كتاب دانيال بيبيس **سوريا الكبرى**، نيويورك، مطبعة جامعة أكسفورد، 1990.
- لمعرفة قصة رئيس وزراء لبنان نجيب ميقاتي، انظر

رضوان عقيل، **النهار**، 7 آب/أغسطس، 2011، «تقرير من طرابلس».

- قام الأكاديمي الفرنسي توماس بييريت ببحث شامل في الإسلام السوري ويقدِّم لنا صورة واضحة في «الإسلاميون السوريون يصلون إلى المجتمع العلوي»، ميديابار، 4 تشرين الأول/ أكتوبر 2011.
- رئيس «ائتلاف القبائل السورية «إسماعيل خالدي تحدث إلى **الوطن العربي**، 30 أيلول/سبتمبر، 2011 في مقابلة مع سيد جبيل.
- سوريا من خلال عيون الجهاديين: «**العدو الخالص**»، مطبعة معهد هوفر، 2010. نبراس كاظمي، من خلال بحث استقصائي على أرض سوريا، يقدم للقارئ أدلة كثيرة على الاضطرابات القادمة والتمرد داخل سوريا.
- رجل الدين المثير للجدل، الشيخ أحمد حسون، المؤيد للنظام السوري، يثير عداوة الكثير من الجماعات بمقولاته المستفزة. برقيات السفارة الأميركية، **ويكيليكس**، المرسلة في 3 شباط/فبراير، 2010 من السفارة الأميركية في دمشق، «تعليقات المفتي العام عن الرسول تشعل هجومًا شعبيًا حادًّا». نير روزن، «حديث مع المفتي العام حسون»، **الجزيرة**، 3 تشرين الأول/ أكتوبر، 2011. يمكن العثور على رسالة المفتي حسون في **إيلاف**، 9 تشرين الأول/أكتوبر، 2011.
- جوشوا لاندس، «**التعليم الإسلامي في سوريا: رفض العلمانية**»، إنسانية، المجلد 13، أيلول/سبتمبر - كانون

الأول/ ديسمبر 2008، يصور نظام التعليم في سوريا تحت حكم آل الأسد.

- أنطوني شديد، «أبناء سوريا الذين لا أبًا لهم»، مجلة **نيويورك تايمز**، 31 آب/ أغسطس، 2011، تصف جذور التطرف بين الشباب في عين التمرد السوري.

## الفصل الثامن: سارييفو على الجبل

- ويكيليكس عن حمص ومكانه وسكانها المسيحيين في المدينة. انظر «خارج العاصمة: الزعماء المحليون يناقشون التحديات التي تواجه حمص»، السفارة الأميركية في دمشق، 3 شباط/ فبراير، 2010.
- لمعرفة تركيبة الجيش السوري وأساليب ضبطه، انظر أغانس فرانس بريس .«**المنشقين عن الجيش السوري يتحدثون عن دموية النظام**»، 8 تشرين الأول/ أكتوبر، 2011.
- جوش وود، في مقالته «اللاجئون السوريون في لبنان يواجهون المخاطر»، **نيويورك تايمز**، 19 تشرين الأول/ أكتوبر، 2011، تصور بشكل قائم لانعدام الحماية لدى السوريين الطالبين للأمان في لبنان.
- شلبي العيسمي، عجوز درزي بدون أجندة سياسية، ذُكِر أنه اختطف عندما كان يزور ابنته. انظر: ندى بكري، «سوريا متهمة بالاختطاف في لبنان»، **نيويوك تايمز**، 1 تشرين الثاني/ نوفمبر، 2011.
- منظمة العفو الدولية كانت دائمًا متيقظة في نشرها للمأساة الإنسانية في سوريا. انظر **الأزمة الصحية: الحكومة السورية تستهدف الجرحى وعمال الصحة**، 2011.

- أندرو جيليجان أجرى مقابلة مع بشار الأسد وتجول في مدينة حماة خلال رحلته إلى سوريا في تشرين الثاني/ نوفمبر 2011. في زيارته للمدينة، قابل الصحفي حاكم المقاطعة. «مقابلة صحفية مع الرئيس السوري بشار الأسد» **ذي صاندي تلغراف**، 30 تشرين الأول/أكتوبر، 2011. أندرو جيلجان، «داخل حماة، مدينة الخوف والأشباح» **ذي ديلي تلغراف**، 1 تشرين الثاني/ نوفمبر، 2011.

## الفصل التاسع: المأزق (الطريق المسدود)

- أمل هنانو، في «صورة شعب: برهان غليون»، **جدلية**، 31 تشرين الأول/أكتوبر، 2011 تقدّم هذا الرجل إلى القرّاء في باريس، أستاذ جامعي ورئيس المجلس الوطني السوري.
- فدوى سليمان، الممثلة العلوية التي تحرَّرت من طائفتها وخوفها وظهرت في حمص في تشرين الثاني/ نوفمبر2011 لتقدم تأييدها للمتظاهرين. بعد عدة أيام، أجبرت على الاختباء. انظر بسمة أتاسي «ممثلة سوريا الجسورة»، **الجزيرة**، 24 تشرين الثاني/نوفمبر، 2011. في آذار/مارس 2012 ظهرت في باريس، هربت من البلاد عن طريق الأردن.
- للاطّلاع على ملاحظات الرئيس جلال طالباني حول التدخل في سوريا، انظر **الشرق الأوسط**، 27 تشرين الثاني/ نوفمبر، 2011.
- **تقرير لجنة التقصي الدولية المستقلة عن الجمهورية العربية السورية**، 23 تشرين الثاني/نوفمبر، 2011 حيث قابلت

223 ضحية وشهود ادعاءات انتهاكات حقوق الإنسان، بما فيهم المدنيين والمنشقين عن الجيش وقوات الأمن.

- للاطلاع على فهم حصيف للعلاقة بين سوريا وإيران، انظر: إيتمار رابينوفيتش، **الوضع في دمشق (الرؤية في دمشق)**، بورتلاند، أوريغون، فالينتاني ميتشل، 2008.
- برهان غليون يمنح أول مقابلة صحفية كرئيس للمجلس الوطني السوري لجي سولومون ونور مالاس، «سوريا ستقطع ارتباطها العسكري مع إيران، المعارضة تقول»، **وول ستريت جورنال**، 2 كانون الأزل/ديسمبر، 2011.
- ميشيل كيلو، في مقالته «ماذا يعرف الرئيس؟»، **الشرق الأوسط**، 14 كانون الأول/ديسمبر، 2011، يطرح الأسئلة المزعجة العالقة في أذهان الكثير من الناس حول المقابلة التي منحها بشار الأسد للصحافية المخضرمة باربرا والترز في 7 كانون الأول/ديسمبر، 2011.
- بينما كان مراقبو الجامعة العربية يتوافدون إلى دمشق في كانون الأول/ديسمبر حدث انفجار سيارتين أدى إلى مقتل أكثر من أربعين شخصًا. انظر: كريم فهيم «سوريا تلوم القاعدة بعد أن قتلت التفجيرات الكثير في دمشق»، **نيويورك تايمز**، 23 كانون الأول/ديسمبر، 2011.
- كرجل دين محترم على نطاق واسع في سوريا، أدان كريم راجح بشار الأسد ونظامه في **الشرق الأوسط**، 25 كانون الأول/ديسمبر، 2011.
- باتريك سيل كان كاتبًا لسيرة حياة حافظ الأسد ومؤرخًا سياسيًّا رياديًّا لسوريا الحديثة. يمكن الاطلاع على مقالاته

في الإنترنت على موقعه الإلكتروني /**patrickseale.com**
**agenceisioai**، انظر على وجه الخصوص «الأسد متحديًا يصرّ على موقفه»، 21 حزيران/ يونيو، 2011.

- انظر جوش روغن «إدارة أوباما سريًّا تمهد الآراء لمساعدة المقاومة السورية»، **السياسة الخارجية**، نشرت في 28 كانون الأول/ديسمبر، 2011، ومارك لاندلي، «زعيم زمن حرب ينهي حربًا لم يكن يريدها أبدًا»، **نيويورك تايمز**، 9 كانون الأول/ ديسمبر، 2011.
- التدخل الأجنبي استبعد على أساس أنه غير مرغوب فيه من قبل السوريين، ولكن سمير نشار، العضو التنفيذي في المجلس الوطني السوري يقدم دحضًا قويًّا لذلك الرأي التقليدي. انظر: بن بيرنباوم، «قائد المعارضة: معظم السوريين يريدون عملًا عسكريًّا أجنبيًّا»، **واشنطن تايمز**، 2 كانون الثاني/يناير، 2012.
- قلق الرئيس التونسي منصف المرزوقي حول العنف في سوريا مقتبس في **جريدة النهار**، 12 كانون الثاني/ يناير، 2012.
- للاطلاع على رئيس أساقفة حلب جان كليمان جنبرت، انظر **وكالة أنباء أجانس فرانس الصحفية**، 11 كانون الثاني/ يناير، 2011.
- انشق الشاب الشجاع الشيخ عبد الجليل السعيد عن المفتي حسون وقد ذكر في **الشرق الأوسط**، 15 كانون الثاني/ يناير، 2012.
- لدى وزير الخارجية الأسبق هنري كيسنجر فراسة مميزة حول أساليب الزعماء السياسيين. وآراءه حول حافظ

الأسد تستحق القراءة. **سنوات التحولات المضطربة**، بوسطن ، ليتل، براون وشركاؤهم، 1982، ص 779.

- علي أسعد وطفة، «المجتمع العلوي المحاصر: قراءة اجتماعية»، **إيلاف**، 5 كانون الثاني/يناير، 2012.
- أرنولد توينبي، **دراسة في التاريخ**، المجلد الثاني. المقطع استشهد به الفيلسوف والمصرفي اللبناني الشهير ميشيل شيحا، ويصور ذلك ببلاغة القومية اللبنانية. استشهد بتونيبي في محاضرة عام 1953 في «الندوة اللبنانية» وهي منتدى بيروت المشهور. وقد جمعت ونشرت دار النهار خمسون عامًا من محاضرات المنتدى في عام 1997.

## الفصل الحادي عشر: شظايا ماضٍ مأسوف عليه ومفزع

- سامي مبيض، **دمشق بين الديمقراطية والدكتاتورية**، لانهام، ميرلاند، المطبعة الجامعية الأميركية، 2000.

أمل هنانو، «ابنة رئيس سوري»، **جدلية**، 6 كانون الأول/ ديسمبر، 2011، المقاطع من حنا مينا هي من شذرات من الذاكرة: قصة عائلة سورية، جامعة تكساس، أوستن، 1993 (ترجمة أوليف كيني ولورن كيني).

# حول المؤلف

فؤاد عجمي عضو مرموق في معهد هوفر ورئيس مشارك في مجموعة عمل هربرت وجين دوايت المختصة بالإسلام والنظام العالمي. من عام 1980 - 2011 كان مديرًا لدراسات الشرق الأوسط في جامعة جونز هوبكنز. وهو مؤلف «المأزق العربي»، «بيروت: مدينة الندم (الأحزان)»، و«قصر أحلام العرب»، وكذلك «موهبة الأجنبي (هبة)»، وتتضمن كتاباته حوالي أربعمائة مقالة عن السياسات العربية والإسلامية، والسياسة الخارجية الأميركية، والتاريخ الدولي المعاصر. وقد منح عجمي العديد من الجوائز بما في ذلك جائزة بينجامين فرانكلين لخدمة المجتمع (2011)، وجائزة إريك براندل للتميز في الصحافة (2006)، وميدالية الإنسانيات الوطنية (1982). وقد بيّنت اتجاهاته الطريق إلى فهم ودراسة أحداث 11/ 9، وحرب العراق والوجود الأميركي في العالم العربي والإسلامي.

معهد هوفر عن الحرب والثورة والسلام الذي تأسّس في جامعة ستانفورد عام 1919 من قِبَل هربرت هوفر، والذي أصبح الرئيس الحادي والثلاثين للولايات المتحدة، هو مركز أبحاث متداخلة للدراسات المتقدمة حول الشؤون المحلية والدولية. إن الآراء المُعبّر عنها في نشراته هي تمامًا خاصة بالمؤلفين وليست بالضرورة تعكس آراء العاملين والموظفين أو مجلس إدارة معهد هوفر.

www.hoover.org.

نشرة مطبعة معهد هوفر رقم 624
معهد هوفر في جامعة ليلاند ستانفورد جونيور
ستانفورد . كاليفورنيا 94305 - 6010

# مجموعة عمل هربرت وجين دوايت حول الإسلام والنظام العالمي

تهدف هذه المجموعة إلى الانخراط في مهمة تفعيل انحسار التطرف الإسلامي من خلال إصلاح وتعزيز دور الدولة ذي الشرعية القانونية في كافة أطراف العالم الإسلامي. تستقي الجهود من القدرات الفكرية للعديد من الباحثين وأصحاب الخبرة من الولايات المتحدة وغيرها من البلدان بهدف تنمية التحديث العصري والازدهار الإنساني وسيادة القانون والعقل لتطوير الأقطار الإسلامية المهمة بشكل أساسي لاستقرار النظام العالمي.

يرأس مجموعة العمل أستاذان في هوفر هما فؤاد عجمي وشارلز هيل إضافة إلى مشاركة فعالة من قبل المدير جون ريزيان. تشمل العضوية الرئيسة الحالية رسل إي. بيرمان، وعباس ميلاني، وشيلبي ستيل، وبمشاركات كلٍّ من زينو باران، راوول مارك غيريشت وزياد حيدر، ور. جون هيوز، ونبراس كاظمي، وبرنارد لويس، وحبيب مالك، وكاميل بيكاستينج، والمقدم جويل رايبيرن، وجوشوا تايتلباوم.

العديد من الكتابات ذات العلاقة بمجموعة العمل هذه ستنشر من قِبَل معهد هوفر. المواد المنشورة إلى الآن أو التي في طور الإخراج مذكورة أدناه.

## مقالات

- جوشوا تايتلباوم، «المملكة العربية السعودية والفضاء الاستراتيجي».
- حبيب س. مالك، «الإسلام ومستقبل المسيحيين في الشرق الأوسط».
- زياد حيدر، «الصراع الاستراتيجي على باكستان».
- نبراس كاظمي، «سوريا بعيون جهادية: العدو المطلق».

## كتب

- برنارد لويس، نهاية التاريخ في الشرق الأوسط.
- راوول مارك جيرشت، الموْجَة: الإنسان، الله، وصندوق الاقتراع في الشرق الأوسط.
- رَسِلٌ بيرمان، الحرية أو الإرهاب: أوروبا تواجه الجهاد.
- زينو باران، بلد ممزّق: تركيا بين العلمانية والإسلام.
- شارلز هِلْ، تجربة ألف عام: النظام العالمي والإسلام.
- عباس ميلاني، خرافة الشيطان الأكبر: نظرة جديدة إلى علاقات أميركا بإيران.
- فؤاد عجمي، التمرد السوري .
- كميل بيكاستنج، الجهاد في البحر العربي.

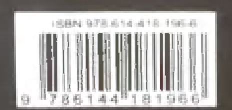
## الكتاب

«العصر الحديث» تزوِّد بقدرة غير مسبوقة لرؤية التاريخ البشري بكامله، بنظرة واحدة. نحن نعيش في «متحف بلا جدران» يمكننا من التعرف على علامات اللحظة التاريخية والتي نشعر بها اليوم في سوريا. منذ أن انهارت مسيرة الخلافة الإسلامية في عام 1924 بنهاية الإمبراطورية العثمانية، فقدت شعوب الشرق الأوسط بدون استقرار أو نجاح عن هوية إسلامية لتجد نفسها محكومة بطريقة متخلفة وملكيات مستبدة. ظل الإصلاح حلمًا خياليًا وأصبحت الدعائية الكلامية والتهديد المبطن من الأفعال المتداولة في الحياة. وعلى مرّ العقود لا يتذكر الناس من خارج المنطقة وقتًا لم يكن فيه الشرق الأوسط إما مشكلة أو تهديدًا لبقية البشرية. ولذا، فعندما بدأ القرن الحادي والعشرين في 11 أيلول/ سبتمبر 2001، جاءت صدمة الصحوة ضرورة «إعادة صياغة الشرق الأوسط الكبير» كحلٍّ وحيد للحيلولة دون تهالكه خارج النظام العالمي، وانتشاله من مستنقعه وإعطائه دورًا إيجابيًا في بقاء العالم وتقدمه. إن الربيع العربي هو صحوة على الواقع من قبل سكان شباب جدد يصفون أنفسهم بأنهم لا علاقة لهم بالحركات والأنظمة القمعية السابقة.

سوريا هي موقع القيادة، أو كما وصفها توينبي الحلبة التي تواجه فيها كل القوى بعضها مع البعض الآخر ويكون لذلك عقابيل - جيدة أو سيئة في كل أنحاء العالم.

ستُدمّر الثورة السورية أو أنها ستغرس لها موطىء قدم؛ وهذا لا يمكن حدوثه بدون مساعدة خارجية. ينبغي على العالم بأسره أن يرى ذلك أو تواجه خيارًا خطيرًا. إذا استطاع الثوار الاستمرار بدون أن يقعوا ضحية لبعضهم البعض أو لأعداء الثورة المتمكنين، فإن تغيير الشرق الأوسط الكبير سيكون فعلًا في طريق التكوين.

**شارلز هِلْ**


ISBN 978-614-418-196-6

Jadawel جداول
www.jadawel.net